المكتبة التاريخية

تاريخ
الزنج والقرامطة والحشاشين



أ. د. محمد سهيل طقوش

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف: إحدى قلاع الحشاشين في سورية

تاريخ
الزّنج والقرامطة والحشّاشين

تأليف

أ.د. محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

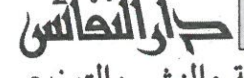
تاريخ الزّنج والقرامطة والحشّاشين
تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: 1435هـ ـ 2014م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 534 - 7

Publisher	نشر



DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon



للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ ثلاث حركات مناهضة للخلافة العباسية، هي: حركة الزّنج، وحركة القرامطة، وحركة الحشّاشين (النزاريين).

لقد كثرت حركات الخروج على الخلافة العباسية وتنوعت طبائعها الدينية والسياسية والاجتماعية، ومنها الحركات الثلاث المذكورة.

قامت حركة الزَّنج في العصر العباسي الثاني، في منتصف القرن الثالث الهجري، وكانت ذات طابع سلطوي، واتخذ صاحبها علي بن محمد من أوضاع العبيد الاجتماعية السيِّئة في سواد الكوفة، غطاء للخروج على الخلافة العباسية، وتكوين كيان سياسي مستقل وفقاً لطبيعة العصر.

ومما لا شك فيه بأن حركة الزَّنج، التي أنهكت دولة الخلافة العباسية قبل أن تقضي عليها، تسترعي الانتباه وتدعو الباحث إلى معالجتها من خلال البحث عن طبيعتها وأهدافها ودوافع الاستجابة لها.

وللوقوف على طبيعة الحركة لا بدَّ لنا من سبر أغوار العناصر والفئات التي أيَّدتها أو شاركت فيها، والواقع أن عماد الحركة تمثَّل في بادئ الأمر ببعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة: الزَّنج، العرب الضعفاء، عشائر عربية ثائرة على السلطة.

أمّا فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع؛ فهو علي بن محمد، العربي الأصل الذي اتصف بالتقلُّبات السريعة وفقاً للظروف التي كان يمرُّ بها، كما اتصفَ بالطموح، وكان موهوباً، بعيداً عن الزهد، وغلب على حركته طابع السلب والنهب، لكن رافقتها فكرة المهدي المنتظر، فاستغلها بذكاء،

وهو بادِّعائه المهديَّة كان يضرب على وتر حساس في نفوس جماعة العلويين، فسمَّى نفسه من أجل ذلك: «المهدي علي بن محمد» المنقذ، وجهر في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج التي تلائم مبادئ حركته.

والواقع أن أفكاره المتعلقة بالخلافة، والقائمة على الشورى، تعارضت مع مفهوم الشيعة لها التي تؤكد على الوراثة، الأمر الي نفَّر الأعراب البسطاء، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المجاورة لها والمحيطة بها، كما رفض حمدان بن الأشعث قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية، أمّا شدَّته وقسوته تجاه أعدائه، فقد جعلته خارجياً متطرفاً، وقد وعد أتباعه الزَّنج بأنه سيُملِّكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياتهم من أرقّاء إلى ملّاكين للعبيد.

والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يُفرغها من أي صفة عقدية، ويجعلها حركة مسلَّحة ضدَّ الخلافة العباسية، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامراً، طموحاً إلى السلطة، ومما لا شك فيه بأن طموحه السياسي المتمثل بالاستيلاء على السلطة يُعدُّ الواقع الحقيقي لحركته، ما حدَّ من اندفاعها لدرجة كبيرة، وحصرها في فئة الزَّنج، وأبعد عنها تدريجاً الفئات الأخرى التي شاركت فيها.

حرَّكت هذه الجماعات المتعددة التي التفَّت حول علي بن محمد دوافع مختلفة منها:

الخروج من دائرة البؤس والشقاء، والحصول على الغنائم عن طريق السلب والنهب، والتخلُّص من العمل الشاق، وضنك العيش.

أمّا دوافع الاستجابة الواسعة للحركة من قِبل العبيد فتكمن في ثلاثة أمور: سياسية واقتصادية واجتماعية.

فمن حيث الدافع السياسي، لقد سبق حركة الزَّنج ورافقها نفوذ مارسه الأتراك على الخلافة، وقد غلب عليهم الارتزاق، وانحصر نشاطهم في تقرير الوسائل التي تُمكِّنهم من ضرب خصومهم ومنافسيهم، والاستئثار بالسلطة، ما أدى إلى كثرة المؤامرات السياسية والانقلابات العسكرية، فانحدرت الخلافة، وغدا الخلفاء مسلوبي الإرادة.

ونتيجة تردّي الأوضاع السياسية، اشتدَّ ساعد المعارضة الشيعية بخاصة،

فتعاظم النفوذ العلوي وتغلغل بين الناس، وكان التوجُّه الحركي يجيش منذ مطلع القرن الثالث الهجري، فكثرت الحركات الخارجة على الخلافة، وتعدَّدت الحركات الانفصالية في الأطراف، وجاء ذلك دليلاً على الانحلال الذي أخذ يدبُّ في جسم الخلافة، فكان الجوُّ السياسي العامُّ ملائماً للرجال المغامرين كي يفوزوا بالسلطان.

ومن حيث الدافع الاقتصادي، تبرز أمامنا ظاهرتان، ظاهرة الأوضاع المالية المتدهورة، وظاهرة التكوين الاجتماعي.

ففيما يتعلق بالظاهرة الأولى، فإن الأمور الملفتة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، أن مالية الدولة كانت في تأخر مستمر، بفعل إسراف الخلفاء والقادة الأتراك، ومن مظاهر التعثر والانحطاط في مالية الدولة أن نظام الالتزام أو الضمان أضحىٰ على ما يبدو هو النظام السائد، ومما زاد الوضع المالي تدهوراً، فصل بيت مال المسلمين عن خزانة الخليفة الخاصة، ومع اشتداد نفوذ الأتراك فقد وضعوا أيديهم على بيت مال المسلمين، في حين انصرف الخلفاء إلى تنمية موارد خزائنهم الخاصة.

وفيما يتعلق بالظاهرة الثانية، فقد تعدَّدت الفئات الاجتماعية وتوزَّعت بين كبار الملّاك وفئة التجّار والفئة العامة العاملة.

وعرف أواسط القرن الثالث الهجري ازدياداً في دور الإقطاع، حيث كان الزَّنج يعملون في السباخ والأراضي الملحية، ما تطلَّب زيادة الاعتماد على العبيد المجلوبين من شرقي إفريقيا بوصفهم أيدي عاملة رخيصة، واتسعت الهوَّة مع مرور الزمن بين هؤلاء وبين فئة الإقطاعيين، وبلغ التناقض الاجتماعي مداه، ما كان دافعاً للاستجابة لنداء الانتفاضة الذي أطلقه علي بن محمد.

ومن حيث الدافع الاجتماعي، فقد عاشت تلك الفئات من العبيد ظروفاً معيشية شاقَّة وسيئة، فكان عليهم إزالة السباخ عن الأراضي ثم نقل الملح بواسطة الدواب إلى حيث يُعرض ويُباع، وذلك لقاء وجبة طعام تتألف من الدقيق والسويق والتمر، كما حُشروا في مخيمات لا تتوافر فيها الشروط الصحيَّة العامة، فتعرَّضوا للأمراض الفتّاكة، كما تعرَّضوا لضغط عوامل نفسية

شديدة الوطأة بفعل أنهم كانوا عُزّاباً، أو متزوجين يعيشون بعيداً عن أُسرهم.

دفعت هذه الأوضاع الاجتماعية المتردية هؤلاء العبيد إلى الاستجابة لنداء علي بن محمد الذي وعدهم بقيادتهم إلى الحرية والتملُّك.

اصطدم صاحب الزَّنج بالسلطة، وتميزت تحركاته العسكرية بكفاءة استطلاعية عالية، وبرهن أنه قائد مقتدر، وأعطته السياسة القتالية التي اتبعها، والقائمة على نصب الكمائن، التفوق على قوات الخليفة، فدخل البصرة وقتل سكانها وأحرقها، وسيطر خلال عشرة أعوام على رقعة واسعة تمتد من الأهواز إلىٰ واسط، وهدَّد بغداد، ثم عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة بمحاربة الزَّنج، فتولى بنفسه العمليات العسكرية التي أدَّت إلى تغلُّبه عليهم وفتح مدينتهم المختارة، وقُتل علي بن محمد خلال المعارك، واستسلم من بقي بن أتباعه.

إن الخوض في تاريخ القرامطة يكتنفه الصعاب نظراً لشحِّ المصادر التي اهتمَّت بتوثيق أعمالهم، وتضارب المعلومات الواردة عنهم، ويحتاج الباحث إلى كثير من الصبر والتأنّي لتوثيق أعمالهم بشكل صادق.

سيطر القرامطة في حقبة زمنية على أراضٍ واسعة، وحجزوا لهم مكانة في التاريخ، ثم أُهمل تاريخهم وأضحى في غياهب النسيان، ولكن حُبَّ الاطلاع والمعرفة ساعد الباحثين على إعادة إحيائه لربط حلقات التاريخ الإسلامي بعضها ببعض بشكل أوضح.

والواقع أن تاريخ القرامطة لقي عناية كبيرة من قبل عدد من الباحثين المعاصرين من مسلمين ومستشرقين، أراد بعضهم عصرنة هذه الحركة وجعلها تشبه ما شهده عصرنا من حركات، وبخاصة الحركة الاشتراكية، مع العلم بأنهم ركَّزوا جهودهم على قرامطة العراق والأحساء، وأهملوا قرامطة الشام وقرامطة اليمن، ولا شك بأن هذا تقصير، حيث ينبغي على الباحث أن يعالج تاريخ هذه الحركة بشكل شامل، والالتزام بالتعليل التاريخي حسب معطيات عصر وقوع الأحداث.

إن ما يهمُّ المؤرِّخ والباحث والقارئ من تاريخ القرامطة هو ما تضمَّن من نزعات دينية وسياسية، فالقرمطية حركة دينية سياسية ذات جذور شيعية ثم

تحوَّلت إلى الإسماعيلية، وحالف القرامطة الفاطميين في حروبهم ضد العباسيين، ثم نقلوا سيوفهم إلى خدمة العباسيين للقضاء على الفاطميين، وحاربوا الزيدية في اليمن، وهم أحفاد الهاشميين العلويين، وركَّزوا في سلوكياتهم على السلب والنهب والقتل والتدمير، وهم فرقة باطنية حجزت الشرائع وعطَّلتها.

ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية رغم الأطوار العصيبة التي مرَّت بها العلاقة بين الحركة الأم (الإسماعيلية) وبين الحركة الناشئة (القرمطية)، ووصولها إلى حدِّ المواجهة المسلحة، ولدى العودة إلى المصادر الإسماعيلية، نراها تنظر إلى القرامطة نظرة فئة تمرَّدت على قيادتها، وانشقَّت عنها.

نشأت الحركة في سواد العراق في عهد الخليفة العباسي المعتمد، ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن، وذلك في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلِّها حركة الزَّنج، والراجح أن التوجه السياسي قد طغى على توجهها الديني، على الرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية.

ويُعدُّ حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، وهو من أهل الكوفة، مؤسس هذه الحركة، وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزَّنج، وتوجَّهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمَّت فيها الحركة، فصادفت رواجاً في صفوف الأعراب الذين يتوقون إلى الغنائم، وفلاحي السواد والفئات الفقيرة.

وحدث أن خبا نجم الحركة في العراق عقب الاختلاف الذي حصل بين الحركة والقيادة الإسماعيلية في السلمية، وآلت قيادتها إلى زكرويه بن مهرويه وهو أحد تلاميذ حمدان، فنقل نشاطه إلى بلاد الشام، وامتدَّ إلى بادية السماوة، وأخذ ابناه، يحيى الملقَّب بصاحب الناقة، وحسين الملَّقب بذي الشامة وصاحب الخال، على التوالي، مهمة نشر الحركة، وتلقَّب كل منهما بأمير المؤمنين، فهاجما المدن والقرى، وأثارا القلق والهلع في بلاد الشام، قبل أن تقضي الدولة عليهما، وقام زكرويه لينتقم لمقتل ابنيه، لكنه قُتل في الصدام مع السلطة، وانتهى بمقتله أمر القرامطة في بلاد الشام.

وتقترن الحركة القرمطية في البحرين باسم أبي سعيد الجنّابي وابنه أبي طاهر، وقد بسط الأول هيمنة فعلية على هجر والأحساء والقطيف وسائر البحرين، وأسَّس دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية، وقُتل في عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م)، فتسلَّم ابنه أبو طاهر سليمان رئاسة الدعوة، وتابع سياسة العنف بأساليب بالغة الخطورة، فعانت البصرة والكوفة من غاراته الوحشية، كما أغار على قوافل الحجاج، وهاجم مكة في عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، فنهب أموال الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام، واقتلع الحجر الأسود من الكعبة واحتُجِز في هجر مدة اثنين وعشرين عاماً تقريباً، مع ما يمثِّل ذلك من تحدٍّ كبير لشعور المسلمين، وقد ندَّد خصومه من أهل السُّنَّة، وحلفاؤه من الإسماعيليين بأعماله.

ويبدو أن هناك عاملين دفعا القرامطة إلى انتهاج هذا المنحى الديني والاقتصادي.

فمن الناحية الدينية، حاول القيِّمون على الحركة بوصفهم يمثِّلون فرقة باطنية غالية، إيجاد عقيدة جديدة توفِّق بين الإسلام والعقائد القديمة، فهم لم يعترفوا بالإسلام ديناً، رغم تظاهرهم بذلك، بل أدخلوا عليه عقائد الحلول والتناسخ وقدسية الأئمة.

أمّا من الناحية الاقتصادية، فيبدو أن القرامطة أرادوا إيقاف الحج ومهاجمة القوافل التجارية، نظراً للمنافع الماديَّة الناتجة عنها، كما أن هجماتهم التي نفذوها على البصرة كانت تهدف إلى بثِّ الفوضى وعدم الاستقرار فيها، لتحويل تجارتها إلى موانئ الخليج التي يسيطرون عليها، بعد أن رفض الخليفة العباسي طلباً لأبي طاهر أن يتنازل عن الأهواز والبصرة، بالإضافة إلى الهيمنة على تجارة الهند البحرية وصناعة خوزستان.

ويُعدُّ الحسن الأعصم بن أحمد من أبرز قادة القرامطة عسكرياً وسياسياً، فاستطاع بذكائه ودهائه أن يُحدِّد بنجاح مسار علاقاته الخارجية، مع الحمدانيين والبويهيين والعباسيين بهدف التصدّي للتوسع الفاطمي، وضرب الدولة الفاطمية التي شعر بخطرها على دولة القرامطة في البحرين، وعادت القوة المركزية للدولة القرمطية في عهده إلى سيرتها الأولى من التماسك

الداخلي، والحرب والغزو على الصعيد الخارجي، ودخل القرامطة بعد وفاته في عام (٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) مرحلة النهاية، فقد دبَّ الانقسام في صفوفهم، وتراجعت مكانتهم وهيبتهم في نفوس أعدائهم، وتلاشت دولتهم تدريجاً حتى انتهت عقب سيطرة الأمراء المحلّيين عليها بمساعدة السلاجقة.

وقامت الدعوة الإسماعيلية في اليمن على أيدي داعيين هما علي بن الفضل اليمني الجيشاني الذي وصفته بعض المصادر بالمقرمط، والحسن بن فرج بن حوشب بن زادان (منصور اليمن)، وقد أرسلهما الإمام الإسماعيلي إلى اليمن لنشر الدعوة وتأسيس كيان سياسي.

استقرَّ الأول في الجنوب الشرقي من اليمن، في حين استقرَّ الثاني في الجنوب الغربي، وتعاونا في بادئ الأمر في تأسيس كيان سياسي لم يلبث أن انهار بعد مدَّة وجيزة.

انقسمت الحركة الإسماعيلية بعد وفاة الإمام الفاطمي المستنصر في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) إلى فرقتين:

الأولى: النزارية، التي اعتقد أتباعها بأحقيَّة ابنه الأكبر نزار بالخلافة، وقد فرّوا إلى الشرق بعد أن تعرَّضوا لحملة اضطهادات في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصباح، الذي أسَّس في بلاد فارس الفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشّاشين والحشيشية والباطنية.

الثانية: الفرقة المستعلية، أتباع المستعلي، الابن الثاني للمستنصر.

تعمَّق الحسن بن الصباح في دراسة العقيدة الإسماعيلية، فألمَّ بأصولها، على أن أهم ما قام به من إنجازات غلبت عليها الصفة العملية، فاستطاع أن يوجِّه أتباعه الشديدي الولاء له، لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه، وبخاصة الخلافة العباسية في بغداد التي تحدّى شرعيتها، بالإضافة إلى بعض الأمراء السلاجقة، وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال.

اتَّخذَ الحسن بن الصباح مقراً له في قلعة ألموت المنيعة في خراسان، وما اشتهر به أتباعه من التعلُّق الشديد به، جعلهم على استعداد للمخاطرة والتضحية بأنفسهم متىٰ أمرهم بذلك، وفعلاً قاموا بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، بالإضافة إلى أمراء صليبيين.

اهتمَّ الحسن بن الصباح بتكوين جماعة منظَّمة لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية، واعتقد بأن النظام هو عنصر أساس للنجاح، واعتمد على سلسلة من القلاع التي استولى عليها أو بناها، وأدارها وفق نظام دقيق، بحيث لا يستقبل فيها إلا المستجيبين، وجعلها بشكل يمكن الاتصال بها جميعاً عبر شبكة من وسائل الدفاع القوية التي يصعب اختراقها، كما نظَّم مجتمع الحشاشين بحيث يرتبط بعضه ببعض، ويدين أعضاؤه بالتبعية له، ووضع نظاماً دقيقاً لنشر الدعوة ونجاحها، فأمر الدعاة بدراسة نفسية المستجيب دراسة وافية قبل أن يستقطبوه في سلم متدرج حتى يصلوا إلى النهاية المنشودة، وتوفي في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، وخلفه بزرك أميد، وكان عهده خصباً بعمليات الاغتيال من حيث نوعية الأشخاص الذين قتلهم الحشاشون، وقد شملت شخصيات بارزة تربَّعت على قمة العالم الإسلامي، وتوفي في عام (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م)، وخلفه ابنه محمد (الكيا الصباحي)، وواصل الحشاشون في عهده سلوكهم المعهود بالاغتيالات، كما نفَّذوا غارات على الأراضي الواقعة بين رودبار وقزوين، وتوفي في عام (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)، وخلفه ابنه حسن الذي كان يميل إلى الاستبداد، والتزم بنسخ الشريعة، وأجاز تغيير قواعدها الأمر الذي أسقط الفرائض، وصنع منبراً في فناء قلعة ألموت وحوَّله عن القبلة، وتعرَّض من أجل ذلك للقتل على يد أحد الأشخاص الذين لم يصبروا على فضائحه وأضاليله، ويُدعى حسن بن ناماور، وهو من بقايا البويهيين، وذلك في عام (٥٦١هـ/ ١١٦٦م)، وخلفه ابنه محمد. لم يشهد عهده أحداثاً عسكرية أو سياسية ذات قيمة بالقياس بالعهود السابقة باستثناء تطورات بالغة الأهمية طرأت على كيان السلاجقة، تمثَّلت بزوال السلاجقة العظام في فارس وخراسان، وظهور الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر، وظهور المغول على المسرح السياسي. خلف جلال الدين حسن أباه محمد، وأبدى منذ صباه عدم رضاه عن نظريات وممارسات القيامة، كما أبدى رغبة في قبول الأخوَّة الإسلامية بمعناها الواسع، فتبرَّأ من مذهب أبيه، وحظَّر على أتباعه مواصلة ما هم فيه، وحثَّهم على تطبيق قواعد الدين الإسلامي واتِّباع الشريعة، وتقرَّب من الخليفة العباسي، وتوفي في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، وخلفه ابنه علاء الدين

محمود الذي دخل في سنواته الأخيرة في صراع مع ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه، وقد خلفه بعد اغتياله في عام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، وتعرَّضت الحشيشية للدمار في عهده على أيدي المغول الذين اجتاحوا قلاعهم، وقضوا عليهم.

وتمدَّدت الحشيشة، باتجاه بلاد الشام، وامتلكت حصوناً عدة، منها القدموس، العليقة، الكهف، مصياف، والواضح أن أفرادها ارتاعوا لزوال الخلافة الفاطمية في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام، واشتهر من حكّامهم راشد الدين سنان بن محمد بن الحسن البصيري، الملقب بشيخ الجبل، وعندما ضمَّ السلطان سليم العثماني بلاد الشام بعد معركة مرج دابق في عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، اجتمع بأمراء ووجهاء بلاد الشام، ومن بينهم زعيم الحشيشية شهاب الدين أبي فراس، فأقنعه هذا بإقامة علاقات طيبة معه، ومنح السلطان أفراد هذه الطائفة الامتيازات كمواطنين، فأصبحوا مجرد مجموعات صغيرة ليس لها تأثير في مجرى الأحداث.

اعتمدتُ في هذه الدراسة على مصادر أساسية، ومراجع متنوعة مبيَّنة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدتُ عليه أن يجلي الحقيقة التاريخية، ويُذخر المكتبة العربية بالمعلومات المفيدة.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارئ بعناوينها، فقد قسَّمتها إلى ثلاثة أبواب تتضمن اثني عشر فصلاً.

وأسأل الله أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ.د. محمد سهيل طقوش



البَابُ الأوّل

حركة الزَّنج

الفَصْلُ الأوَّل

طبيعة العصر ـ طبيعة حركة الزَّنج

طبيعة العصر السياسية والاقتصادية

لا تقوم الحركات المناهضة للأنظمة القائمة فجأة، وإنما هي نتاج أوضاع سياسية، واقتصادية واجتماعية لا تتلاءم مع روح العصر، وحركة الزَّنج[١] هي إحدى الحركات التي قامت نتيجة تلك العوامل، إلا أنها كانت من بين أخطر الحركات التي قامت في وجه الدولة العباسية.

ولعل أهم ما يميّز طبيعة المرحلة: تصاعد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية على الصعيد السياسي، وقد شدَّدوا قبضتهم على شؤون الخلافة، وأخذوا يتدخلون في تنصيب وعزل الخلفاء والتخلُّص منهم، ما أدَّى إلى تراجع قوة الخلافة.

ويستوقفنا في القرن الثالث الهجري سوء الإدارة المالية الناتج عن ازدياد النفقات غير المجدية، وتبذير الأموال، وصرف خراج الدولة في الشؤون الخاصة، وبروز الإقطاع، وبخاصة إقطاع إحياء الموات، حيث حاز الملاّكون الكبار على أراضٍ شاسعة أضحت ملكاً لهم بفعل قيامهم بإحيائها، وخير مثال على هذا النوع من الإقطاع تلك الأراضي المحيطة بالبصرة التي تخرَّبت بفعل الفيضانات المتكررة، وقد سخَّروا أعداداً كبيرة من الزَّنج لاستصلاحها.

ومن الظواهر التي ساهمت في تكوين الملكيات الكبيرة التي توجَّهت نحو الزراعة عقب توقف الفتوح:

---

(١) الزَّنج بفتح الزاي والزِّنج بكسرها: هم جيل من السودان، أما الزُّنج بالضم فهي من قرى نيسابور.
الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٧ ص١٥٣.

الإلجاء: هو أن توضع أراضي الفلاحين والملّاكين الصغار تحت حماية الخليفة، أو أحد الأمراء أو الموظفين الكبار، وتسجيلها بأسمائهم في الديوان هرباً من عسف جباة الضرائب التي لم يكن للفلاحين قدرة على تسديدها.

الإيغار: هو وضع الأرض تحت حماية أو ضمان رجل ثري يتكفل بتسديد الخراج عنها، ويحميها من ظلم الولاة والجباة، ما يرجِّح احتمال تملُّكها من قِبل الموسرين.

التقبُّل أو القبالة: هو أن يتقبَّل الأرض بخراج أو جباية أكثر مما أعطى، وذلك عندما يجعل الرجل لنفسه قبيلاً أو كفيلاً يُحصِّل باسمه الخراج ويأخذه لنفسه لقاء أجر معلوم يدفعه إليه، وغالباً ما يكون القبيل أو الكفيل من ذوي الجاه والنفوذ.

وتعزَّزت في دولة بني العباس الظواهر الاقتصادية الخاصة بالأرض والتي ساعدت على تكوين الملكيات الكبيرة، وحوَّل الإلجاء الكثير من الأراضي والضياع إلى أملاك سلطانية خاصة، ما ساعد على نمو وانتشار الإقطاع، سواء الناتج عن آلية التوزيع في منح الإقطاعات، أو عن طريق شراء الأراضي إثر ازدهار التجارة.

وشرعت الفئات الحاكمة تتوحَّد مع الفئات الاجتماعية الغنيَّة، إما بفعل التحالف السياسي، أو بفعل ما خصَّت الأولى الثانيةَ وما ميَّزتها عن غيرها بالإقطاعات، وتوجَّه هذا التوحُّد إلى تكوين فئة مالكة وحاكمة تنامت مصالحها وترسَّخت مواقعها.

وانتشرت الأعطيات العقارية الأخرى كالإلجاء والإيغار بشكل واسع، فكان لذلك أثر كبير في تركُّز الملكيات بين أيدي الأسرة الحاكمة والفئات «الارستقراطية» مثل بني هاشم، والوزراء وغيرهم، المتحالفة مع الأسرة الحاكمة، وبذلك يكون التوحيد السياسي بين تلك الأسرة وهذه الفئات قد شكَّل شرطاً تاريخياً لتجدُّد الإقطاع على امتداد العصر العباسي[1].

---

(١) خليل، فؤاد: **الإقطاع الشرقي**، دار المنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص١٥٣.

طبيعة العصر الاجتماعية

إن استخدام العبيد في المزارع ليس بالأمر الجديد، إنما نلاحظ ظهور أوضاع جديدة في القرن الثالث الهجري بفعل تحوُّل المجتمع من الطور الزراعي إلى الطور التجاري، ونشوء فئة من الأغنياء ذات رؤوس أموال عظيمة، تستخدم العبيد بأعداد كبيرة، لذلك ظهر نوع جديد من التمركز في العمل، مثل وجود آلاف من العبيد يعملون في مكان واحد.

لم يكن للعبيد كيان اجتماعي مستقل أو شخصية مستقلة، بل يُعَدُّون جزءاً من متاع مالكيهم وثروتهم التي اكتسبوها بالشراء أو بالإرث أو بالهبة، شأنهم في ذلك شأن أي سلعة أخرى يمتلكها السيد الذي باستطاعته أن ينقل هذه الثروة، أي: العبيد، إلى غيره بالوسائل القانونية التي اكتسبها بها، وهي تُحسب من الإرث.

ويظلُّ العبد المُعتَق مرتبطاً بمالكه بالولاء، ويترتَّب على هذا الارتباط مفاعيل قانونية، مثل أن يأخذ المالك ما تركه عبده المُعتَق من ثروة في حال عدم وجود وارث له، كما أن المالك هو الوصي الطبيعي على عبده المعتَق، مع الملاحظة أن الولاء هنا يُشكِّل مرحلة بين الرقِّ والعبودية[1].

كانت النظرة السائدة إلى الزَّنج نظرة ازدراء واحتقار، لم يعيشوا في بيوت تقيهم البرد والحرَّ، ويناموا في العراء أو في أكواخ من النباتات والطين، وقد سُخِّروا للعمل في إزالة السباخ (الطبقة الملحية) التي تغطي الأراضي في المناطق الواقعة في جنوبي العراق بين دجلة إلى الفرات، وهي منطقة المستنقعات، التي تُسمى البطيحة، ثم نَقْل السباخ وجعله في أكوام وتلال للإفادة منه، وهو عمل شاق؛ لأنهم كانوا يعملون في ظلِّ ظروف طبيعية ومناخية قاسية، ورقابة صارمة، لا يتقاضون أجراً سوى ما يُوزَّع عليهم من الغذاء الزهيد المكوَّن من الدقيق والتمر والسويق[2].

كانت حالة الزَّنج الاجتماعية والمادية والنفسية سيئة، وقد زادها سوءاً أنهم

---

(١) السامر، فيصل: **ثورة الزَّنج**، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٧١، ص٢١.

(٢) الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، جـ٩ ص٤١٣.

لم يعيشوا على شكل أُسر، بل كانوا عُزّاباً، أي أنهم أبعدوا عن أُسرهم في موطنهم الأصلي في الساحل الإفريقي الشرقي، وحُرموا نعمة الاستقرار العائلي، وزُرعوا في بيئة غريبة عنهم، من دون أن تربطهم أية رابطة من التعاطف والانسجام مع مالكيهم[1]، ويتضح من خلال الحرمان الجنسي الذي قاساه هؤلاء؛ سبب تعرُّضهم للنساء أثناء غاراتهم على المدن والقرى.

أنواع الزَّنج

أُطلقت لفظة الزَّنج على أصناف مختلفة من العبيد السود الذين كوَّنوا عماد حركة علي بن محمد، نذكر منها:

١ ـ **غلمان الشورجيين**[2]: والشورجيون جماعة من أصحاب العمل الذين كانوا يجمعون الشورج للانتفاع به، مستخدمين أعداداً ضخمة من العبيد، هم الذين تدعوهم المصادر «غلمان الشورجيين» ويضمون بين صفوفهم بعض الأحرار[3]، ويبدو أن عددهم كان كبيراً، خمسة عشر ألفاً عبروا نهر الدجيل[4]، ونجد جماعة منهم عند نهر الأمير، وهو من أنهار البصرة، تبلغ ستمئة، واشتهر من بينهم رجل يُدعى العطار. اختص الشورجيون بجمع الشورج أو الملح أو السباخ، فيجعلونه في أكوام كبيرة مستخدمين البغال في حمله إلى حيث يُباع، وتصف الروايات أكوام السباخ بأنها كالجبال، وأن عشرات الآلاف من العبيد كانوا يقومون بهذا المجهود في مناطق البصرة[5].

٢ ـ **القرماطيون**: هم جنس من أجناس السودان الكثيرة، ويتعاملون في بلادهم بالملح، وهم طائفة من الزَّنج تعمل بالشورج كذلك، اشتهر منهم راشد القرماطي الذي أدَّى دوراً بارزاً في انتفاضة الزَّنج[6]، وكانوا يتكلمون العربية إما لطول إقامتهم في منطقة البصرة واختلاطهم بأهلها أو بسبب قرب بلادهم من الأراضي العربية في إفريقيا.

٣ ـ **الفراتية**: هم الزَّنج الذين سكنوا منطقة فرات البصرة، وهي كورة

(١) السامر، م.س ص٣١.
(٢) الشورجيين: كلمة مشتقة من الكلمة الفارسية شور، وتعني: الملح.
(٣) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٣.
(٤) المصدر نفسه: ص٤١٤.
(٥) السامر، م.س: ص٣٤ ـ ٣٥.
(٦) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٤.

واسعة بين واسط والبصرة، والبصرة منها، والمعروف أن صاحب الزَّنج ظهر أولاً في هذه المنطقة، حيث يعمل عشرات الآلاف من العبيد وأنصاف الأحرار من البيض.

٤ ـ **النوبة**: هم العبيد المجلوبون من بلاد النوبة[1]، وكانوا مع الفراتية من أخطر قوات صاحب الزَّنج، ويتكلمون بدورهم العربية[2].

٥ ـ **الزنوج الأنقياء**: هم الزنوج الذين يجهلون العربية، واستخدم صاحب الزَّنج مترجمين للتفاهم معهم، ويبدو أنهم كانوا حديثي عهد بالرقِّ بحيث لم يتسنَّ لهم تعلُّم العربية.

٦ ـ **غلمان الدبّاسين**[3]: يعملون لحساب التَّمارين والدبّاسين، والمعروف أن التمور ومنتجاتها كالدبس، كانت من خصائص الحياة الاقتصادية في البصرة، وكانت أشجار النخيل في البصرة تُعدُّ بالملايين، ومن ثَمَّ اعتمد الملاكون على التمور اعتماداً كبيراً كموردٍ مهم من موارد ربحهم، وشغَّلوا العبيد في أعمال التمر واستخراج الدبس.

٧ ـ **التمارين**: جمع تمرين، وهو أن يحفي الدابَّة فيرقَّ حافرها، فيدهنه بدهن أو يطليه بأخثاء البقر وهي حارَّة[4].

لم يكن الزنوج على درجة عالية من الثقافة، وأكثرهم جهلة، وذلك بفعل تأخُّر بيئتهم الأصلية، لذلك استعان صاحب الزَّنج بمترجمين ينقلون خطبه وأقواله إلى أتباعه الأعاجم، ومن المترجمين الذين اعتمد عليهم رجل يُدعى مصلح، وقد دعاه مرة فميَّز الزَّنج الأنقياء عن الزَّنج الفراتية، ثم أمره أن يُعلمهم بأنه لن يردَّهم إلى أسيادهم ومواليهم، ووُجدت بين الزَّنج فئة على درجة ضئيلة من المعرفة باللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي وهم الفراتيون والقرماطيون والنوبة[5].

(١) هي من السودان في جنوبي مصر.
(٢) الطبري، م.س: جـ٣ ص٤١٩.
(٣) الدباسين: من الدبس، وهو عسل التمر وعصارته، وهو عصارة الرطب من غير طبخ، وهو ما يسيل من الرطب. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد.... المصري: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، جـ٦ ص٧٥.
(٤) المصدر نفسه: جـ٣ ص٧٥.
(٥) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٩.

طبيعة حركة الزَّنج

إن البحث في طبيعة حركة الزَّنج ومحاولة الوصول إلى رأي جليٍّ حول برنامجها ومبادئها، أمر على جانب كبير من الصعوبة نظراً لتضارب آراء المؤرخين حولها، وندرة المعلومات المتعلقة بها، فهل كانت هذه الحركة، ذات برنامج يهدف إلى إصلاح اجتماعي شامل للحكم القائم؛ أم كانت حركة تهدف إلى تحسين أوضاع فئة معينة هي فئة العبيد، أو أنها حركة سياسية تهدف إلى إيصال صاحبها إلى السلطة، متسترة بالدين وبوضع العبيد الاجتماعي؟

الواقع أن حركة الزَّنج لم تكن الحركة الوحيدة التي استندت إلى ادعاءات دينية واجتماعية في التاريخ الإسلامي من أجل تحقيق هدف سياسي، بل يمكن القول بأن معظم الحركات السياسية التي سبقتها، مثل حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[1]، وحركة الحارث بن سريج[2]، والتي تلتها مثل حركة القرامطة والحركة الإسماعيلية؛ اتخذت من الدين ستاراً يحجب هدفها السياسي.

حدَّدَ علي بن محمد أهداف الحركة وبرنامجها في الخطبة التي ألقاها يوم عيد الفطر عام (٢٥٥هـ/ تشرين الثاني ٨٦٩م)، فذكر ما كان عليه الزَّنج من الأوضاع الاجتماعية السيئة، وبشَّرهم بأنه المنقذ الذي هيَّأه الله لانتشالهم مما هم فيه، ووعدهم بأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويُملِّكهم العبيد والأموال والمنازل[3].

الواضح من هذه الخطبة أن صاحب الزَّنج لم يهدف إلى إلغاء العبودية، بل إلى تحرير الزَّنج الذين انضووا تحت لواء حركته فقط، وذلك بهدف

(١) قامت حركة المختار في عام (٦٤هـ/ ٦٨٤م) في الكوفة، وأبرز ملامحه خاصتان: التوجه الشيعي ونزعة السلطة: وهو أول من أدرك وحاول أن يعالج التمايز القائم في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع خدمة لمصالحه، فتبنّى مطالب الفئات الضعيفة بتحقيق المساواة مع الأشراف، فتصدَّى له مصعب بن الزبير وقضى عليه في معركة المذار في عام (٦٧هـ/ ٦٨٧م). الطبري، جـ٦ ص١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) قامت حركة الحارث بن سريج في خراسان في عام (١٢٨هـ/ ٧٤٦م)، وقد استغلَّ تذمُّر الفئات العامة، وطبع حركته بطابع روحي، فزعم أنه المهدي المنتظر، ونادى بضرورة العودة إلى القرآن والسُّنَّة، وانتخاب حكومة ترضى عنها غالبية المسلمين، وقتله الوالي الأموي نصر بن سيار. الطبري، م.س: جـ٧ ص٣٣٠ ـ ٣٤٢.

(٣) انظر: نص الخطبة عند الطبري، م.س: جـ ٩ ص٤١٥.

استقطابهم، وتحقيق هدفه السلطوي عبرهم، بدليل أنه استرقَّ أعداءه، وعاملهم معاملة العبيد[1]، وقد وجد الموفق أحمد أخو الخليفة المعتمد آلاف الأسرى في سجون المختارة عاصمة الزَّنج عندما فتحها، وإذا نظرنا في كُنه حركته وجدنا الرعب وسفك الدماء والتنكيل بالأعداء، أمر يتصل بطبيعتها.

ويبدو أن صاحب الزَّنج اقتدى بالخوارج الأزارقة[2] الذين أباحوا استرقاق أعدائهم من المسلمين وقتل أطفالهم ونسائهم بوصفهم كفاراً أو مارقين.

والحقيقة أن حركة الزَّنج كانت محدودة لا تنطوي على برنامج اجتماعي شامل، ولم تهدف إلى إلغاء العبودية تماماً، وهي ردُّ فعل لما قاساه العبيد من الاضطهاد الاجتماعي، ومحاولة للانتقام من سادتهم، من هنا كانت الحركة موجَّهة في بدايتها ضد مُلّاك الأراضي ومُلّاك العبيد، ووقف هؤلاء في وجهها وقاوموها، ولم تتدخل الدولة في بادئ الأمر لقمعها، بل تركت أهل البصرة أنفسهم يُعالجون الموقف، وعندما يئس هؤلاء من القضاء عليها التمسوا تدخُّل الخليفة.

والواقع أن مّلاك العبيد الذين تضرَّرت أعمالهم وتعرَّضوا لخسارة كبيرة نتيجة قيام العبيد بأعمال الشغب، بذلوا جهوداً كبيرة لردعهم، واستخدموا وسائل الإغراء مع علي بن محمد، فعرضوا عليه الأموال الطائلة إذا أعاد إليهم غلمانهم، كما عرضوا عليه خمسة دنانير على كل رأس من العبيد إذا ردَّهم إلى مواليهم، إلا أنه رفض العرض بشدَّة، مؤكداً أنه لم يخرج لعَرَض من أعراض الدنيا، بل غضباً لله، ولما رأى عليه الناس من الفساد في الدين، وهذا هدف إسلامي لولا أن صاحبه استغلَّه لتحقيق غايات سياسية ونفعية، غير أن الحركة ما لبثت أن استرعت انتباه الخلافة العباسية بفعل ما لاقته من النجاح من جهة ولإلحاح أهل البصرة على الخليفة بضرورة التدخل من جهة ثانية.

يبدو أن حركة الزَّنج مهَّدت الطريق لبروز أفكار سياسية واجتماعية جديدة، فقد شهدت السنوات التالية ظهور حركات أخرى متأثرة في دوافعها وأهدافها بهذه الحركة، مثل حركة القرامطة، والواقع أنه في الوقت الذي كانت فيه

(١) الطبري، م.س: ص٦٢٥.

(٢) أتباع نافع بن الأزرق.

حركة الزَّنج تجري أحداثها الدامية في الساحة الممتدة بين البصرة وواسط، كان القرامطة وهم فرع من الإسماعيليين ينشرون دعوتهم بين سكان جنوبي العراق من العرب والأنباط، ومعظمهم من الفلاحين والصُّناع، على الرغم من أنه لم يكن هناك تعاون وتنسيق بين الحركتين، إلا أن حركة الزنّج مهَّدت التربة لكي ينشر القرامطة دعوتهم على نطاق واسع؛ لأن الدعوتين وإن اختلفتا في الأسلوب والبرنامج فقد اتفقتا في ضرورة تغيير الحكم القائم.

علي بن محمد صاحب الزَّنج

صاحب الزَّنج هو: علي بن محمد بن عبد الرحيم، ظهر في فرات البصرة في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، وقاد الزَّنج في حركة ضد الخلافة العباسية دامت أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٨٣م)، واختُلف في نسبه بين عربي وفارسي، وتسكت بعض الروايات عن نسبه، والمعروف أن صاحب الزَّنج قدَّم نفسه على أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1]، غير أنه كان يُبدِّل نسبه بين حين وآخر وفقاً للظروف التي تواجهه، وادَّعى عندما ذهب إلى البحرين أنه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب[2]، وتواجه الباحث صعوبتان في معرفة حقيقة نسبه:

الأولى: هل كان علي بن محمد عربياً أم أعجمياً؟

الثانية: هل كان علي بن محمد علوياً؟

ففيما يتعلق بالصعوبة الأولى، فإن صاحب الزَّنج وُلد في قرية ورزنين قرب الرَّي، ونشأ بها، ويرجع نسبه إلى قبيلة عبد القيس العربية، وأمه قرَّة بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم وهي من بني أسد بن خزاعة، وكان جدُّه لأبيه من أهل الكوفة، من الخارجين على الخلافة الأموية في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) مع زيد بن علي بن الحسين، فلما قُتل زيد لحق بالري ولجأ إلى ورزنين، فأقام بها، وإنَّ جدَّه عبد الرحيم رجل

(١) المسعودي، أبو الحسن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت: جـ٤ ص١٠٨.
(٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٠.

من عبد القيس كان مولده بالطالقان من مدن فارس، فقدم إلى العراق وأقام بها واشترى جارية سندية، فأولدها محمداً والد علي[1].

واستناداً إلى بعض الروايات[2]، فإن أسرته تعود بأصولها إلى البحرين حيث كان يعيش فرع كبير من عبد القيس، ويذكر ابن كثير عنه أنه كان من أُجراء عبد القيس[3]، ولعل مولده في فارس حمل بعض المؤرخين على القول بأن الرجل فارسي، حيث تشير بعض الروايات إشارة غامضة إلى أصله الفارسي وإن اسمه بهبوذ[4]، «وذكر بعض الناس صاحب الزِّنج في أخبار المبيضة وكتبهم»[5]، والمعروف أن المبيضة هم من سكان ما وراء النهر، ودُعوا أيضاً بالمقنعية وزعيمهم هشام بن الحكم الذي اشتهر باسم المقنَّع، وهو من أتباع أبي مسلم الخراساني، وقد ظهر بعد مقتل أبي مسلم وادَّعى الألوهية.

الراجح أن نسب صاحب الزَّنج عربي ما دام المؤرخون المعاصرون له، مثل الطبري وغيره، يؤكدون ذلك.

وفيما يتعلق بالصعوبة الثانية، فقد أنكر المؤرخون نسبه العلوي، وأجمعوا على أنه انتحل هذا النسب ليضفي على حركته طابع الشرعية ويستقطب الشيعة، ويقدح أكثر الناس في نسبه العلوي وبخاصة الطالبيين، واتفق النسّابون على أنه من عبد القيس، فهو دعيٌّ في انتسابه العلوي[6]، والجدير بالذكر أن ادِّعاء النسب العلوي كان أمراً معتاداً آنذاك؛ لأن العلويين اشتهروا بنقمتهم على العباسيين القائمين بالسلطة وعدُّوهم مغتصبين، بدليل قيامهم بالخروج المتكرر على السلطة طوال العصرين العباسيين الأول والثاني، كما كان «تكتيكاً»

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٠.
(٢) البلاذري، أبو الحسن: **فتوح البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م: ص٨٩.
(٣) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء: **البداية والنهاية في التاريخ**، دار المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م: جـ١١ ص١٨.
(٤) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر آباد، الدكن، ١٣٥٧: جـ٥ ص٦٩.
(٥) المسعودي، م.س: جـ٤ ص١٠٨.
(٦) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: **تاريخ اليعقوبي**، تح: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣: جـ ٢ ص٤٧٤.

يستعمله المغامرون وطلاب السلطة في ذلك العصر؛ لأن المعارضة العلوية كانت آنذاك البديل للسلطة العباسية، وهي بذلك تستقطب مختلف الجماعات المتذمرة وتهدف إلى كسب العامة من الناس إليها[1].

لا نعلم الكثير عن نشأة علي بن محمد المبكرة؛ لأنه كان من العامة ومن سواد الناس الذين أهملهم المؤرخون، ولم يُدوِّنوا نشأتهم، لكن هؤلاء أمدُّونا ببعض المعلومات عن نشأته قبل أن يقوم بحركته، فقالوا: إنه كان يعيش في سامراء عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، واتصل ببعض خدم الخليفة المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢م) الذين كانوا يُنعمون عليه ويمدُّونه بما يتعيَّش منه، أمثال: غانم الشطرجي وسعيد الصغير ويسر الخادم، وهذا يعني أن علياً بن محمد كان فقيراً معوزاً عاش على هامش الحياة في العاصمة، وقاسىٰ ما قاساه أمثاله من الطبقة العامة، وهي مرحلة مهمة من حياته؛ لأنَّها أثَّرت على سلوكه في المستقبل.

ووقف علي بن محمد على حياة المؤامرات في القصور والصراع على السلطة، وجوِّ الخلافة المضطرب، وأدرك أن الخليفة لم يكن سوى أُلعوبة في يد رجال الجيش من الأتراك الذين أخذوا يمارسون السلطة الفعلية في الدولة في العصر العباسي الثاني.

كان صاحب الزَّنج في هذه المرحلة من حياته ينظُم الشعر ويتخذه وسيلة للكسب المادي، فمدح السلطان وكتّابه، واحترف كذلك تعليم الصبيان في سامراء كوسيلة أخرى للتعيش، فكان يعلِّمهم الخطَّ والنحو وعلم النجوم والسحر والاصطرلاب.

ورحل علي بن محمد في عام (٢٤٩هـ/ ٨٦٣م) إلى البحرين متأثراً بما شاهد وسمع في عاصمة الخلافة من فوضىٰ واضطراب ودسائس ومؤامرات، ولعله قرَّر أن يفعل شيئاً لكنه أدرك أن أوضاع العاصمة لم تكن مركزاً صالحاً لأيِّ عصيان ضدَّ الخلافة بسبب الرقابة الشديدة والاستخبارات المحكمة، ووجود السلطة المركزية، ولعله اختار البحرين لبُعدها عن مركز الخلافة من جهة،

(١) فوزي، فاروق عمر: نشأة الحركات الدينية والسياسية في الإسلام، الأهلية للنشر، عمان، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٢٨.

ولأن رابطة النسب والقرابة تربطه بأهلها من ناحية أخرى، وربما لسبب آخر هو أن البحرين كانت بيئة صالحة لنشر الأفكار الاجتماعية والدينية[1]، بدليل قيام دولة قرمطية فيها في المستقبل، فاكتسب أعواناً مخلصين ظلّوا يساندونه حتى نهاية حركته، وكانوا جميعاً من الطبقة العامة وأصحاب الحِرف والموالي، لعل أبرزهم يحيى بن محمد البحراني مولى بني دارم وكان كيّالاً، ويحيى بن أبي ثعلب وكان تاجراً صغيراً، وسليمان بن جامع، وهو مولى أسود لبني حنظلة، ومحمد بن سلم القصّاب، وبشير القريعي، وعلي الضرّاب وغيرهم[2].

ادَّعى علي بن محمد في البحرين أنه من آل علي بن أبي طالب، ودعا الناس بهجر، حاضرة البحرين، إلى طاعته والانضمام إليه، فتبعته جماعة، ورفضت دعوته جماعة أخرى، ونشبت بين الجماعتين فتنة سُفكت فيها الدماء، فاضطر إلى مغادرتها إلى الأحساء، إحدى مدن البحرين المشهورة، ونزل عند بني تميم وبني سعد، وهما من أشد القبائل بأساً في البحرين، وقد أحلُّوه في أنفسهم محلَّ النبي، حتى جُبي له الخراج ونفذ حكمه فيهم[3]، ويبدو أنه قام في البحرين بمحاولته الأولى للاستيلاء على السلطة، ثم ساءت العلاقات بينه وبين أهل البحرين إذ «وتر منهم جماعة كثيرة، فتنكَّروا له، فتحوَّل عنهم إلى البادية»[4]، وصحبه ستة من أهل البحرين ممن ذكرنا، وقد شكَّلوا أركان حربه فيما بعد.

حاول صاحب الزَّنج أن يستقطب أعراب البادية إلى دعوته، فأحاط نفسه بهالة قدسية، فادَّعى أنه أوتي علم الغيب، وأنه يستطيع فعل الخوارق، وأوهم من حوله أن لسانه يجري بآيات من القرآن لم يعرفها من قبل، كما أنه يعلم منطق الطير، وأنه يحيى بن عمر العلوي الذي قُتل على مقربة من الكوفة، ويبدو أنه آثر العودة مهدياً بعد الموت، وقد خدع بدعواه جماعة كبيرة من أهل البادية، فزحف بهم إلى الروم، وهي قرية كبيرة في البحرين، ويبدو أنه عزم على معاقبة البحرانيين على عدم إيمانهم بدعوته، فجرت معركة بين الطرفين،

(١) السامر، م.س: ص٥٥ ـ ٥٦.
(٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١١.
(٣) المصدر نفسه: ص٤١٠.
(٤) المصدر نفسه.

مُني على إثرها بالهزيمة، فانكشفت أوهامه أمام أهل البادية، فانقضّوا عليه واضطر إلى مغادرتها[١]، وهذه هي المرة الثانية التي يفشل فيها في الاستيلاء على السلطة.

أدرك علي بن محمد أن البادية لم تكن البيئة الصالحة لنشر دعوته بفعل نزعة الأعراب الفردية، وتوجُّههم الغامض، فرحل إلى البصرة وهي يومئذٍ مدينة كبيرة آهلة بالسكان، تتصارع فيها الأفكار والنزعات الدينية، ويغلب التصادم على حياتها الاجتماعية وبخاصة بين الربعيين الشيعة والسعديين السنَّة.

وفسَّر صاحب الزَّنج نزوحه إلى البصرة تفسيراً غيبياً لكي يحيط بشخصه هالة قدسية تجذب إليه الأعوان والمؤيدين، فقال: «إني لقيت نفسي على فراشي فجعلت أُفكِّر في الموضع الذي أقصد له، وأجعل مقامي به، إذ نبَتْ بي البادية، وضقت بسوء طاعة أهلها، فأظلَّتني سحابة، فبرقت ورعدت، واتصل صوت الرعد منها بسمعي، فخوطبت فيه، فقيل: اقصد البصرة، فقلت لأصحابي وهم يُكتِّفوني[٢]: إني أُمرت بصوت هذا الرعد بالمصير إلى البصرة»[٣].

وصادف وصول علي بن محمد إلى البصرة في عام (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م) قيام فتنة بين الطائفتين البلالية والسعدية، فطمع في استقطاب إحداهما، ويبدو أن البصرة كانت تمر آنذاك وفي ظل حكم عاملها محمد بن رجاء الحضاري، بمرحلة فوضى واضطراب بفعل انقسام أهلها على بعضهم، وتطوُّر العداء بين الطائفتين إلى حدِّ الاصطدام، ما أدَّى إلى طرد العامل وفتح السجون، ونهب بيت المال ودور الأغنياء، وبقيت المدينة مسرحاً للفوضى حتى قدم إليها علي بن محمد.

حاول علي بن محمد أن يبدأ دعوته من المسجد غير أنه فشل، وطارده جند الخلافة، فهرب إلى بغداد مع أربعة من أخلص معاونيه وهم: محمد بن سلم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبشير القريعي؛ غير أن والي البصرة قبض على أسرته وأتباعه، وأودعهم السجن.

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١١.
(٢) مطيفون بي.
(٣) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١١.

ويبدو أنه استفاد من إقامته فيها؛ لأنَّه اطَّلع على أوضاعها السياسية والاجتماعية، كما استقطب بعض المؤيدين المخلصين، أمثال: علي بن أبان المهلبي وأخويه محمد وخليل[١]، والراجح أن انضمام قسم من المهالبة، وهم أسرة عربية عريقة، إلى دعوته، مردُّه نقمتهم على العباسيين؛ لأنَّهم جرَّدوهم من أملاكهم الشاسعة في البصرة.

ولما وصل علي بن محمد وأصحابه الأربعة إلى البطيحة بين واسط والبصرة، قبض عليهم بعض موالي الباهليين وسلَّموهم إلى واليها عمير بن عمار، فسلَّمهم هذا بدوره إلى محمد بن أبي عَون، عامل السلطان بواسط، فاحتالوا عليه وتخلَّصوا من يده ثم ساروا إلى بغداد، فأقاموا بها سنة، وانتسب علي بن محمد فيها إلى أحمد بن عيسى بن زيد[٢].

وظلَّ ينتظر الفرص المؤاتية ويراقب تطور الأوضاع السياسية، ويتسقط أخبار البصرة حيث أهله وأعوانه، وأخذ يدعو إلى نفسه بحذر، خشية من ملاحقته والقبض عليه، وجمع حوله أعواناً جدداً، وأحاط نفسه بهالة من الغموض، وغلَّف أقواله وتصرفاته بثوب من التصورات الروحية للسيطرة على نفوس أتباعه، فادَّعى أنه يعلم حقيقة ما في ضمائرهم، وما يفعله كل منهم، وأنه سأل ربه آية، فرأى كتاباً يكتب له وهو ينظر إليه على حائط من دون أن يرى كاتبه[٣].

وما جرى في البصرة بعد مرور سنة على وجوده في بغداد، من عزل الوالي محمد بن رجاء الحضاري عدوّه اللدود، وقيام فتنة أخرى بين البلالية والسعدية، وقد فُتحت السجون وخرج أهله وأتباعه منها؛ دفعه إلى مغادرة بغداد إلى البصرة في (رمضان ٢٥٥هـ/ آب ٨٦٩م).

أقام علي بن محمد في بر نخل في فرات البصرة بين مدينة الفتح وكرخ البصرة، في مكان يُعرف بقصر القرشي على نهر عمود بن المنجم، وادَّعى أنه وكيل لولد الواثق في بيع ما يملكونه من السباخ، والواضح أنه أراد الاتصال بالزَّنج الذين يعملون بكسح السباخ، ويطَّلع على أوضاعهم ويُقوي علاقاته

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن كثير، م.س: جـ١١ ص١٩.

بهم، بدليل أنه أخذ يسأل عن ظروف عملهم وغذائهم، وأخذ يتحرَّى أوضاع البصرة ويراقب تطور النزاع بين البلالية والسعدية، وابتداء من التاريخ المشار إليه بدأ الزَّنج يلتفّون من حوله، ثم قادهم في حركة مسلحة في (٢٨ رمضان ٢٥٥هـ/ ٨ أيلول ٨٦٩م).

اتصف علي بن محمد بالبراعة السياسية، فهو ذكي، مستغلُّ فرص، صبور هادئ التفكير، يحسب لكل خطوة حسابها، ويضع كل أمر في موضعه، فقد أدرك القوة الهائلة التي تكمن في العبيد السود، فنقلها من مجال العمل في السباخ إلى مجال العمل في القتال، ومضى يثيرهم ويتجمعون من حوله، ورأى كي يُحكم دعوته، أن يُسبغ عليها صبغة دينية، فزعم أنه يوحى إليه، وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذهم من جور المُلّاك الظالمين، ووصل نسبه إلى إمام الزيدية، وهو زيد بن علي زين العابدين، حتى يُثبت لهم حقَّه الشرعي في الخروج على الخلافة العباسية[1]، وكان يُردِّد بأن العباسيين انغمسوا في إثم الخمر والمجون والمعاصي، وأنه يجب حربهم حتى يتخلَّص الناس من شرورهم، ويُردُّ الأمر إلى نصابه ومستحقيه العلويين من أمثاله، واتخذ لواء كتب فيه بحمرة وخضرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/١١١]، وكتب اسمه واسم أبيه[2].

ويبدو أن انتحال علي بن محمد العلوية مردُّه إلى أن العصر كان موآتياً للعلويين، حيث قامت بعض الدويلات العلوية، مثل الزيدية في طبرستان، ولكن يُلاحظ أنه لم يدعُ إلى خلافة علوية، ولا تبنَّى آراء شيعية، وبخاصة تلك التي تؤكد على حق الوراثة، وعدَّ الخلافة مؤسسة يحكمها أفضل المسلمين بغضِّ النظر عن عنصره، وهذا رأي الخوارج، ولعل قسوته تجاه أعدائه ووضع السيف في رقابهم واسترقاق نسائهم وقتل من لا يستحق ذلك؛ هو الذي دفع بعض المؤرخين إلى تصنيفه في صف الخوارج الأزارقة[3].

والواقع أنه لم يكن علوياً ولا خارجياً؛ بل إنه أخذ عن التيارات السياسة السائدة في عصره ما يوافق أهدافه السلطوية، فادَّعى شيئاً من مبادئ الخوارج

(١) المسعودي، م.س: جـ٤ ص١٠٨.
(٢) الطبري، م.س: جـ ٩ ص٤١٣.
(٣) المسعودي، م.س: جـ٤ ص١٠٨.

ونسباً علوياً[1]، وتطبيقاً لذلك رفع شعاراً له هو الآية التي ذكرناها، وقد أوَّلها تأويلاً سياسياً حيث قال: «إن المؤمنين (أصحابه) قد اشتروا أنفسهم، فلم يعودوا بعد عُرضة للرِّق والعبودية»، كما وُصِمَ بصفات تدل على خروجه عن الدين مثل: الفاسق، وعدوّ الله، والخائن، والخبيث، والحقيقة أن زعامته كانت انتهازية، ترتكز على عصبية عرقية (إثارة نعرة الزَّنج) أو عصبية قبلية (إثارة بعض القبائل وكذلك الأعراب)، كما أن زعامته كانت محكومة بالمصلحة الشخصية، ولذلك لم تصمد على المدى البعيد[2].

(١) علبي: **ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد**، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١م: ص٤٦ ـ ٤٧.
(٢) فوزي، م.س: ص٣٣٥.

الفَصْلُ الثّاني

العمليات العسكرية

طبيعة المنطقة الجغرافية

إن امتداد حركة الزَّنج على مدى أكثر من أربعة عشر عاماً يعود بشكل خاص إلى طبيعة المنطقة الجغرافية، فقد جرت أحداث الحركة في المنطقة الواقعة بين مصب نهر دجلة العوراء (شطّ العرب الحالي) وبين واسط في جنوبي العراق بين البصرة والكوفة، وتمتلىء هذه المنطقة بالمستنقعات والمسطحات المائية والتي يقع أهمها قرب البصرة، وكان القسم الأدنى لنهر دجلة الذي يتصل بالرافد الذي تقع عليه البصرة، مليء بعدد كبير من الأقنية بعضها يصح للملاحة، وحوَّلت الفيضانات الكثيرة والسدود المهدَّمة، الأراضي إلى مستنقعات، ووقعت معظم أحداث حرب الزَّنج في منطقة البصرة المطلّة على شطّ العرب، ويبلغ طول الأراضي المترامية بين الكوفة وواسط شمالاً حتى البصرة جنوباً حوالي مئتي ميل وعرضها خمسين ميلاً تتخلَّلها الأهوار؛ أي: البحيرات غير العميقة الغور[1]، إنها البطائح، وقد تشكَّلت نتيجة فيضانات دجلة والفرات.

اشتهرت حدود البصرة بكثرة الآجام والبطائح وغابات النخيل، والأنهار والقنوات والجداول المتفرعة من شط العرب، والنهيرات الفرعية التي حُفرت لأغراض الرَّيِّ، ثم تراجعت المياه عنها بعد بناء البصرة، فغلب الماء على المناطق المنخفضة، فأضحت أشبه بالمستنقعات، وكانت تتصل بعضها ببعض وتصبُّ جميعاً في دجلة العوراء.

جعل هذا الوضع الجغرافي من حرب الزَّنج حرباً غير منظَّمة يصعب فيها

---

(١) لسترنج، كي: **بلدان الخلافة الشرقية**، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركين عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥: ص٤٣.

تقاتل الطرفين المتحاربين وجهاً لوجه، وعملية شاقة بالنسبة للجيوش العباسية الضخمة ذات التجهيزات الثقيلة، وقد صعب عليها التنقل السريع، ومن ثم أضحت حرب كمائن وعصابات وكَرٍّ وفَرٍّ الأمر الذي ساعد على إطالة أمدها، كما جعل قمعها أمراً عسيراً على الخلافة.

وفي المقابل، كانت هذه الطبيعة الجغرافية لصالح الزَّنج؛ لأنهم كانوا يحاربون على أرض اعتادوا عليها جيداً، وخبروها طويلاً بفعل اشتغالهم عليها، وكانوا يقسمون أنفسهم إلى عصابات قليلة العدد، خفيفة التسلح، سريعة الحركة.

وذكر الطبري ما كانت تلاقيه الجيوش العباسية من مشاق في هذه الحرب بفعل استغلال الزَّنج لهذه الطبيعة المعقدة، وكيف كانوا يجرون المياه على السباخ التي تسلكها الفرق العسكرية العباسية، وكيف كانوا يحفرون الخنادق في مواضع عدة لعرقلة تقدُّمها، واضطر أحمد الموفق الذي تولى أمر قمع حركة الزَّنج إلى بذل الكثير من الجهد، وإضاعة الكثير من الوقت في ردم الخنادق والأنهار والأماكن الضيقة كي تُصبح صالحة لمسالك الخيل والرجالة[1]، ولاقى صعوبة في الوصول إلى معسكر الزَّنج، فعمل على قطع النخيل وإصلاح الأرض، وبناء الاستحكامات، وحفر الخنادق الضرورية، وساعدت كثافة الأشجار الزَّنج على نصب الكمائن والتربُّص بالقوات العباسية وأخذها على حين غرَّة.

واستخدم الزَّنج الكشافة والطلائع لتسقُّط تحرك الجيوش العباسية، وكان صاحب الزَّنج على اطِّلاع يومي على أخبارها بفعل جواسيسه وكشّافته، فيرسم الخطط المناسبة للقائها أو تجنُّب لقائها وفقاً للظروف.

الاستعداد والتجهيز

على الرغم من التناقض الواضح في آراء علي بن محمد، فقد انضمَّ إليه الآلاف من الزَّنج الذين يتوقون إلى التحرر والانعتاق، حيث استهوتهم دعوته، فكثر بذلك عدد أتباعه، وانضمَّ إليه بعض الأعراب الساخطين على الخلافة

---

(١) الطبري، م.س: جـ ٩ ص٦٣٦ ـ ٦٣٩.

العباسية، ففي عام (٢٥٧هـ/ ٨٧١م) ساعد بعض الأعراب الزَّنج في الهجوم على البصرة[١]، وفي العام التالي عاث الباهليون بقيادة سعيد بن أحمد في البطائح فقُبض عليه وصُلِبَ، فانضمَّ باقي رؤسائهم إلى الزَّنج[٢]، وانتهب الأعراب في عام (٢٦٦هـ/ ٨٨٠م) كسوة الكعبة ثم انضم بعضهم إلى الزَّنج[٣].

وتعاون بعض أهالي القرى في منطقة البصرة مع علي بن محمد، وقاتلوا معه، فقد جاء أهل الكرخ[٤] إليه ودعوا له بخير، وأمدّوه من الإنزال بما أراد، وهذا دليل على تذمُّر الفلاحين من معاملة ملّاك الأراضي، ولولا مساعدة هؤلاء له لصعب عليه تأمين التموين لجيوشه الجرارة.

وما جرى من انضمام الجنود السود في جيوش الخلافة إلى الزَّنج، قوّى موقفهم، ولعل القليل من أصحاب الحِرَف في المدن اشتركوا معهم.

العمليات العسكرية الأولى

بدأت حركة الزَّنج أعمالها العسكرية ليلة السبت (٢٨ رمضان ٢٥٥هـ/ ٨ أيلول ٨٦٩م) في عهد الخليفة المهتدي، وانطلقت من فرات البصرة حيث كان يقيم علي بن محمد. كان أول عمل قام به هو أنه قبض على خمسين عبداً من الشورجيين لرجل يُدعى العطار كانوا في طريقهم إلى أعمالهم في كسح السباخ، وضمَّهم إليه، ثم توجَّه إلى مكان آخر فأخذ خمسمئة غلام، منهم المعروف بأبي حُدَيْد، وراح بعد ذلك يُغير على المنطقة المجاورة للقبض على العبيد وضمِّهم إلى جموعه، وكان عليه أن يكسب ثقتهم حتى لا يفرّوا، فألقى فيهم خطبته الأولى التي وضَّحت برنامجه على النحو الذي ذكرنا.

لم يركن نواب أصحاب العبيد إلى السكون، ولمّا حاولوا إغراءه بالمال ليطلق سراحهم، رفض وأمر غلمانهم بضربهم بعصيٍّ من جريد النخل[٥]، وهكذا انتقم العبيد لأول مرة من سادتهم، وبدأ العداء منذ ذلك الوقت بين الملّاكين ونوابهم وبين علي بن محمد وأتباعه من الزَّنج.

ولمّا كثرت أعداد الزَّنج أخذ علي بن محمد ينظِّم صفوفهم على شكل

(١) الطبري، م.س: جـ ٩ ص٤٨٢.
(٢) ابن الجوزي، م.س: جـ٥ ص٨.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٦.
(٤) قرية على نهر الدجيل.
(٥) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٤.

فرق، وعيَّن قواداً عليهم، ولكنه افتقر إلى السلاح لتسليحهم وإلى المال للصرف على شؤون الحرب والتموين، ولحلِّ هذه المشكلة أغار على القرى المجاورة، فهاجم قرية الجعفرية[١]، وسلب منها مئتين وخمسين ديناراً وألف درهم «فكان هذا أول ما صار إليه»[٢].

وقضت «استراتيجية» علي بن محمد في هذه المرحلة معرفة سياسة أعدائه العباسيين وتحرّي أوضاعهم، فاستخدم الجواسيس والكشّافة ليوافوه بأخبارهم حتى يرسم خطط مواجهتهم، ووزَّعهم على النقاط المفصلية، واتَّبع حرب العصابات لإضعافهم، وبرَّر قتل الأسرى بوصفهم كفاراً، وكان إذا دخل قرية أفسدها وحمل رؤوس قتلاها على البغال، واحتفظ بالنساء والأطفال غنائم.

ضايقت أعمال صاحب الزَّنج أهل البصرة، فنهضوا للتصدي له، وعلم هذا بواسطة جواسيسه أنهم جهَّزوا جيشاً من المتطوعة لقتاله بقيادة رميس والحميري وعقيل الأبلّي، فاصطدم بهم وتغلَّب عليهم، وحاول رميس إغراءه بالمال فرفض[٣].

وأخذت قوة الزَّنج تنمو وتتزايد، واشتدَّ ساعدهم بما اجتمع لديهم من مال وجواهر وحلي وسلاح وأسرى، وهزموا جيشاً كبيراً من أربعة آلاف مقاتل في سوق الريان بقيادة رجل من الأتراك يُدعى أبو هلال، ثم هزموا جيشاً آخر في بيان[٤]، غير أن جيش الزَّنج تعرَّض لهزيمة قاسية في (١٢ ذي القعدة ٢٥٥هـ/ ٢٣ تشرين الأول ٨٦٩م) ووقع أفراده في نهر كبير، وقُتل منهم جماعة، وغرقت جماعة، وتفرَّق الباقون، وتخلَّف صاحبهم عنهم، وبقي منهم نفر يسير، لم ينجُ إلا بشقِّ النفس[٥].

(١) الجعفرية: الجعفري اسم قصر بناه المتوكل قرب سامراء بموضع يُسمى الماحوزة فاستحدث عنده مدينة، وانتقل إليها وأقطع القواد منها قطائع، فصارت أكبر من سامراء، والجعفرية أيضاً محلَّة كبيرة مشهورة في الجانب الشرقي من بغداد. الحموي، م.س: جـ٢ ص١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤١٧.
(٣) المصدر نفسه: ص٤١٧ ـ ٤١٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٢٥ ـ ٤٢٧.
وبيان: صقع من سواد البصرة في الجانب الشرقي من دجلة. الحموي، م.س: جـ١ ص٥١٨.
(٥) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.

لم يُفد أهل البصرة من هذا النصر؛ لأن علي بن محمد سرعان ما أعاد تنظيم صفوف قواته وكرَّ في اليوم التالي على مؤخرة الجيش البصري الذي كان يتقدم بمحاذاة النهر، وتغلَّب عليه في معركة الشذا، وكانت معركة ضارية قُتل فيها كثير من البصريين ممن اشتركوا في القتال من بني هاشم من ولد جعفر بن سليمان، وأربعون رجلاً من الرماة المشهورين، كما قُتل خلق كثير لا يُحصى عددهم[1].

كان هذا أول لقاء جدّي بين أهل البصرة وبين الزَّنج، وقد تأثروا بوقع الهزيمة، فتوقفوا عن قتالهم والتمسوا المساعدة من الخليفة، وألحُّوا عليه بضرورة التدخل[2]، ولبَّى الخليفة طلب البصريين فأرسل جيشاً بقيادة جعلان التركي، ما حوَّل حرب الزَّنج من حرب بينهم وبين أهل البصرة إلى حرب بينهم وبين الخلافة العباسية، ويبدو أن جعلان تهيَّب الدخول في معركة مع الزَّنج، وبقي ستة أشهر مخندقاً على نفسه على بُعد ثلاثة أميال من معسكرهم، فاستغل علي بن محمد هذا الموقف العسكري السلبي، ففاجأه وتغلَّب عليه، فترك جعلان معسكره وعاد إلى البصرة، وذلك في عام (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، فصرفه الخليفة عن حرب الزَّنج وعيَّن سعيداً الحاجب مكانه، واستولى هؤلاء في هذه الأثناء على أربعة وعشرين سفينة كانت في طريقها إلى البصرة[3].

توسُّع الزنج

قويت شوكة الزَّنج بعد تلك الانتصارات، واشتد ساعدهم، فقرَّر علي بن محمد توسيع رقعة نفوذه وانتشاره، فهاجم الأبلَّة، الميناء التجاري الواقع على شط العرب في زاوية الخليج العربي، وذلك في (٢٥ رجب ٢٥٦هـ/ ٢٨ حزيران ٨٧٠م)، ودخلها إثر معركة لم تدم طويلاً جرت في البرِّ والبحر، واستولى على كمّيات كبيرة من السلاح، وحرَّر العبيد هناك، وارتكب الزَّنج مجزرة مروعة فيها، وأضرموا النار في بيوتها[4].

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٣٦ ـ ٤٣٧، وقارن بابن الأثير الذي يُسمّي يوم المعركة باسم يوم البيداء جـ٦ ص٢٧٠.
(٢) الطبري، المصدر نفسه: ص٤٣٧.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٧٠ ـ ٤٧١.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٧١ ـ ٤٧٢.

تطلع علي بن محمد بعد ذلك إلى عبّادان[1]، وقد بلغ الرعب بأهلها أقصاه بفعل ما سمعوه وما رأوه من وحشية الزَّنج وقسوتهم، وحتى يتجنَّبوا مصيراً كمصير الأبلَّة، استسلموا، وفتحوا أبواب المدينة أمام الغزاة، فدخلها علي بن محمد وزنجه واستولوا على ما فيها من سلاح[2].

طمع علي بن محمد بعد ذلك بالاستيلاء على الأهواز[3]، فهاجم جبى وهي بلدة من أعمالها، فانهارت سريعاً، ما فتح الطريق أمامه إلى سوق الأهواز، وهي عاصمة المنطقة، وتقع على نهر كارون، ويبدو أن واليها سعيد بن يكسين أدرك أنه لا قِبَل له بالوقوف في وجه حشود الزَّنج، فانسحب مع جنده، في حين فضَّل سعيد بن المدبر صاحب الخراج المقاومة، فكان مصيره الأسر، وصودرت أمواله ومتاعه وعبيده، وبذلك سقطت الأهواز يوم الاثنين (١٢ رمضان ٢٥٦هـ/ ١٤ آب ٨٧٠م)[4].

وهكذا استطاع علي بن محمد في أقل من سنة أن يخضع لسلطانه مدناً كبيرة بالغة الأهمية، ويسيطر على مصبِّ نهر دجلة، ما أثَّر سلباً على بغداد التي انقطعت طرق مواصلاتها وتجارتها مع هذه المنطقة الحيوية، بالإضافة إلى البصرة التي باتت مُهدَّدة وغادرها أهلها وتفرقوا في القرى المجاورة.

احتلال البصرة

كانت الخلافة العباسية في غضون ذلك منهمكة بمشكلاتها الداخلية مع الأتراك الذين سيطروا على مقدَّراتها، وتخلَّصوا من الخليفة المهتدي بالقتل،

(١) عبّادان: ثغر تحت البصرة قرب البحر الملح، فإن دجلة إذا قاربت البحر انفرقت فرقتين عند قرية تُسمى المُحرزَى، ففرقة يُركب فيها إلى ناحية البحرين نحو برِّ العرب وهي اليمنى، فأما اليسرى فيُركب فيها إلى سيران وجنَّابة فارس، فهي مثلثة الشكل، وعبّادان في هذه الجزيرة التي بين النهرين، وهي موضع رديء سبخ لا خير فيه، ماؤه ملح. الحموي، م.س: جـ٥ ص٧٤.
(٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٧٢.
(٣) الأهواز أو خوزستان: كورة عظيمة يُنسب إليها سائر الكور، وفيها مواضع يُقال لكل واحد منها خوز كذا... أما البلد فإنما هو سوق الأهواز، والأهواز بعامة سبع كور بين البصرة وفارس. الحموي، م.س: جـ١ ص٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٤) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٧٢ ـ ٤٧٣.

وعيّنوا مكانه أحمد المعتمد بن المتوكل[1]، ولم يكن هذا الخليفة بالشخصية المطلوبة لمواجهة تطورات العصر، لكن الخلافة دخلت في مرحلة من القوة والانتعاش بفضل أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، الذي أضحى الحاكم الفعلي تاركاً للخليفة ألقابه ومظاهره.

استأنف علي بن محمد أعماله العسكرية، واستطاع قائده علي بن أبان المهلبي أن ينتصر على القوات العباسية في معارك كثيرة، وقتل شاهين بن بسطام، وهو أحد كبار موظفي الدولة، وألحق هذا النصر بنصر آخر عندما هاجم البصرة بأمر من رئيسه.

كانت البصرة الهدف التالي لعلي بن محمد، وهو مشروع ضخم يتطلب استعدادات كبيرة وجهوداً مكثّفة، فوضع خطّة عسكرية تقضي بعزلها عن محيطها عبر قطع مواصلاتها بدجلة، وفرض حصاراً اقتصادياً عليها، واستغلّ النزاعات العصبية والمذهبية الداخلية فيها، وبخاصة بين السعديين العرب والبلاليين الأتراك، ثم بين السعديين السنّة والربعيين الشيعة.

وحاول كل طرف الحصول على التموين الكافي للصمود ومنعه عن الطرف الآخر، فقد استعان علي بن محمد بالأعراب لإمداد جيشه بالتموين، وشُغل القائد العباسي منصور الخياط المسؤول عن الدفاع عن المدينة بتأمين المواد الغذائية للبصريين داخلها، وكانوا في ضائقة اقتصادية شديدة، ويبدو أن هذا العمل استنزف طاقته فلم يستطع التخطيط للمعركة، وصدِّ الزَّنج عن دخول البصرة.

وحشد علي بن محمد خيرة قادته وجنوده، فأسند القيادة إلى علي بن أبان يساعده يحيى بن محمد، فهاجموا البصرة يوم الجمعة (١٧ شوال ٢٥٧هـ/ ٧ أيلول ٨٧١م)، ودخلوها من ثلاثة محاور هي: بني سعد ونهر عدي وقصر أنس الذي يؤدي إلى الجسر.

وارتكب الزَّنج أعمالهم المعتادة من قتل وسلب وتخريب وإحراق، وأحدقت النار بالمدينة من كل جانب، فالتهمت كل شي من إنسان وبهيمة، وأثاث ومتاع[2].

(١) المسعودي، م.س: جـ٤ ص٩٨ ـ ١٠٠، ١١١.

(٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٨١ ـ ٤٨٨.

كان احتلال البصرة نصراً واضحاً للزَّنج، وكارثة حقيقية حلّت بالخلافة العباسية، ذلك أن هذه المدينة هي المنفذ النهري الوحيد من العراق وإليه، ومعنى احتلالها قطع طريق التجارة العباسية، وتهديد جميع المناطق المجاورة[1]، وقد أسهبت روايات المصادر في وصف المآسي التي لحقت بها بفعل احتلال الزَّنج لها؛ حتى ليبدو أنها خُرِّبت بشكل كبير، وفقدت كثيراً من معالمها العمرانية، وما زال المثل السائر: «بعد خراب البصرة» حيّاً في ذاكرة البصريين.

وأوحت هذه الكارثة لابن الرومي الشاعر بنظم قصيدة تاريخية طويلة (٨٣ بيتاً)[2] ينعي في بعض أبياتها على صاحب الزَّنج ادِّعاءه المهديَّة:

وتسمَّى بغير حق إماماً ... لا هدى الله سعيه من إمام

ثم يصف دخول الزَّنج البصرة:

دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذا راح مُدْلَهِمُّ الظلامِ

كم رب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارم صمصامِ

كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطامِ

صبَّحوهم فكابدَ القوم منهم ... طول يوم كأنه ألف عامِ

ويذكر الشاعر ما حلَّ بالبصرة فيقول:

لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ ... ـدان لهفاً يبقى على الأعوامِ

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحامِ

أين فلك فيها وخلق إليها ... منشآت في البحر كالأعلامِ

ويصف الشاعر المدينة وهي أطلال فيقول:

وخلت من حلولها فهي قفر ... لا ترى العين بين تلك الآكام

غير أيدٍ وأرجلٍ بائنات[3] ... نُبذت بينهن أخلاق هام

ووجوه قد رمَّلتها دماء ... بأبي تلكم الوجوه الدوامي

(١) السامر، م.س: ص١١٠.

(٢) ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج، **ديوان ابن الرومي** اختيار وتصنيف كامل كيلاني، المكتبة التجارية الكبرىٰ، القاهرة، ١٩٢٤م: ص٤١٩ ـ ٤٢٧.

(٣) بائنات: منفصلات عن الجسد.

وُطئت بالهوان والذل قسراً   بعد طول التبجيل والإعظامِ
فتراها تُسفي الرياح عليها   جاريات بهبوة وقَتامِ

ثم بيَّن الشاعر تقاعس المسلمين:

كم خذلنا ناسك ذي اجتهاد   وفقيه في دينه علّامِ

ويحثُّ ابن الرومي في آخر القصيدة المسلمين على الأخذ بالثأر وتحرير السبايا وإلا:

إن قعدتم عن اللعين فأنتم   شركاء اللعين في الآثامِ[1]

ذيول احتلال البصرة

الواضح أن علي بن محمد كان يكنُّ العداء للبصريين، وعبَّر في مناسبات كثيرة عن نقمته عليهم ورغبته في الانتقام منهم لأسباب عديدة، لعل أهمها أن المدينة كانت مركزاً لفئة الأغنياء الذين أثروا عبر استثمار العبيد في الزراعة، واشتغالهم بالتجارة، والمعروف أن مالكي العبيد كان أكثرهم من البصريين، وقد وقفوا ضدَّ حركة الزَّنج منذ بداية ظهورها، فلم يكد يمضي خمسين يوماً على قيامها حتى قاد حمّاد الساجي المتطوعة، وأهل حي المسجد الجامع، وجماعة من الهاشميين، والقريشيين، لقتال الزَّنج[2]، كذلك، انضمَّ أهل المفتح[3] والقرى المتصلة بها، وميس وعقيل وهما من موظفي الدولة، لحرب الزَّنج، وظلَّ أهل البصرة يكنُّون العداء لعلي بن محمد حتى نهاية حركته.

وعيَّن الخليفة المعتمد في (٢٠ ربيع الأول ٢٥٨هـ/ ٤ شباط ٨٧٢م) أخاه المُوفَّق على ديار مضر وقنسرين والعواصم، ووجَّهه في (أول ربيع الآخر/ ١٥ شباط) مع مفلح إلى البصرة لحرب الزَّنج[4]، ويدل ذلك على أن الخلافة بدأت تشعر بوطأة الزَّنج بعد أن عجز القادة الصغار عن وقف تقدُّمهم، وبدا المُوفَّق أنه الرجل القادر على إنقاذ الموقف، فقاد جيشاً ضخماً لم يُرَ «أحسن عدَّة، وأكمل سلاحاً وعتاداً، وأكثر عدداً وجمعاً»[5] منه، وصحبه مفلح، وقد أوقع هذا الجيش الرعب في قلوب الزَّنج، وكادت عزيمتهم أن تنهار لولا أن

---

(١) علبي، م.س: ص٢٥٤ ـ ٢٥٩.   (٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٣٥.
(٣) المفتح: قرية بين البصرة وواسط وهي من أعمال البصرة. الحموي، م.س: جـ٥ ص١٦٣.
(٤) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٩٠.   (٥) المصدر نفسه: ص٤٩٢.

أدرك علي بن محمد مدى الخطر الذي يُشكِّله هذا الجيش على حركته، فاستدعى علي بن أبان من الأهواز، فوافاه بمن معه من الجند، وما جرى آنذاك من قتل مفلح، الساعد الأيمن للمُوفَّق؛ أن اختلَّ نظام الجيش العباسي، وهُزم، فانسحب المُوفَّق إلى الأبلَّة ليعيد تنظيم صفوف قواته، وجرت معركة أخرى في الأهواز جُرح وأُسر فيها أحد قادة الزَّنج الكبار، ويُدعى يحيى البحراني، فأُخذ إلى سامراء حيث ضُرب بالسياط على مرأى من الناس، ثم قُتل وأُحرق[1].

لقي الموفَّق صعوبات كثيرة في تلك الجهات الحارَّة والمليئة بالمستنقعات والمسطَّحات المائية، وتفشَّت الأمراض بين جنده، وكثر الموت فيهم، فبقي مقيماً بالأبلَّة حتى تحسَّن وضعه العسكري وبرأ جنده مما أصابهم من المرض، فعاد إلى باذورد[2]، فأصلح سفنه، وجدَّد أسلحته، وعبَّأ جنده، واستعدَّ لإعادة الكرَّة على عدوِّه، والتحم الطرفان عند نهر أبي الخصيب في معركة ضارية قُتل وجُرح فيها عدد كبير من كلا الطرفين، وعلى الرغم من أن المُوفَّق حقق بعض النجاح، إلا أنه أخفق في قمع حركة الزَّنج، ذلك أن هؤلاء نصبوا الكمائن بين الأدغال، وقد انقضَّت على جنوده، وأشعلت النيران في معسكره، ووجد نفسه مضطراً إلى التراجع إلى واسط حيث انفضَّ عنه من كان معه من أصحابه، ثم عاد إلى سامراء يوم الجمعة في (٢٦ ربيع الأول ٢٥٩هـ/ ٣١ كانون الثاني ٨٧٣م)[3]، فتبدَّدت بذلك أهداف الحملة.

تحرَّر الزَّنج بانسحاب الموفَّق من خطر مُحقَّق، فاستأنفوا غاراتهم على المدن والقرى، وأرسل علي بن محمد قوّاتاً كبيرة إلى الأهواز بقيادة علي بن أبان وسليمان بن جامع، فدخلا المدينة بعد قتال مع واليها أصغجون الذي لم يثبت أمام قوة الزَّنج، وذلك في (٦ رجب/ ٨ أيار)[4].

ويبدو أن حملات الزَّنج على تلك النوحي لم تستهدف الاستقرار بل تأمين التموين والحصول على الغنائم، ورأى علي بن محمد أن سلامته وسلامة قواته

---

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٤٩٢ ـ ٤٩٨.
(٢) باذورد: مدينة بين واسط والبصرة. الحموي، م.س: جـ١ ص٣١٨.
(٣) الطبري: جـ٩ ص٤٩٩، ٥٠٠.   (٤) المصدر نفسه: ص٥٠٣ ـ ٥٠٤.

تكمن في تمركزهم في مستنقعاتهم وخنادقهم الحصينة بين الأدغال والقنوات، ثم رأى ضرورة إنشاء مركز حصين له ولجنده ليسهل تنظيم الجيوش وتعبئة الحملات منه، فاختار سبخة، في آخر أنهار البصرة، وهي سبخة أبي قرَّة، وأمر أصحابه ببناء الأكواخ من سعف النخيل والطين فيها، ثم انتقل في عام (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) إلى نهر أبي خصيب وأنشأ على ضفَّته الغربية مدينة حصينة بأسوارها وخنادقها وموقعها الطبيعي بين الأدغال الكثيفة والقنوات العديدة، وأمر أصحابه بالبناء فيها، وسمّاها المختارة، واعتنى بتموينها، وجعلها قريبة من البحر والبادية ليسهل الحصول على الأقوات من الجانبين[١].

لم تلبث الخلافة أن أرسلت شخصية قوية لحرب الزَّنج، هو موسى بن بغا التركي، الذي يُعدُّ من ألمع قادة العصر، فغادر سامراء في (١٧ ذي القعدة ٢٥٩هـ/ ١٤ أيلول ٨٧٣م) وشيَّعه الخليفة وخلع عليه، وكان يساعده قادة عدة أمثال: عبد الرحمٰن مفلح وقد أرسله إلى الأهواز، وإسحاق بن كنداج الذي أُسندت إليه جبهة البصرة، وإبراهيم بن سيما الذي تحصَّن في باذورد، كان هذا التوزيع من ضمن خطة عسكرية لضرب الزَّنج في مناطق انتشارهم دفعة واحدة[٢].

ودارت مناوشات عدَّة مع الزَّنج كان الانتصار فيها حليف القادة العباسيين، وعلى الرغم من ذلك استمرت الحرب على شكل حرب عصابات بضعة عشر شهراً كانت سجالاً، اتخذ موسى بن بغا خلالها واسط مركزاً له حتى عُزل عن حرب الزَّنج، وتولّاها مسرور البلخي[٣].

وحاول علي بن محمد في هذه المرحلة من الصراع التعاون مع يعقوب بن الليث الصفّار (٢٥٤ ـ ٢٦٥هـ/ ٨٦٧ ـ ٨٧٨م) مؤسس الدولة الصَّفارية في جنوبي إيران، وأخذ يتمدَّد باتجاه العراق، وهدَّد بغداد، وشُغلت الخلافة العباسية بمقاومته والتصدّي له، وحصر الموفق جهوده كلها في القضاء عليه، فسحب قواته من دجلة الأدنى ما أتاح لعلي بن محمد التمدد باتجاه الشمال بمساعدة بعض القبائل العربية الضاربة في البطائح جنوبي واسط، ثم إن

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٣٨٢.
(٢) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٠٤.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٠٥ ـ ٥٠٦.

استقالة القائد موسى بن بغا من مهمة حربه أتاحت له مهاجمة البطيحة ودست ميسان؛ حيث أفرط في القتل والتدمير[١].

وعقد صاحب الزَّنج اتفاقاً مع محمد بن عبيد الله، عامل يعقوب بن الليث على الأهواز، على حرب الجيوش العباسية، وذلك في عام (٢٦٢هـ/ ٨٧٦م)، غير أن العلاقات الثنائية لم تلبث أن فسدت لعدم إخلاص الطرفين، ومن ثمَّ استطاعت الجيوش العباسية بقيادة أحمد بن لَيْثَويه أن تُنزل الهزيمة بالزَّنج وتجرح قائد جيوشهم علي بن أبان[٢].

ويبدو أن المُوفَّق لم يستطع الإفادة من هذا النصر لانهماكه بحرب الصفّاريين، ما مكَّن الزَّنج من نشر نفوذهم في تلك الجهات، ثم أدرك يعقوب بن الليث الصفّار أهمية التعاون الجدّي مع علي بن محمد بسبب الضغط العباسي الواقع عليه، والذي أجبره على الانسحاب باتجاه الشرق إلى جنديسابور[٣]، ومن جهته ألحَّ علي بن محمد على يعقوب بن الليث الصفّار يحثُّه على العودة إلى بغداد، ووعده بالمساعدة، إلا أن يعقوب رفض التجاوب معه بفعل اختلاف الأهداف والمبادئ، والراجح أن يعقوب عدَّ الزَّنج مارقين، كما أنه كان ذا نزعة فردية، ويُفضِّل العمل وحده، فارسل إلى الأهواز رجلاً من قِبله، هو الحصن بن عنبر، على رأس قوة عسكرية، وأمره باحتلالها، وكانت تحت حكم الزَّنج، فلما قرب منها خرج عنها علي بن أبان، ودخلها الحصن، وأخذ الطرفان يغيران على بعضهما، إلى أن استعدَّ علي بن أبان وسار إلى الأهواز فهزم الحصن وجنوده، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأصاب خيلاً وغنم غنائم كثيرة، وهرب الحصن ومن تبقَّى من جنده إلى عسكر مُكرم[٤]، ويبدو أن الضرورة العسكرية أدَّت بعد ذلك إلى قيام هدنة بين الطرفين من دون اتِّفاق.

وتراجعت قوة الصفّاريين بعد وفاة يعقوب بن الليث بفعل عدم كفاءة

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٢٠ ـ ٥٢٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٢٧ ـ ٥٢٩.
(٣) جنديسابور: مدينة بخوزستان.
(٤) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٣١، وعسكر مُكرم: بلد مشهور من نواحي خوزستان. الحموي، م.س: جـ٤ ص١٢٣.

خلفائه، واستطاع المُوفَّق إقناع عمرو بن الليث أخا يعقوب (٢٦٥ ـ ٢٨٧هـ/ ٨٧٨ ـ ٩٠٠م) الذي تسلَّم الحكم بعد وفاته بعقد الصلح، ومنحه كثيراً من الامتيازات، فتفرَّغ نتيجة ذلك لحرب الزَّنج.

الصدامات العسكرية بين المُوفَّق والزَّنج

• تمهيد

تفرَّغ المُوفَّق لحرب الزَّنج بعد أن تفاهم مع الصفّاريين، وحدَّ من نفوذ أحمد بن طولون في بلاد الشام كما سنرى، وأمسك بزمام الأمور في دولة الخلافة العباسية، وكان الزَّنج قد استغلوا فرصة انهماكه بحرب الصفَّاريين، وخلوّ منطقة دجلة الأدنى من القوات العباسية، فأخذوا يغيرون على القرى والنواحي، وتقدَّموا نحو البطيحة ودست ميسان كما ذكرنا، وأخذوا يتوسعون في هذه الأرجاء بمساعدة بعض القبائل العربية المستقرة في المستنقعات جنوبي واسط، واستطاع سليمان بن جامع، أحد قادة الزَّنج الكبار، أن يدخل واسط في عام (٢٦٤هـ/ ٨٧٨م)، وهجرها سكانها فزعين، رافق هذا الاحتلال غارات خاطفة على القرى المجاورة مثل: حسان، والحوانيت، وتل رمانا، وطهيثا، والرصافة، وقد أدَّت إلى إتلاف تلك الجهات[١].

وجرت اشتباكات متفرقة بين سليمان بن جامع وقادة الفِرق العباسية تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة، غير أن الزَّنج حقَّقوا في عام (٢٦٥هـ/ ٨٧٩م) نصراً بدخولهم النعمانية[٢]، فأحرقوا سوقها وأكثر منازلها وسبوا، وبلغوا جرجرايا[٣]، وأضحوا على بُعد سبعين ميلاً من بغداد[٤].

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث كان المُوفَّق في مكة، فاستدعاه المعتمد وكلَّفه بحرب الزَّنج، وقد توسَّم فيه البأس والحزم، ويدلُّ ذلك على أمرين:

---

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٣٨.

(٢) النعمانية: بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة. الحموي، م.س: جـ٥ ص٢٩٤.

(٣) جرجرايا: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي. المصدر نفسه: جـ٢ ص١٢٣.

(٤) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٤٥.

الأول: أن المعتمد أدرك أنه لا يستطيع بنفسه أن يُبعد الخطر الذي أخذ يتهدَّد الخلافة.

الثاني: أنه كان يُقدِّر المُوفَّق حق قدره، وهو أحوج ما يكون إليه، فأشركه معه في الأمر، واستعان به في التغلُّب على الأزمات.

وهكذا أُطلقت يد المُوفَّق في إدارة شؤون الدولة، فانصرف للقضاء على حركة الزَّنج، وتبنَّى مبدأ الإصلاح السياسي والاقتصادي في خطوة لإعادة القوة إلى الدولة العباسية، والهيبة الفعلية للخلافة، وراح يعمل جاهداً في القضاء على ظاهرة الصراع التي كانت تتحكَّم وتسيطر على العلاقات بين السلطة الروحية، سلطة الخلافة، وبين السلطة الزمنية، سلطة العسكريين والقادة الأتراك، بالإضافة إلى إنهاء ظاهرة التمزُّق التي كانت سائدة وأفسدت العلاقة بين أفراد البيت العباسي خلال سنوات الانهيار[١].

انطلاقاً من تلك التطلعات السياسية كان على المُوفَّق أن يتصدى لطموح أحمد بن طولون الذي استقلَّ بحكم مصر، وبدأ يتطلَّع إلى بلاد الشام ليضع يده على أهم مصرين واستغلال خيراتهما الاقتصادية التي كان المُوفَّق بأمسِّ الحاجة إليها بعد الدمار الذي أحدثته حركة الزَّنج في القسم الشرقي من الدولة العباسية الواقع تحت إشرافه، وتثاقل الناس عن دفع الضرائب، وما تبع ذلك من تراجع موارده المالية بعد أن استولى الزَّنج على هذه الأموال، فحاول عزله عن مصر، وشهَّر به وحاك الدسائس والمؤامرات ضدَّه، لكن جهوده فشلت في إبعاده عن مصر، كما فشل في إبعاده عن ولاية الثغور الشامية والعواصم، لكن شغله بالحروب مع ولاة بلاد الشام، أمثال موسى بن بغا وأماجور.

وتطلَّبت الاستعدادات لحرب الزَّنج خصائص استثنائية في قائد غير عادي، إذ يجب أن يتحلّى بالحذر فضلاً عن الشجاعة، وضمان التأمين الكافي، والأموال الطائلة للصرف على الجند، والبراعة في الدعاية، والحذق في معرفة طبيعة الأرض الجغرافية، وتوفير العدد الكافي من المهندسين لنصب الجسور

---

(١) محمود، حسن أحمد، وأحمد إبراهيم الشريف: **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٥: ص٣٥٤.

وهدم الأسوار[1]، وقد توفَّرت هذه الخصائص في شخص المُوفَّق الذي استفاد من الفشل المتكرر للجيوش العباسية، وجعلته بصيراً بحربهم بشكل أفضل ممن تقدَّمه، وأخذ يسعى إلى بلوغ الهدف بهدوء وتروِّي، فلا يخاطر، ولا يخطو خطوة لا يتأكد من صوابيتها، فتحولت بذلك كفَّة الصراع لصالحه ولصالح الخلافة العباسية.

اضطر الموفَّق إلى الالتجاء إلى أحمد بن طولون يشكو إليه حاجته إلى المال، فأرسل نحرير الخادم إلى مصر لطلب الأموال المتأخرة والطراز والرقيق والخيل والشمع، فأرسل إليه كل ما جرت العادة بحمله مع المال، من رقيق وخيل وسلاح وشموع وطراز[2].

ويُعدُّ عام (٢٦٦هـ/ ٨٧٩م) انعطافة في حرب الزَّنج، فقد انتعشت الخلافة بعد تولي المُوفَّق إدارة شؤونها، وتصاعدت قوتها، وأفِلَ نجم حركة الزَّنج كقوة هدَّدت مناطق حيوية من أملاك الخلافة طوال عشر سنوات.

• **أبو العباس ابن الموفَّق يقود الحرب ضد الزَّنج**

وما جرى من انتهاء أمر الصفّاريين، وانهماك أحمد بن طولون بالحرب مع ولاة بلاد الشام؛ ترك للمُوفَّق مجالاً لتركيز قواه لخوض حرب فاصلة مع الزَّنج استخدم فيها طاقات الدولة كلها.

أرسل الموفَّق في السنة الأولى من بداية مهمته جيشاً مؤلَّفاً من عشرة آلاف مقاتل من الفرسان والرجالة وعدداً من السفن بقيادة ابنه أبي العباس البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، استقر في فم الصلح، وهو نهر كبير فوق واسط، وذلك في (ربيع الآخر ٢٦٦هـ/ تشرين الثاني ٨٧٩م).

ولما علم الزَّنج بمقدمه استصغروا شأنه، وغلب على أذهانهم أنه فتى غرٌّ «لم تطل ممارسته للحروب وتدريبه عليها»، لكن أبا العباس أظهر من المقدرة والبراعة ما مكَّنه من الانتصار على جيش الزَّنج بقيادة سليمان بن جامع وتمزيقه، ودخل واسط وصلَّى الجمعة فيها[3].

(١) السامر، م.س: ص١٣٣.
(٢) البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني: **سيرة أحمد بن طولون**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م: ص٨٠.
(٣) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٥٧ ـ ٥٥٩.

ورأى أبو العباس أن يبني معسكراً لجيشه في أسفل واسط، يأمن فيه شرَّ المباغتة، فاختار العمر «وهو على فرسخ من واسط» وقال: «أجعل معسكري أسفل واسط، ليأمن قومة الزَّنج...»، وأعرض عن مشاورة أصحابه «واستماع شيء من آرائهم»[1].

أعاد سليمان بن جامع تنظيم صفوف قواته لخوض المعركة التالية، وتلقىٰ إمدادات جديدة، وعبَّأ جيشه وقسَّمه إلى ثلاث فرق اتخذت كل واحدة منها طريقاً مختلفاً، سلكت الفرقة الأولى طريق نهر أبان، وأتت الفرقة الثانية من برتمرتا، واتخذت الفرقة الثالثة طريق بردودا، غير أن جواسيس أبا العباس نقلوا إليه تعبئة الزَّنج، وأخبروه عن الكمائن التي أعدّوها لمفاجأته، والواقع أن عشرة آلاف مقاتل من الزَّنج كمنوا في برتمرتا، وتمركز مثل هذا العدد في قس هثا، واصطدم الطرفان في رحى معركة ضارية بين قرية الرمل والرصافة انتهت بانتصار أبي العباس، فانسحب الزَّنج إلى طهيثا، في حين عاد أبو العباس إلى معسكره في العمر[2].

وأظهر أبو العباس في حربه ضد الزَّنج بُعد نظر في معالجة الأمور، وحتى يُضعف من قوَّة خصمه عمد إلى جذب قادته وجنوده، فإثر المعركة التي جرت في عبدسي استبقى قائد الفرقة الزنجية: ثابت بن أبي دلف، فمنَّ عليه وضمَّه إلى قادته[3].

وكلما تحرَّج وضع صاحب الزَّنج ازداد استئمان أصحابه من أبي العباس، مفضلين أمانه وهباته على تحمُّل الأخطار، وكان يُظهرهم بالخلع على مرأى من أصحابهم ليُطمعهم وليَفتَّ في أعضادهم، حتى اضطر صاحب الزَّنج إلى اتخاذ تدابير فعّالة لمنع تسلل أتباعه إلى صفوف أبي العباس[4].

وشعر سليمان بن جامع بقوة الجيش العباسي، بدليل أنه امتنع عن الحرب مدة شهر تقريباً، وأرسل إلى علي بن محمد يطلب إمداده بالسفن، فأرسل إليه أربعين سفينة، فازداد عدد قوّاته، وأخذ يستعرضهم في الميدان كل يوم، واتَّبع

(١) الطبري: م.س: جـ٩ ص٥٥٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٥٩ ـ ٥٦١.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٦٤.
(٤) الدوري، **دراسات في العصور العباسية المتأخرة** بغداد، ١٩٤٥: ص٧٥.

أسلوب حرب العصابات، الإغارة السريعة والانسحاب السريع، وأزال القناطر والجسور، وأحرق السفن العباسية، وقد لقي الجيش العباسي الشدَّة من هذه الغارات[1].

وأظهر أبو العباس حنكة في القيادة، وجرأة وشجاعة، فكان يعاين الأماكن والممرات والمسالك بنفسه، واهتم بالاستطلاع، فتوغل يوماً في نهر مازروان، ووصل إلى قرية الحجاجية، وهي من قرى واسط، ليُعاين الطرق التي تسلكها سفن الزَّنج، ففاجأه نحو ألفين منهم، فانسحب بعد أن تعرَّضت حياته للخطر[2].

وتوزع الزَّنج على ثلاث فرق، تمركزت الأولى في طهيثا بقيادة سليمان ابن جامع، والثانية في سوق الخميس بقيادة الشعراني، والثالثة في الصينية بقيادة نصر السندي، وقامت هذه الفرق بغارات واسعة على المناطق المجاورة، تصدَّى لها الجيش العباسي، واستولى على الصينية، وهزم فرقة زنجية بعبدسى يقودها ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ، فأسر أبو العباس الأول ومَنَّ عليه واستبقاه وضمَّه إلى قادته كما ذكرنا، وقتل الثاني، واستولى على هذه الناحية، لكنه فشل في محاولته فتح مدينة المنيعة التي بناها الزَّنج في سوق الخميس من نواحي واسط، واتخذوها عاصمة لهم، وعلى الرغم من النجاح الذي حقَّقه إلا أنه لم يتمكَّن من حسم الحرب حتى تدخَّل الموفَّق في (١١ صفر ٢٦٧هـ/ أيلول ٨٨٠م).

• المُوفَّق يقود الحرب ضد الزَّنج ونهاية الحركة

شعر علي بن محمد بقوة أبي العباس وكثرة عدد أفراد جيشه، فقرَّر تجميع قواته للاصطدام به، فأمر قائده علي بن أبان المتمركز في الأهواز أن يغادر المنطقة، وينضم إلى صفوف قوات سليمان بن جامع، ويجتمعا معاً على حرب الجيش العباسي، وما إن علم المُوفَّق بذلك حتى قرَّر هو الآخر نجدة ابنه، فغادر بغداد على رأس جيش ضخم يسانده عدد من السفن، وتراجع أبو العباس إلى مقرِّه بجوار واسط لينتظر وصول والده[3].

---

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٦١.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٦٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٦٦ ـ ٥٦٧.

كان هدف المُوفَّق الأول الاستيلاء على حصن الزَّنج الشمالي، المنيعة، وقد حصَّنوه بسور ضخم يحيط به ويمتد إلى مسافة ستة أميال، وتعاون الجيش العباسي البرّي مع الأسطول البحري وأنزلوا الهزيمة بالزَّنج إثر معركة جرت على أبواب الحصن، ودخلته القوات العباسية في (٨ ربيع الآخر ٢٦٧هـ/ ٦ تشرين الثاني ٨٨١م) في جوٍّ الانتصار، فحُرِّرت خمسة آلاف أسيرة، وأباحه المُوفَّق لجنده، فغنموا ما فيه من أمتعة وأموال، ثم هدم سوره، وطمر خنادقه، وأحرق ما بقي فيه من سفن الزَّنج[1].

تألَّم علي بن محمد كثيراً بسقوط المنيعة، وعبَّر عن عِظَم الكارثة التي حلَّت به بقوله وهو يصف الكتاب الذي جاء بالنبأ أنه: «ورد بقاصمة الظهر»[2]، وعاد المُوفَّق إلى معسكره في برمساور بعد أن استولى على الرساتيق والقرى التي كانت في يد الشعراني من غلّات الحنطة والشعير والأرز، فباعه وصرف ثمنه في أعطيات مواليه وغلمانه وجنده[3].

وتطلَّع المُوفَّق إلى الاستيلاء على الحصن الثاني، المدينة المنصورة، الذي بناه سليمان بن جامع قرب واسط بجوار طهيثا، وقد حصَّنه بخمسة خنادق، وجعل أمام كل خندق منها سوراً يمتنع مع أتباعه به، فأمر بإصلاح سفن الجسور ليستخدمها في حملته، واستكثر من العمّال والآلات لسدِّ الأنهار، وإصلاح الطرق للخيل، ثم تقدَّم إلى طهيثا ودخلها عنوة في (٢٧ ربيع الآخر/ ٥ تشرين الثاني)، وقُتل أحمد بن مهدي الجبائي أثناء القتال، وهو من قادة علي بن محمد البارزين، وأكثرهم طاعة له، ثم هاجم المنصورة، واقتحمها، فحرَّر عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً من الأسرى، وهدم أسوارها، وردم أنهارها، وفرَّ سليمان بن جامع في نفر من أصحابه[4].

وأمر المُوفَّق بمطاردة فلول الزَّنج في الآجام، والعفو عنهم وإكرامهم بدل التنكيل بهم، وذلك لاستمالتهم وصرفهم عن طاعة زعيمهم، وأرسل فرقة عسكرية لمطاردة سليمان بن جامع، كما أمر بفتح السكور التي كان علي ابن محمد قد أحدثها ليقطع الشذا (القوارب العسكرية) عن دجلة فيما بينه

---

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٦٧ ـ ٥٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٦٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٦٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٥٧٠ ـ ٥٧٤.

وبين النهر المعروف بأبي الخصيب[١]، والمعروف أن إنشاء السدود في الأنهار والقنوات كان من أساليب الزَّنج المشهورة وذلك لمنع سفن أعدائهم من المرور وعرقلة تحركات جيوشهم.

ترك المُوفَّق ابنه هارون في واسط مع قوة عسكرية، وسار إلى الأهواز لينقذ أهلها من المهلبي، وكان ابنه أبو العباس قد سبقه إليها، وعندما علم علي بن محمد بذلك، قرَّر أن يجمع قواته في مكان واحد استعداداً لمعركة قد تكون فاصلة، فكتب إلى المهلبي، وكان مقيماً في الأهواز مع ثلاثين ألف مقاتل، يأمره بأن يترك كل ما معه من المؤن والمتاع، حتى لا تعيقه، ويتوجَّه إليه فوراً، الأمر الذي دقَّ مسماراً آخر في نعش انتفاضته؛ لأن جيوشه افتقرت إلى المؤن، ودوابه إلى العلف، ما أضعف مقاومته على القتال والصمود، كما أمر بهبوذ بن عبد الوهاب بترك الفندم والباسيان والتوجه إليه أيضاً[٢].

ودخل المُوفَّق جنديسابور وتستر، حيث أعاد السيادة العباسية إلى هذه المناطق، كما اتصل بمحمد بن عبيد الله، الثائر الكردي، وعقد معه صلحاً، فأمِن جانبه، وهكذا أخذت مدن الأهواز تنهار سريعاً أمام هجمات المُوفَّق الذي استولى على المنطقة كلها، وطرد الزَّنج منها، واقتصر وجود هؤلاء في مدينتهم المختارة، وأضحت الحرب تدور حولها.

كانت المختارة الهدف الأخير للمُوفَّق، وبعد أن وطَّد الوضع في الأهواز، وجمع الذخائر والمؤن، رحل إلى نهر المبارك، وهو أحد الأنهار المتفرعة من شط العرب، وذلك يوم السبت في (١٥ رجب ٢٦٧هـ/ ١٩ شباط ٨٨١م)، وكان قد أمر ولديه أبا العباس وهارون أن يسبقاه إلى هذا المكان، وذلك لكي يواجه علي بن محمد بقواته كلِّها في معركة فاصلة، وكان أول عمل قام به بعد استقراره في معسكره الجديد قرب البصرة، أن كتب إليه كتاباً، مراعاة للتعاليم الإسلامية، يدعوه فيه إلى «التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ارتكب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوة والرسالة، ويُعلمه أن التوبة له مبسوطة، والأمان له موجود؛ فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور

(١) الطبري: م.س: جـ٩ ص٥٧٤. (٢) المصدر نفسه: ص٥٧٥ ـ ٥٧٦.

التي يسخطها الله، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظُّ الجزيل في دنياه»، لم يردَّ علي بن محمد على كتاب المُوفَّق، وازداد نفوراً وإصراراً[١]، ولعله كان يأمل أن تحصل فتن تشغل عدوَّه.

واتَّبع المُوفَّق خطَّة ذكية لإضعاف قوة خصمه، فكان يستقطب رجاله، ويمنحهم الأمان ويُكرمهم، ويضمهم إلى جيشه، فأخذ هؤلاء ينفضّون من حوله ويتحوَّلون إلى جانب المُوفَّق، ووافاه ألف زنجي ضمَّهم إلى جيشه وأجرى عليهم الأرزاق، واستأمن غيرهم أثناء حصار المختارة.

كان المُوفَّق بحاجة إلى قاعدة عسكرية قريبة من المختارة كي يتخذها منطلقاً لشنِّ الغارات وفرْض حصار عليها، فبنى الموفقية على مقربة منها، على ضفة شطِّ العرب، فأشرف بذلك على عاصمة علي بن محمد، وضرب عليها حصاراً اقتصادياً خانقاً، فقطع عنها سبل الإمدادات وعزلها عن محيطها، وأخذ يناوشها، واستمر في غضون ذلك، تحوَّل كثير من الزنج إلى معسكره فكان يُكرمهم، وأمر بإدنائهم من المكان الذي يراهم فيه إخوانهم الزَّنج، فكان ذلك من أنجع السُّبل التي زعزعت كيان علي بن محمد؛ لأن إخوانهم اقتدوا بهم، وتنافسوا في الحصول على الأمان، وتوالت حوادث الاستئمان[٢].

استفاد المُوفَّق من المستأمنين الذين أطلعوه عى وضع الثوّار وخططم العسكرية، ما كان له أثر معنوي، ومفعول قويٌّ في نفوس من بقي من الزَّنج مع علي بن محمد؛ بل وعلى علاقته بأتباعه، حتى صار يشكُّ في ولائهم، فراح يسدُّ منافذ الأنهار كي يمنع خروج السفن المحمَّلة بالمستأمنين هرباً من سوء الأوضاع الاقتصادية.

وعمد المُوفَّق إلى تخريب الجسور المؤدّية إلى المختارة، وكذلك القناطر، وإزالة وسائل الدفاع عنها عبر تهديم أسوارها تدريجاً، ما أضعف تحصيناتها، لكن حصلت بعض الحوادث أخَّرت هجومه النهائي عليها، من ذلك أنه أُصيب بسهم في صدره في (٢٥ جمادى الأولى ٢٦٩هـ/ ١٠ كانون الأول ٨٨٢م)، فأعاقه عن الإشراف على القتال، حتى شُفي في (شعبان ٢٦٩هـ/ شباط ٨٨٣م)،

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٥٨١. (٢) المصدر نفسه: ص٥٨٢، ٥٨٥ ـ ٥٨٦.

ثم شُغل بمشكلة المعتمد الذي هرب من سامراء قاصداً مصر بهدف اللجوء إلى أحمد بن طولون، لكن إسحاق بن كنداج عامل المُوفَّق على الموصل قبض عليه وأعاده إلى سامراء[1].

استغل علي بن محمد هذه الفرصة، فقوّى وسائل دفاعه، وأعاد بناء ما تهدَّم من السور، ثم عاد الموفَّق إلى استئناف القتال، فهاجمت سفنه المختارة في التاريخ المذكور أعلاه، ووصلت إلى قصر صاحب الزَّنج، فأحرقته، وخرج هذا هارباً لا يلوي على شيء، وخلَّف وراءه دوره وأصحابه طُعمة للنيران والنهب، وانتقل إلى شرقي نهر أبي الخصيب، ثم اعتلَّ المُوفَّق بوجع المفاصل، ما أعاقه عن متابعة القتال حوالي شهرين، فاستغل علي بن محمد هذه الفرصة لتقوية تحصيناته، فبنى قنطرة وجسرين على نهر أبي الخصيب يسمحان له بالاتصال بالعالم الخارجي، لكن الموفَّق سرعان ما دمَّرهم بعد شفائه[2].

وكثرت في هذه الأثناء حوادث استئمان الزَّنج إلى الموفَّق، فقد لجأ إليه جعفر بن أحمد الجان ومعه جماعة كبيرة، كما استأمن محمد بن سمعان كاتب علي بن محمد ووزيره، وحاول ابنه انكلاي طلب الأمان لولا أن زجره والده وأثناه عن طلبه، وأرسل سليمان بن موسى الشعراني يطلب الأمان، وهو أحد قادة الزَّنج البارزين، وتبعه خلق كثير، وكذلك فعل شبل بن سالم أحد قادة الزَّنج، واتَّبع الموفَّق مع هؤلاء المستأمنين سياسته المعهودة.

وأخذ من بالمختارة من الزَّنج يشعرون بالجوع بعد نفاد المؤن، وعدم دخول مؤن جديدة وخبز وسمك إليهم بفعل الحصار، وقام المُوفَّق بهجمات سريعة وخاطفة عليهم ما ألقى الرعب في قلوبهم، ثم اقتنع بأن الوقت قد حان لشنِّ هجوم عام، فجمع المستأمنة من الزَّنج وذكَّرهم بفضله وإحسانه «وأنهم من الخبرة بمسالك عسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته، والمعاقل التي أعدَّها للهرب إليها، على ما ليس عليه غيرهم منهم أحرياء أن يمحضوه نصيحتهم، ويجتهدوا في الولوج على الخبيث، والتوغل إليه في حصونه، حتى يُمكِّنهم الله منه ومن أتباعه»، فشكروه وأقسموا له يمين الإخلاص[3].

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٦٢٠ ـ ٦٢١.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٢٢ ـ ٦٢٤، ٦٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٦٤٤ ـ ٦٤٥.

وجمع الموفَّق السفن في البطيحة ودجلة، ولما أتمَّ استعداداته قام بالهجوم الأخير على المختارة في (٧ ذي القعدة ٢٦٩هـ/ ١٨ أيار ٨٨٣م)، من محاور عدَّة، وتمكَّن من دخولها بعد قتال، واستولى على قصر علي بن محمد، فاستباحه جنده، وسبوا أهله، وانتقل علي بن محمد إلى قلعة أخرى داخل المدينة هي قصر المهلبي.

ووردت على الموفق في هذه الأثناء تعزيزات جديدة، ففي (٢ ذي الحجة/ ١٢ حزيران) قدم عشرة آلاف بين فارس وراجل من سامراء، وانضم إليه لؤلؤ والي شمالي بلاد الشام بعد أن خرج علىٰ أحمد بن طولون، وجاء كثير من المتطوعة، مثل: أحمد بن دينار عامل أيذج في الأهواز ومعه جمع كثير من الرجال والفرسان، وألفي رجل من البحرين، وبعض المتطوعة من فارس وبلدان أخرى فتقوّى بهم.

وشنَّ المُوفَّق الهجوم الأخير على شرقي نهر أبي الخصيب وغربه في (٢٧ محرم ٢٧٠هـ/ ٥ آب ٨٨٣م)، واحتشد الزَّنج للتصدي له، ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية، تكبد الطرفان فيها كثيراً من القتلى، وأسفرت عن انتصار الجيش العباسي، وأُسر علي بن أبان وأخواه الخليل ومحمد، بالإضافة إلى أهل سليمان بن جامع، ونُقلوا إلى الموفقية، كما أُسر الكثير من الزنج، وكان ميدان المعركة نهر جوي كور، واستولى الجيش العباسي على المختارة وأطلق سراح من فيها من الأسرى، ولاذ علي بن محمد وبعض قادته بالفرار إلى مكان على نهر السفياني، وهو من أنهار أبي الخصيب، وكان قد أعدَّه من قبل.

واستراح الطرفان بضعة أيام قبل أن يستأنفا القتال في جولة ثانية، في (٢ صفر/ ١١ آب)، وكان الزَّنج قد عادوا إلى مدينتهم أثناء انسحاب الجيش العباسي منها، وأُسر في هذا الهجوم سليمان بن جامع وقائدان آخران، هما: إبراهيم بن جعفر الهمداني، ونادر الأسود، فنُقلوا إلى المعسكر العباسي، وجرى صلب الأول والثاني، وما لبث أن انهارت عزيمة الزَّنج عندما جاءت الأخبار بمقتل علي بن محمد، وحمل أحد أصحاب لؤلؤ رأسه، فسَرَت الفرحة في المعسكر العباسي، واستسلم الآلاف منهم ممن نجا من القتل والغرق.

وأصدر المُوفَّق بياناً إلى العالم الإسلامي يهيب فيه بسكان المدن الفارّين بالعودة إلى ديارهم، وعيَّن ولاةً جدداً على المناطق التي اختلَّ نظامها الإداري أكثر من أربع عشرة سنة، واستُقبل النبأ في بغداد بالسرور من جانب أولي الأمر، ودخل أبو العباس المدينة وهو يحمل رأس علي بن محمد بين يديه، وذلك يوم السبت (١٨ جمادى الأولى/٢٣ تشرين الثاني)، فاستقبله شعراء القصر بالمدح والثناء[١].

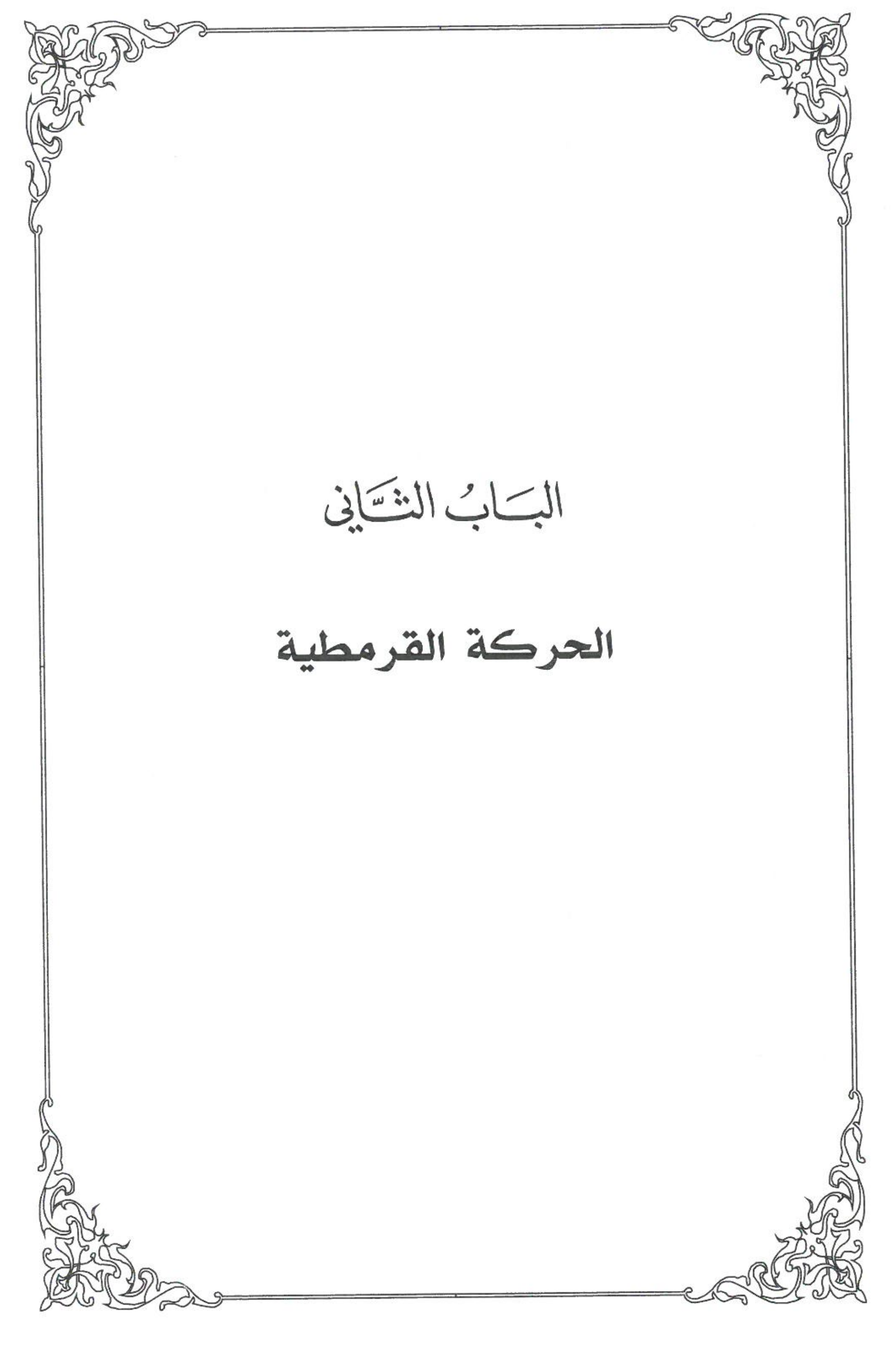
ولم يبقَ من الزَّنج سوى شرذمة قليلة، استعصت في أدغال البصرة، وعاشت فيها قبل أن تطلب الأمان.

وهكذا انتهت حركة الزَّنج بعد أن تركت وراءها آثاراً مؤلمة من التدمير والتخريب، وأهم ما فيها الروح العصبية العرقية والعصبية القبلية التي اتصفت بها وحرَّكتها، والدور الكبير الذي أدّاه العامل الاقتصادي خلالها، وأهمية الهندسة المدنية في أعمالها، وانكشاف ضعف الخلافة وقواها الكامنة[٢].

---

(١) الطبري، م.س: جـ٩ ص٦٤٥ ـ ٦٦١.

(٢) الدوري، م.س: ص٨٢.



الباب الثاني

الحركة القرمطية

الفصل الثالث

القرامطة ــ أصلهم

أصل كلمة قرامطة

إن كلمة قرامطة مشتقة، والآراء كثيرة في ذلك، وهي متناقضة أحياناً، لذلك أثارت جدلاً كبيراً بين أصحاب الفرق والمؤرخين والباحثين، الذين تناولوا الحركة القرمطية بالدرس، وفيما يلي عرض لمختلف الآراء حول هذا الموضوع:

ـ قرمط: القرمطيط، المتقارب الخطو، وَقرمَطَ في خطوه إذا قارب ما بين قدميه، والقرمطة في الخط، دقة الكتابة وتداني الحروف، والقرمطة في المشي، مقاربة الخطى، وتداني المشي، وقرمط الكاتب، إذا قارب بين كتابته، والقرامطة جيل، واحدهم قرمطي، والقرمطوط، زهر الغضا وهو أحمر[١].

ـ نُسبت الحركة القرمطية إلى رجل، فقد قدم رجل من ناحية الأهواز (خوزستان) إلى سواد الكوفة، وأقام بموضع يُقال له النهرين، وكان يُظهر الزهد والتقشف، ويُكثر الصلاة، ويدعو إلى الإمام من آل بيت الرسول، ويسفُّ الخوص[٢]، ويجلس إلى بقّال في القرية، فحفظ تمر نخيل بستان مجاور للبقّال، ثم مرض وطُرح في الطريق، فكلّم البقّال (كرميتة) أن يحمله إلى منزله، ويعتني به، ففعل، وأقام عنده حتى بَرِئ، وسُمّي باسم الرجل الذي آواه في منزله والذي يسميه أهل القرية: كرميتة، لشدَّة احمرار عينيه، وهي كلمة نبطية تعني: أحمر العينين، وكان يحمل غلّته على أثوار له، ثم خُفِّف الاسم، فقالوا قرمط[٣].

---

(١) ابن منظور، م.س: جـ٧ ص٣٧٧.

(٢) يَسفُّ الخوص: الخوص: ورق النخل، وسَفَّ الخوص: نسجه.

(٣) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٢٣ ـ ٢٤.

وفي رواية أن الرجل الذي نُسبت إليه الحركة القرمطية هو محمد بن الوراق المقرمط، أو أنه كان لهم رئيس من السواد من الأنباط يُلقب بقرمط، أو أن قرمط كان عاملاً لإسماعيل بن جعفر الصادق فنُسبوا إليه؛ لأنَّه أحدث لهم مقالاتهم.

- دُعيت الحركة القرمطية بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها: حمدان بن الأشعث، الملقب بقرمط لِقِصَر كان في متنه وساقه، أو أنه كان أحمر البشرة تشبيهاً له بالقرميد، وأصل اللفظة يوناني، وظهر في عهد الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م) وهو مزارع بسيط في سواد الكوفة، وأكاراً بقَّاراً يحمل غلَّته على أثوار له في القرية المعروفة بقس بهرام.

- إن معنى قرمط المعلِّم السرّي، وهي من أصل عربي مشتقة من القول: قرمط الرجل في مشيته، أي: قارب بين خطواته، ولعل الكلمة يونانية، ومعناها: الجِرف، أو هي من أصل آرامي بمعنى: معلم سرّي[1].

- وردت كلمة قرمط في قصيدة أبي دلف الساسانية في الكدية[2] بمعنى: الرجل الذي يكتسب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخطِّ[3].

- قرامطة، كلمة معروفة عند أهالي بلاد العراق الجنوبية، ومعناها: الفلاح والقروي، لم تُستعمل بالعربية بهذا المعنى، ثم عُرِّبت إلى قرمط، عُرف حمدان بن الأشعث بهذا الاسم، وسُمّي أتباعه باسمه، والمعروف أن الحركة القرمطية قامت على أكتاف الفئات الاجتماعية الدنيا من الفقراء والعبيد وغيرهم.

- إن لفظة قرمط آرامية ـ نبطية، معناها: المدلِّس أو الخبيث أو المكّار أو المحتال.

(١) بروكلمان، كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٦٧م: ص٢٢٩.

(٢) الكدية: استعطاء، حرفة الشحّاذ.

(٣) الثعالبي، أبو منصور: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تح: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٦م: جـ٢ ص١٨٤.

أصل القرامطة

تباينت آراء المؤرِّخين وأصحاب الفِرَق، المسلمين والمستشرقين في أصل الفِرق الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية بين مزيج من الشيعة تأثَّرت بنِحَل ذات جذور فارسية قديمة، أطلقتها عوامل دينية سادت المجتمع العباسي، وبين جماعات شيعية غالية اتخذت أسماء مختلفة، وتأثَّرت بعوامل غالية كانت تعيشها شعوب تلك المرحلة في كنف الدولة العباسية[1].

فيروي أبو عبد الله بن رزّام، وهو أول من نادى بنسبة الأئمة الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح، وكان هذا من أهل قوزح العباس قرب مدينة الأهواز، وأبوه ميمون الذي تُنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونية التي اتَّبعتْ أبا الخطاب محمد بن أبي زينب، وكان ميمون وابنه ديصانيين، وانتقل عبد الله بن ميمون، فنزل عسكر مُكرم، في نواحي الأهواز، ثم صار إلى البصرة، فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب، فكُبس هناك، فهرب إلى سلمية قرب حمص، واشترى هناك ضياعاً، وبثَّ الدعاة في سواد الكوفة، فأجابه في هذا الموضع رجل يُعرف بحمدان بن الأشعث ويُلقَّب بقرمط لقصر كان في متنه وساقه، وتنصَّب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة، وفرَّق عبدان الدعاة في سواد الكوفة، وأقام قرمط بكلوازي قرب بغداد، ونصب له عبد الله ابن ميمون رجلاً من ولده يكاتبه بالطالقان، جنوبي بحر قزوين، وذلك عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م)[2].

وذهب عبد القاهر البغدادي[3]، إلى أن الذين أسَّسوا دعوة الباطنية هم جماعة، منهم ميمون بن ديصان، المعروف بالقداح، وكان مولى لجعفر الصادق بن محمد، وهو من الأهواز، ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان، اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان في سجن والي العراق، وأسَّسوا

(١) علم الدين، سليمان سليم: **القرامطة نشأتهم عقائدهم حروبهم**، دار نوفل، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م: ص١٠١.

(٢) ابن النديم، محمد بن إسحاق: **الفهرست**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٣) عبد القاهر البغدادي، وُلد ونشأ في بغداد، ثم رحل مع أبيه إلى خراسان، وسكن نيسابور حيث تفقَّه على أهل العلم والحديث، ثم غادر نيسابور في عام ٤٢٩هـ، وذهب إلى بلدة اسفرايين، حيث توفي فيها في العام نفسه.

في ذلك السجن مذهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان، وابتدأ بالدعوة في ناحية توَّز[1]، فدخل في دينه جماعة من أهل الجبل المعروف بالبدين، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرِّفض والحلوليَّة، منهم من ادَّعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ثم ظهر في دعوته إلى دين الباطنية رجل يُقال له حمدان قرمط، لُقِّب بذلك لقرمطة في خطِّه أو في خطوه، وكان في ابتداء أمره أكّاراً من أكرة سواد الكوفة، وإليه تُنسب القرامطة[2].

ويذكر سعد القمي وهو معاصر للحركة القرمطية أن تسمية القرامطة، بهذا الاسم يرجع إلى رئيس كان لهم من أهل السواد من الأنباط[3]، وكان يُلقَّب بقرمطوية، وكانوا في الأصل على مقالة المباركية[4]، ثم خالفوها وقالوا: «لا يكون بعد محمد ﷺ غير سبعة، علي رسول، والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، زين العابدين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق، وهو الإمام القائم والمهدي، وهو رسول، وهؤلاء رسل أئمة، وزعموا أن النبي انقطعت عنه الرسالة في حياته إلى اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب بغدير خم، فصارت الرسالة في ذلك اليوم إلى أمير المؤمنين، وتأوّلوا قول الرسول: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»، فيه خروج من الرسالة والنبوة، تسليم منه لعلي بن أبي طالب بأمر الله، وأن النبي صار بعد ذلك تابعاً لعلي، محجوباً به، فلما مضى أمير المؤمنين صارت الإمامة والرسالة في الحسن، ثم صارت من الحسن إلى الحسين، ثم صارت في علي بن الحسين، زين العابدين، ثم في محمد بن علي، الباقر، ثم كانت في جعفر بن محمد،

(١) تَوَّز: بلد بفارس، وهي تَوَّج.

(٢) البغدادي، عبد القاهر: **الفرق بين الفِرَق**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م: ص٢١٣.

(٣) سكنوا سواد الكوفة قبل الإسلام.

(٤) نسبة إلى مبارك مولى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان يقول بأن الإمامة في ولد محمد بن إسماعيل. البغدادي، م.س: ص٤٣.

الصادق، ثم انقطعت عن جعفر في حياته، ثم إن الله بدا له في إمامة جعفر وإسماعيل فصيرها ﷺ في محمد بن إسماعيل، واعتلّوا في ذلك بخبر رووه عن جعفر بن محمد أنه قال: ما رأيت مثل بداءٍ بدا لله في إسماعيل. وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي، وزعم القرامطة أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم، معناها عندهم الإباحة للمحارم، وجميع ما خلق في الدنيا وهو قول الله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة/ ٣٥]، يعني محمد بن إسماعيل، وأباه إسماعيل، واستحلّوا استعراض الناس بالسيف وسفك دمائهم، وأخذ أموالهم والشهادة، واعتلّوا في ذلك بقول الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة/ ٥]، وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة، وكان كلهم في سواد الكوفة، وكثروا بعد ذلك في اليمن ونواحي البحرين واليمامة وما والاها، ودخل فيهم كثير من العرب فقووا بهم وأظهروا أمرهم[1].

ويذهب ابن كثير في أصل القرامطة أنه: «وفي سنة ٢٧٨هـ تحركت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك، وكانا يبيحان المحرمات، ثم هم أتباع كل ناعق إلى باطل، وأكثر ما يُفسدون من جهة الرافضة، ويدخلون إلى الباطل من جهتهم؛ لأنهم أقل الناس عقلاً، ويُقال لهم الإسماعيلية، لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج ابن جعفر الصادق، ويقال لهم القرامطة، قيل في نسبهم إلى قرمط بن الأشعث البقار وأسّس لأتباعه دعوة ومسلكاً يسلكونه، ودعا إلى إمام أهل البيت، ويُقال لهم الباطنية؛ لأنهم يُظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض، والجرمية والبابكية... ويُقال لهم المحمرة؛ نسبة إلى صبغ الحمرة شعاراً...»[2].

وقال النوبختي: «إن القرامطة، وسُمُّوا بذلك نسبة إلى مؤسِّس نحلتهم، فرقة انفصلت عن المباركية، وعلى هذا فهم إسماعيليون منفصلون، وهم يختلفون

(١) القمي، سعيد **المقالات والفرق**، طهران، ١٩٦٣م: ص٨٢ ـ ٨٦.

(٢) ابن كثير، م.س: جـ١١ ص٦١ ـ ٦٢.

عن الإسماعيلية الخالصة في جعلهم محمد بن إسماعيل هو المهدي والقائم والخالد، وعلى هذا، فهم لا يُقرُّون بمن خلفه من الأئمة المستورين»[1].

ويؤكد عبد الرحمٰن بدوي (معاصر) أن المباركية أصل الإسماعيلية والقرامطة، والمباركية هي الإسماعيلية الأولى في القرن الثاني الهجري، والقرامطة هم الإسماعيلية الثانية في القرن الثالث الهجري، ويبدو أنه استند إلى سعد القمي في القول، أن المباركية هي أصل القرامطة الذين تشعَّبوا عنها[2].

ويذهب عارف تامر (معاصر) إلى القول: «نستطيع ونحن مطمئنون أن نقول إن القرامطة إسماعيليون لحماً ودماً وعقيدة، وأن التسمية القرمطية موجودة قبل حمدان بن الأشعث قرمط، وقد أطلقها أهل دمشق على كل من يعتنق الأفكار الإسماعيلية، ثم انتشر وتعمَّم في كل مكان من أجزاء المشرق الإسلامي، والقصد منه لا يخرج عن وهم الإسماعيليين بما يُخفض من قيمتهم، ويحطُّ من مركزهم، وأعتقد أن الإمام عبيد الله المهدي لم يُطلق على دولته في المغرب اسم الفاطميين إلا تخلصاً من هذا الاسم الذي لم يكن يتناسب ومركز الأسرة في العالم الإسلامي»، ويبدو أنه ذهب إلى ذلك لاعتقاده بأن تسمية القرامطة تعني التدليس أو الخبث أو المكر أو الاحتيال، وهو لا يُفرِّق بين معنى اللفظين، فقد ورد عنده عبارة «النظام الإسماعيلي القرمطي»[3].

واعتمد بعض المستشرقين أمثال دي خويه[4]، ودي ساسي[5]، ودوزي[6]، على ابن رزَّام، وهو أول من أشاع بأن الإسماعيلية والقرمطية والفاطمية أسماء

---

(١) النوبختي، الحسن بن موسىٰ: **فرق الشيعة**، بيروت، ١٩٨٤: ص٥١.
(٢) بدوي، عبد الرحمن: **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت: جـ٢ ص٨٧ - ٩١.
(٣) تامر، عارف: **القرامطة: أصلهم، نشأتهم، تاريخهم وحروبهم**، دار مكتبة الحياة، بيروت: ص٧٦ - ٧٧، ٨١.
(٤) دي خويه، ميكال يان: **القرامطة نشأتهم، دولتهم، وعلاقاتهم بالفاطميين**، ترجمة وتحقيق: حسنين زينة، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
(٥) De sacy, Sylvester: Religion des Druze.
(٦) Dozy, Reinhart: Histoire des Musulmans d'Espagne.

مختلفة لحركة واحدة تنتحل ادعاءات إسماعيل بن جعفر الصادق ضد إخوته، وأعاد تنظيمها عبد الله بن ميمون القداح[1].

ويرى كزانوڤا[2]، أن القرمطية والفاطمية، حركة واحدة، ومع ذلك فقد ذهب إلى أن القرامطة يرجعون إلى أصل أقدم، انضموا إلى الإسماعيلية.

وينفي إيڤانوف[3] أيَّ صلة بين الإسماعيليين والفاطميين والقرامطة، وذهب إلى أن الفاطميين يبغضون القرامطة بقدر ما يبغضهم أهل السُّنَّة.

وفي المقابل هناك من يؤكد بأن الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية حركة واحدة أوجدها إسماعيل بن جعفر الصادق وأستاذه أبو الخطاب، ومعاصرون آخرون لهما، في القرن الثاني للهجرة، والخلفاء الفاطميون من نسل ميمون القداح، وكان قرامطة الهلال الخصيب (قرامطة البادية) قسماً من الدعوة الإسماعيلية، وكانت الحركة القرمطية في البحرين منفصلة في أصلها، وربما كانت خفية أو إسماعيلية متشعِّبة، ثم انضوت جماعة منها تحت الخلفاء الفاطميين، إلا أنها ظلَّت محافظة على شخصيتها، وقد يرجع تاريخ لفظ القرامطة إلى ما بعد انضمامهم إلى الإسماعيلية، وأن النزاع الأخير بين القرامطة والفاطميين كان سبب الانشقاق بين المعتدلين والمتطرفين بعد تأسيس الدولة الفاطمية[4].

ويدمج نيكلسون[5] التعاليم القرمطية بتعاليم الشيعة الإسماعيلية، ويرجعها إلى الفلسفة اليونانية، ويُضمِّنها العقائد المجوسية، فقد ذهب إلى أن القرامطة حركة دينية سياسية، وهي فرقة من الإسماعيلية، دُعيت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها حمدان بن الأشعث قرمط، وهي فرقة شيعية انطلقت عام (٢٧٨هـ/ ٨٩١م) في عهد الخليفة العباسي المعتضد، واتبعت تنظيماً سرّياً، وتعاليمها فرع من تعاليم الشيعة الإسماعيلية، والعقائد المجوسية، والفلسفة اليونانية،

---

(١) لويس، برنار: **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة**، ترجمة: خليل أحمد جلو، مكتبة المثنى، بغداد: ص٥٤.
(٢) Casanova, paul: la Doctrine seerète des Fatimides d'Egypt.
(٣) Ivanof, Vladimir: Ismail: Traditions Concerning the Rise of the Fatimids.
(٤) لويس، م.س، ٥٥ - ٥٧.
(٥) Nicholson, Reynold Alleyne: The Mystics of Islam, p120.

وتذهب إلى أن التنزيل (القرآن) والسُّنَّة، غامضان لهما معنى لا يمكن إدراكه؛ لأنَّه محل خفاء، ولا يُدرَك إلا بالتأويل، ثم نزحوا إلى السلمية في شمالي وسط سورية، ونادوا بالاشتراكية والمساواة في الأموال والنساء، وكل شيء في الحياة هو ملك الجميع، وعندما يُقال «الملك لله؛ معناه: الملك للشعب».

يبدو أن النظرية الأقرب إلى الواقع هي الرواية التي تقول أن الحسين الأهوازي الذي أرسله الستر الرابع الإمام أحمد بن عبد الله، أو هو الإمام أحمد نفسه، لقي بسواد الكوفة حمدان بن الأشعث قرمط، وتمكَّن من إدخاله في الدعوة الإسماعيلية، وقد شاهد الحسين الأهوازي خلال تجواله في سواد الكوفة، الظلم والجور والفقر الذي كان مستشرياً فيها، فأقنع حمدان ابن الأشعث قرمط أن يُنادي بعقيدة الإمام المهدي المنتظَر الذي يملأ الأرض عدلاً وأمناً وسلاماً، وتوافقت هذه العقيدة مع الأمل الذي كان يراود سكان سواد الكوفة، للخلاص مما هم فيه، ما دفعهم إلى الالتفاف حول قرمط، وكوَّنوا لاحقاً الحركة القرمطية، وعلى ذلك يمكن القول أن الحركة القرمطية بدأت حركة سياسية إسماعيلية، وليست عقيدة دينية[1].

والحقيقة أن الحركة القرمطية التي انطلقت من سواد الكوفة في جوٍّ سياسي، واقتصادي واجتماعي مضطرب، وجدت في العراق في شخص حمدان بن الأشعث قرمط، زعيماً نظَّم دعوتها على ضوء الواقع، كما وجدت في عبدان مفكراً قديراً، وجَّه مبادئها، ووضع لها منهاجاً فكرياً يناسب بيئتها الجديدة[2].

وهناك شواهد تُثبت صحة ارتباط القرامطة بالإسماعيلية، باعتبار الفاطميين إسماعيليين، نذكر منها:

- رسالة المعز الفاطمي في عام (٣٦١هـ/ ٩٧٢م) إلى الحسن بن أحمد الملقب بالأعصم، وهو أحد زعماء قرامطة البحرين[3].

- اتصال الحسين بن زكرويه القرمطي بعبيد الله المهدي عندما كان هذا

---

(١) تامر، م.س: ص١٣٣. (٢) الدوري، م.س: ص٢٤.

(٣) المقريزي: **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ذكر طرف من أخبار القرامطة، تحقيق: سهيل زكار في الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ص٥٦٧ ـ ٥٧٨.

الأخير في الرملة بفلسطين في طريقه إلى المغرب، وذلك لاسترضائه، والاعتذار إليه، عقب أحداث مهاجمة السلمية، طالباً إليه الرجوع لاستلام قيادة الدعوة وإقامة العاصمة في دمشق.

- رسائل الإمام عبيد الله بن الحسين المهدي إلى الحسين بن زكرويه وأخيه يحيى، واعتراف الحسين بن زكرويه بصلته بالإمام المهدي عندما استجوبه العباسيون بعد القبض عليه.

- الشعار الأبيض الذي اتخذه الإسماعيليون والقرامطة والفاطميون.

- المناظرة بين الخليفة العباسي المعتضد وبين أحد رؤساء القرامطة وهو أبو الفوارس الذي اعترف بمبدأ الحلول.

- التدرج في مراتب الدعوة، البلاغات السبع، وكُتب الظاهر والباطن التي لا يُطلعون أحداً عليها من غير الإسماعيليين.

- ضريبة الدينار التي يدفعها كل قرمطي للإمام، وكذلك كل إسماعيلي كدليل على صدق نيَّته، وإخلاصه للإمام.

- اتخاذ القرامطة دار هجرة لهم في قرية مهتماباذ في عام (٢٧٧هـ/ ٨٩٠م) التي أسَّسها حمدان بن الأشعث قرمط، ودار الهجرة التي اتخذها حريث ابن مسعود في أعمال الموفَّقي، ودار الهجرة التي اتخذها الإسماعيليون في اليمن التي أسَّسها ابن حوشب، ودار الهجرة التي اتخذها المهدي في المغرب (المهدية).

- تدخُّل زعماء الإسماعيلية في تعيين دعاة القرامطة.

- دعوة قرامطة العراق للمهدي في آخر ثورة لهم في العراق في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م) بزعامة كل من حريث بن مسعود، وعيسى بن موسى.

- تفسير القرامطة لمعنى الغنيمة تفسيراً لغوياً يتَّفق مع تفسير الإسماعيلية، بأن المغنم هو المكسب، وعلى الإنسان أن يُخرج خُمسه للإمام، والمعروف أن حمدان بن الأشعث قرمط كان يطلب من أتباعه أن يُقدِّموا خُمسَ ما يملكون.

- التأويل الباطني والحلول، فقد أوَّلوا آيات القرآن الظاهرة تأويلاً باطنياً أخذوه عن الفلسفة اليونانية، الأفلاطونية الحديثة، وفسَّروا الشرائع بتأويلها إلى معانٍ خفيَّة.

ـ ارتبط القرامطة بالدعوة الإسماعيلية، عقدياً، وكانوا على صلة وثيقة معها، وكان حمدان بن الأشعث قرمط يُمثِّل هذه الصلة، وهو الذي وضع الدعوة موضع التنفيذ بخروجه إلى الشام[1].

إن الحركة القرمطية ذات أصول إسماعيلية من حيث العقيدة الدينية والفكر، وتختلف عنها من حيث المبادىء السياسية والممارسة العملية التي اتبعتها في تطبيق فكرها، ولئن كان قادة القرامطة يأتمرون أحياناً ببعض أوامر الإسماعيلية، فإن ذلك يعود لإيمانهم بالمذهب الإسماعيلي، وقد استخدموا هذا المذهب كغطاء ديني لتوجُّههم السياسي في جميع المناطق التي تواجدوا فيها، في حين يرى بعض المؤرخين أن الأمر لا يتعلق بالفكر أو بمذهب ديني اتخذوه واجهة وشعاراً، وإنما بالأوضاع السياسية والاجتماعية في المنطقة التي قامت فيها الحركة، وأن ما يُعطي الحركة صفتها ومضمونها، ليس المذهب الذي ترفع شعاره، وإنما الأوضاع المادية للمنطقة التي تظهر فيها، ولكن المذاهب والأفكار ما هي إلا انعكاس لتلك الأوضاع المادية[2].

ورافق الاعترافات، الشكلية، لكل من قرامطة العراق، بالإمام الإسماعيلي في السلَميَّة، أحمد بن عبد الله، والحسين الأهوازي، وقرامطة الشام بعبيد الله المهدي في الرملة أثناء ذهابه إلى المغرب، اختلافات من حيث الممارسة والتطبيق للفكر الواحد في كل منطقة من المناطق التي ساد فيها ذلك الفكر الإسماعيلي، وأن عقيدة القرامطة الدينية من حيث إيمانهم بمحمد ابن إسماعيل، وقولهم بالتأويل والحلول، واتِّباعهم التدرج في الدعوة، واتخاذهم اللون الأبيض شعاراً، وهو شعار الإسماعيلية؛ يؤكد صلتهم بالإسماعيلية، وتجاوزت أفكار القرامطة الناحيتين الدينية والأدبية، كالإسماعيلية، التي اهتمت بالناحية السياسية والاجتماعية لتدخل في إطار الاهتمام السياسي وقد طالبت بالسلطة السياسية، وبتطبيق مبادئ الحق والعدل المرتبط بالفكر الفلسفي والثقافة النظرية العامة[3].

(١) انظر: طراد، طادروس: **الحركة القرمطية في العراق والشام والبحرين، وأهميتها التاريخية**، دار عشتروت، دمشق، ٢٠٠٢م: ص٩٧، ٩٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٩٩ ـ ١٠٠. (٣) المرجع نفسه.

ومهما يكن من تباين آراء المؤرِّخين وأصحاب الفِرق في أصول الحركة القرمطية، فلا شك بأنها وليدة الإسماعيلية، فالداعي الإسماعيلي الحسين الأهوازي قدم إلى سواد الكوفة لنشر الدعوة الإسماعيلية، وعندما اعتنق حمدان بن الأشعث قرمط الدعوة أضحى داعياً إسماعيلياً يدعو إلى الإمام محمد بن إسماعيل، وكذلك عبدان الذي درس العقائد الإسماعيلية في السلمية، وأضحى فيلسوف الدعوة، وأما ما حدث لاحقاً من اختلافات في العقيدة، وممارسات في تطبيق مسيرتها؛ فكان نتيجة ظروف فرضتها مطالب مادية، وسلوك بعض زعماء الدعوة، بالإضافة إلى ظروف سياسية، وتقاليد موروثة، مثل الانتساب القبلي، واختلاف مذاهب من انضمَّ إلى الدعوة[1].

تعريف القرمطية

القرمطية: حركة دينية ـ سياسية، اتخذت من الأوضاع الاجتماعية السيئة للفئات العاملة ذريعة للخروج على الدولة، ترعرعت في كنف الدعوة الإسماعيلية، ودُعيت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها حمدان بن الأشعث الملقَّب بقرمط، ونشر دعاتها مبادئها في وسط الفلاحين والصُّنّاع والعبيد لاستقطابهم، واتبعت تنظيماً سرّيّاً باطنياً، وتعاليمها مزيج من العقائد الإسماعيلية والمجوسية، والفلسفة اليونانية، وتذهب إلى أن تفسير القرآن والسُّنَّة غامض؛ لأنَّه محلُّ خفاء، لا يُدرَك إلا بالتأويل، وهنا يأتي دور الإمام المستور في التأويل الذي يجب أن يخضع له الأتباع والمؤمنون خضوعاً مطلقاً، واتخذوا موضعاً في الكوفة مقرّاً، سمّوه دار الهجرة، واعتقدوا بأن كل شيء في الحياة ملك للجميع، غير أن ممارساتهم تخالف ذلك.

ويذهب القرامطة أيضاً إلى أن عقيدتهم المشاعية مستمدة من القرآن والسُّنَّة، وأصول الإسلام الاجتماعية والاقتصادية والمادية والروحية.

لم يُسمِّ القرامطة أنفسهم بهذا الاسم الذي عُرفوا به، بل كانوا يسمّون أنفسهم «المؤمنون المنصورون بالله والناصرون لدينه والمصلحون في الأرض»، وقد أطلقها عليهم غيرهم ممن لم يكن من نحلتهم، وكان ذلك في عهد الإمام

(١) طراد، م.س: ص١٣٥.

أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، المتوفىٰ ببلدة مصياف في سورية في عام (٢٦٥هـ/ ٨٧٨ ـ ٨٧٩م)، ويبدو أن هذه التسمية هي غطاء لاستقطاب الأتباع؛ لأن عقيدتهم الباطنية القائمة على التأويل، وآراءهم الاجتماعية والاقتصادية، بعيدة عن تعاليم الإسلام.

لقد وضعت الحركة القرمطية لنفسها مخططاً مرسوماً ومبرمجاً، يتفق مع نظريتها وعقيدتها الباطنية، واستقطبت المستضعفين، والمضطهدين والفئات الفقيرة: فلاحين، عبيد، مُعدمين، صغار الكسبة، وسائر العاملين في سواد الكوفة والحرفيين، وغيرهم من الفقراء من سكان المدن والقرى في منطقة واسعة بين البصرة والكوفة في العراق، وفي منطقة البحرين، وبعض مناطق بلاد الشام، ونواحي اليمن في جنوبي الجزيرة العربية، وهيَّأت الأذهان لتقبل التغيير الفكري والاجتماعي والاقتصادي.

الفصل الرابع

طبيعة العصر

قامت الحركة القرمطية في العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦م)، وهي حركة انفصالية خارجة على الخلافة العباسية، ولما كان للبيئة أثر كبير في نشوء وقيام الحركات الانفصالية، فلا بدَّ من أن نتعرَّض بالدراسة لطبيعة عصر ظاهرة الانفصال.

الأوضاع السياسية لطبيعة العصر

انتقلت دولة الخلافة العباسية في العصر المشار إليه من الوحدة التي سادت في العصر العباسي الأول إلى التجزأة، وقامت دول انفصالية مستقلَّة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي، ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي (الأتراك والبويهيون) تمكَّنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت نفوذهم، ما أدَّى إلى تحجيم دورهم الفاعل، وفقدوا الاحترام الذي يتمتع به أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول.

لجأ الخلفاء تجاه هذا الواقع إلى اتِّباع سياسة ترتكز على التجزأة، وقد نتج عنها ظاهرتان متعارضتان، ظاهرة تسعى إلى الإبقاء على الوحدة، وظاهرة تعمل على الانفصال الإقليمي مستغلَّة أوضاع الشعوب الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة لتحقيق انفصالها، وانتهى الأمر إلى انتصار النزعة الانفصالية التي مهَّدت لقيام الدول الانفصالية.

وكان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغليب نزعة الانفصال، فقد عمد خلفاء بني العباس، في عهد تصاعد نفوذ الأتراك، إلى تعيين قادتهم حكاماً على المناطق والأقاليم، وأهملوا في الوقت نفسه مراقبتهم ومحاسبتهم، وبحكم الفوضى السائدة في مركز الخلافة ببغداد عمد هؤلاء إلى تعيين نوّاب

عنهم لإدارة تلك المناطق والأقاليم باسمهم، فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة يشاركون في رسم السياسة العليا للدولة.

ومن الطبيعي في هذا الوضع الشاذّ أن يسعى النواب إلى اقتناء المال لإرضاء الخلفاء والقادة وحتى أنفسهم، فعمدوا إلى زيادة الضرائب، واشتطّوا في جبايتها، حتى وقع الظلم على الناس، فراحوا يترقبون من يرفع هذا الظلم عن كاهلهم، حتى إذا وُجد الرجل القوي في إحدى الولايات، استغلَّ الأوضاع السيئة ضارباً على وتر الحالة الاقتصادية والاجتماعية، وهذا ما فعله مؤسِّسو الحركة القرمطية.

كانت ولايات الدولة قبل قيام الحركة القرمطية، لا تزال تحت إدارة الخلفاء المباشرة، أو تحت إدارة ولاة مخلصين لهم، وتغيَّر عقب ذلك كل شيء، إذ فقدت فكرة جمع الولايات تحت قيادة سياسية واحدة أهميتها، وحلَّت محلَّها فكرة تحقيق المصالح الإقليمية للشعوب المختلفة التي انضوت تحت لواء الخلافة، بحيث يتلمَّس كل شعب شخصيته العنصرية الشعوبية، ويحاول أن يُنمِّيها، وأن يرتفع إلى مستوى الانفصال، حتى جاء وقت حكمت فيه كل عنصرية نفسها بنفسها، وقد شجَّعت بعض الأطراف الداخلية هذا التوجه الشعوبي، مثل المعارضة العلوية والخوارج، ووقفت الخلافة العباسية عاجزة عن مقاومة هذا التوجه الانفصالي، فاعترفت بالأمر الواقع.

وسبق ظهور الحركة القرمطية انتشار تعابير سياسية وفكرية تؤشِّر إلى مصالح فئة أو فئات اجتماعية، على شكل خروج على الدولة أو حركات انفصالية واستقلالية، ساعية إلى حكم انفصالي جزئي أو كلي، ومناوأة الخلافة، وعلى الرغم من أنه كان يجري القضاء على هذه الحركات، إلا أنها كانت تتجدَّد بسرعة وتزداد تنوّعاً وتعقيداً، وتُسيطر على عدد متزايد من النواحي والأقاليم، وتقيم دولاً انفصالية تابعة اسمياً إلى الخلافة العباسية، وتتمتع باستقلال ذاتي، نذكر منها: الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٧٢م) التي قامت في خراسان على يد طاهر بن الحسين، والدولة الصفّارية (٢٥٤ ـ ٢٩٨هـ/ ٨٦٧ ـ ٩١١م) التي قامت في الجزء الجنوبي من إيران على يد يعقوب بن الليث الصفّار، والدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩م) التي قامت في بلاد

ما وراء النهر على يد نوح وأحمد ويحيى وإلياس بن أسد الساماني، والدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) على يد أحمد بن طولون، والدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) في مصر أيضاً على يد محمد بن طغج بن جف.

تأثير بيئة الكوفة على نشوء الحركة القرمطية

تقع الكوفة في أرض بابل في العراق، ابتُدئ في تمصيرها في أيام عمر ابن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) بين عامي (١٨ و١٩هـ)، وهي على طريق الحج، وتلتقي عندها القوافل القادمة من الصحراء، لذلك شكّلت محطة تجارية مهمة، وكان فيها مركزان تجاريان:

الأول: هو دار الرزق أو مدينة الرزق، تُجمع فيها متاع المقاتلة، ثم أضحت داراً تجارية، وقد أدَّت دوراً مهماً في الكوفة أثناء اندلاع الفتن والاضطرابات، وكان فيها محكمة القضاء يجلس فيها المحتسب[١].

الثاني: هو الكنّاسة، وهو مركز تجاري يقع عند المدخل الغربي للمدينة، تركَّزت فيه النشاطات التجارية، وتقع في إحدى نواحيه أسواق البراذين، حيث تجري المعاملات على الماشية، واكتراء الرقيق من قِبل النخّاسين[٢].

واشتملت أسواق الكوفة على الصيارفة والدائنين، وفيها دكاك[٣] العبيد، ومحلات المراهنين على الحيوانات العاملة، وكانت مركزاً للصفقات المربحة، ويمتلك الدائنون ناصيتها[٤].

إن الكوفة وسوادها بيئة زراعية ـ صناعية، ويبدو التباين الاقتصادي والتمايز الاجتماعي فيها واضحين، الفلاحون فيها أُجراء تحت نفوذ الملاّكين الكبار، وهم محرومون حتى من ممارسة حرّيتهم، ويهرع الناس إلى ممارسة العمل الزراعي؛ لأنَّه يدرُّ عليهم أرباحاً ضخمة.

كانت أراضي السواد في البداية، أراضٍ خراجية، أي مُلكاً مشتركاً

(١) البراقي: **تاريخ النجف والكوفة**، النجف، العراق، ١٩٦٠م: ص١٤٥.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) دكاك جمع دكَّة، بناء يُسطَّح أعلاه للجلوس عليه.
(٤) الدوري، م.س: ص١٣٧.

للمسلمين، وبمثابة وقف لهم، ويدفع المزارعون الخراج إيجاراً للأراضي التي يزرعونها، ومع ذلك، قامت فيها ملكيات خاصة بالأرض، والمعروف أن إقطاع الأرض هو المدخل الرئيس للتملك الخاص، وكان تجار الكوفة هم الذين يقومون بشراء الأراضي، وضمان المواسم، والمعروف أنه كان بالقرب من البقّال الذي كان يجلس عنده حسين الأهوازي، نخل اشتراه قوم من التجار[1]، وهذا يعني أن تراكم الثروة النقدية اللازمة للشراء، وإنشاء وتطوير مشاريع الري، واستصلاح الأراضي لرفع إنتاجها؛ كانت في أيديهم.

وتضافرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، عوامل الأزمة السياسية مع عوامل خاصة بالكوفة ومرتبطة بها، مثل توقف الفتوح؛ وقد أثَّرت سلباً في تجارة الكوفة وحركة أسواقها، وزادها تأزُّماً إنشاء بغداد وسامراء، وتطوُّر أسواق البصرة، واضطراب حبل الأمن، وقد رمت بثقلها على اقتصاد الكوفة وتجارتها، وانعكست على الزراعة في السواد.

وتميَّز المجتمع الكوفي بالانقسام الاجتماعي، فكان التجار وكبار الملّاكين فيه، ينتمون بأصولهم القبلية والاجتماعية إلى خارج السواد، إلى مدينة الكوفة وغيرها من المدن، وإلى بطون قبليَّة متميزة اجتماعياً عن البطون المستضعفة الملحقة بالسواد، وكان لهذه الميزة أثرها الكبير في علاقة الفلاحين والبطون القبلية التي تتعاطى الأعمال الزراعية؛ بالملّاكين الذين يحتمون بالسلطة، إذ إنها جعلت الفلاحين ينظرون إليهم نظرتهم إلى قوى خارجية مستقلة في الوقت الذي كانت فيه فئة الفلاحين الناشئة آخذة بالتوسُّع، وهم من بقايا الأنباط، أهل العراق الأصليين، الذين استقروا في أراضيهم بعد الفتح، وبقايا الفرس في السواد كموالٍ ارتبطوا بالقبائل العربية، وقد تدنَّت مرتبتهم الاجتماعية مع تعمُّق الانقسام الاجتماعي داخل القبائل[2]، إضافة إلى البطون القبلية العربية المُستضعفة الملحقة بالسواد، وتعرَّضت تلك الفئات الثلاث لضغط مزدوج، اجتماعي من جهة، وقبلي أو شعوبي من جهة أخرى، وكان شعورهم العميق بالقهر هو وحده الكفيل بتحقيق وحدتهم كمخرج يمكن أن يرتسم أمامهم فيه طريق الخلاص.

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٢٣.

(٢) بزّون، حسن: **القرامطة بين الدين والثورة**، دار الانتشار العربي، بيروت، ١٩٩٧م: ص٤٥.

وأدَّت وحدة المصالح بين فئة الملّاكين الكبار، وانتقال المجتمع الكوفي إلى الدور التجاري؛ إلى وقوع الفئات الفقيرة من العرب والموالي في وضع مادي سيئ، في الوقت الذي كانت فيه السلطة الحاكمة مضطربة، الأمر الذي أضعف الرقابة على الفئات المذكورة، كما أن سوء الإدارة وما تبع ذلك من وقوع الظلم على الفئات الفقيرة، جعل وضع العاملين في الأرض سيئاً، ومما زاد الأوضاع تردّياً قيام حركة الزَّنج وما خلَّفته من خراب بسبب حروبها ضد السلطة الحاكمة، يضاف إلى ذلك، أن منطقة الكوفة، كانت مزدحمة ومتباينة في التوجهات الفئوية، وذلك بفعل وجود عدد قليل من الملّاكين الذين يمتلكون الأراضي الواسعة، في حين حُرم الفلاحون إلا من الجزء الزهيد من الغلال، وقد نتج عن ذلك صراع الفئتين، القلَّة الغنية، والكثرة التي لا تملك شيئاً والمُستغَلَّة من قِبل الفئات الثريَّة التي أضحت صاحبة السلطة والنفوذ.

ودفع انتشار الفلسفة اليونانية، واطّلاع زعماء الإسماعيلية، ومنهم القرامطة، على الديانات والثقافات القديمة التي حفلت بها بيئة الكوفة، والتي لا تخلو من مبادئ الغلو والتطرف؛ إلى توجيه هجماتهم ضد تعاليم الأديان، وبخاصة الدين الإسلامي، والتي عدُّوها خاطئة، ونسبوا قسماً كبيراً من مسؤولية الشقاء إلى الدين، فشجَّعوا الفلسفة وحاربوا الأديان.

ويبدو أنهم في توجُّههم هذا لم يكونوا يسعون إلا ليتخلَّصوا من تعاليم عدُّوها خاطئة، وقد فسَّروها تفسيراً باطنياً لتتناسب مع معتقدهم، ورأوا أن ما يهمُّ الناس هو رفع كابوس الذلّ والفقر والظلم عنهم، لذلك ركَّزوا على الناحية المادية في الدين، وعملوا على تأويل تعاليمه وشرائعه وتبطينه بشكل يكون مقبولاً لدى الخاصَّة، وبسبب هذا المفهوم للدين جنحوا نحو التطرف الذي أبعدهم عن تعاليم الإسلام الصحيحة.

ودفع التناقض بين كبار المُلّاك المدعومين من السلطة وبين الفلاحين الذي ظهر في المجتمع الكوفي، وعجز السلطة عن إيجاد الحلول الناجعة؛ إلى اندفاع الفلاحين والفقراء والعبيد إلى الانخراط في حركة ناشئة هي الحركة القرمطية، لا تعترف بشرعية السلطة القائمة، وتدعو إلى الاستقلال الكامل عنها، والعمل على تحطيمها من دون الاكتفاء بمعارضتها، ولا تعترف أيضاً

بملكية كبار الملّاكين والمُقطعين، بل تدعو إلى انتزاع رقاب الأرض منهم وتمليكها للفلاحين، وتكوين مجتمع تسوده الإلفة.

الواقع أن الحركة القرمطية خاطبت الفئات الاجتماعية بما يناسب وضعها وحاجاتها، وعلى الرغم من أن مبادئها الأساس وأهدافها الرئيسة هي واحدة، إلا أنها اتخذت أشكالاً لا تتناسب مع البيئات التي نشطت في المدن والقرى والقبائل، وكوّنت في سواد الكوفة كياناً مؤقّتاً، وأقامت في البحرين دولة عمّرت طويلاً.

تأثير بعض الحركات الخارجة على الدولة في نشوء الحركة القرمطية

- **تمهيد**

لا بد من أن نُفرّق في حديثنا عن الحركات الدينية والسياسية والاجتماعية بين الدول الانفصالية التي قامت في المشرق والمغرب مع اعترافها بحق العباسيين بالخلافة اسمياً على الأقل، وبين الحركات السياسية الهادفة إلى القضاء على الخلافة العباسية، وتأسيس دول جديدة تقوم على أنقاضها، كما يجب أن نميز بين هذه الأخيرة وبين الحركات الدينية - السياسية من واقع أن تلك الحركات تحتاج إلى معتقد ديني متكامل، كما تتطلب تنظيماً سياسياً مبرمجاً ومتكاملاً وديناميكية متحركة وفق ظروف الزمان والمكان، والمعروف أن الحركات المحدودة، مثل ظهور رجل معارض في بقعة محدودة، لم يكن يحتاج إلى تخطيط وتنظيم حزبي نظراً إلى محدودية المصالح والكتل الاجتماعية التي تنضوي في إطاره[1].

- **تأثير حركة الزَّنج**

أثّرت حركة الزَّنج في الحركة القرمطية من أوجه عدّة، أهمها:

- شغلت حركة الزَّنج اهتمام الخلافة العباسية بكل مؤسساتها، وأدّت إلى تفاقم واضطراب أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية، وبالتالي إضعافها، وقد ساهم اندلاع الحركة في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) واستمرارها أكثر من أربعة عشر عاماً، أي إلى عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م)؛ في زيادة تردّي أوضاع

(١) بزّون، م.س: ص٩٦ - ٩٧.

الخلافة العباسية، وتأمين الغطاء لنشوء الحركة القرمطية في العراق وتطورها، وعدم التصدّي لها في بادئ الأمر، والمعروف أن هذه الخلافة كانت منهمكة بحرب الزَّنج.

- تُعدُّ حركة الزَّنج من أوائل الحركات المعادية للسلطة في التاريخ الإسلامي، وقد وعد قائدها علي بن محمد أتباعه بتحرير العبيد من سادتهم ثم إغنائهم: «وما زال يدعو غلمان أهل البصرة، ويُقبلون إليه للخلاص من الرِّقّ والتعب، فاجتمع عنده منهم خلق كثير، فخطبهم ووعدهم أن يقودهم، ويُملّكهم الأموال، وحلف لهم أن لا يغدر بهم، ولا يخذلهم، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم، فأتاه مواليهم، وبذلوا له» الأموال الطائلة مقابل إطلاقهم، فرفض[1].

- أثّرت انتفاضة العبيد بشكل بالغ في حركة الفئات المُستضعفة والمُستغلّة، وبخاصة فلاحي السواد الذين التهبوا حماساً لانتصارات الزَّنج، حتى أنه عندما قضت الخلافة العباسية عليهم، كان فلاحو السواد على استعداد لاستلام راية العصيان، وشنِّ الحرب ضد النظام[2].

- اختلطت مطالب الزَّنج بالمطامع الشخصية لقائد الحركة الذي كان يتنقل بين البحرين والبصرة، فيُشعل عصياناً هنا وآخر هناك ليبني موقعه الخاص تجاه السلطة العباسية، لذلك يمكن أن نضع حركة الزَّنج في مكان وسط بين الحركات العلوية المحدودة والحركة القرمطية، فهي أهم من الأولى، وأقل شأناً من الثانية من حيث سياستها وعقيدتها وهيكلتها، لذا لا يمكن الحديث إلا عن تأثير نسبي لحركة الزَّنج في الحركة القرمطية.

- اجتمع حمدان بن الأشعث قرمط مع صاحب الزّنج، وتبيّن له بعد الاجتماع أنه على خلاف معه[3]، وحصل هذا اللقاء في مرحلة بناء القرامطة التنظيمي، ولم يكونوا قد تسلّحوا أو تمرّدوا، إلا أنه يبدو مما دار بينهما: «إني على مذهب وورائي مائة ألف ضارب سيف» أنهم قد بلغوا درجة متقدمة من القوة، أما الزَّنج فإنَّهم كانوا قد تمكّنوا من إيقاع الهزيمة بجيوش الخلافة،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٢٦٦. (٢) بزّون، م.س: ص١٢٢.
(٣) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٢٧.

ما دفع حمدان بن الأشعث قرمط، على قوته، أن يطلب الأمان قبل المناظرة خوفاً من بطش صاحب الزَّنج[1].

ـ أدرك القرامطة خطورة الدور الذي أدَّته حركة الزَّنج في ذلك الوقت، وأهمية قيام تحالف معها لإيقاع الهزيمة القاضية بالخلافة العباسية، وانتصار حركتهم، إلا أنهم لم يشاؤوا عقد حلف عَرَضي معها وبأيِّ ثمن، لذلك كانوا واضحين منذ البداية، فبادروا بالدعوة إلى التحالف، وحدَّدوا شروطهم بقول قرمط: «فإن اتفقنا مِلْتُ بمن معي إليك، وإن اختلفنا انصرفتُ عنك»، وهذا يعني الاتفاق على المذهب وعلى برنامج الحركة وأهدافها[2].

والواضح أن القرامطة استفادوا من النتائج السياسية والعسكرية لحركة الزَّنج، واستغلّوا الظروف الناشئة عنها بشكل يخدم حركتهم، وعملوا على تجنُّب ثغراتها التي أدَّت إلى القضاء عليها.

● تأثير حركة الخوارج

شكَّل الخوارج معارضة عنيفة ضد الحكم الأموي في الوقت الذي انتقل فيه الشيعة إلى المسالمة والتقيَّة بعد مأساة كربلاء، وتركَّزت معارضتهم ضد العصبية القريشية الحاكمة التي حوَّلت الخلافة إلى وراثة، وقد رفضوا مبدأ «الأئمة من قريش»، وقالوا باختيار الأصلح إلى أي جهة انتسب، ويبدو أن لذلك علاقة بالموقع المُهمَّش الذي احتلته القبائل غير القريشيَّة بالمقارنة مع الموقع المتقدم والقوي لقريش في الحياة السياسية.

ونشط الخوارج في العهد العباسي، في عهد الخليفة هارون الرشيد، ولكن بشكل محدود، في منطقة الجزيرة الفراتية بدءاً من عام (١٧٨هـ/ ٧٩٤م) بقيادة طريف الشاري، وبسطوا هيمنة فعلية على أرمينيا وأذربيجان، وهدَّدوا السواد في العراق، ووصلوا إلى حلوان، فتصدّى لهم الخليفة، وقد انضمَّت إليهم قبائل عربية لم تتمكن من الانخراط في المجتمع، فبقيت في البوادي والجبال الحصينة، ونزح قسم منها إلى إيران، فانضم إليهم بعض الإيرانيين، ليشكل الجميع حركة خوارجية معارضة، وتعاطفت معهم في القرن الثالث الهجري

(١) بزُّون، م.س: ص١٢٣. (٢) المرجع نفسه: ص١٢٤.

قبائل الموصل العربية للتعبير عن سخطها ضد الولاة العباسيين وسياستهم التعسفية في طلب الخراج.

لم يتمكَّن الخوارج بسبب انقسامهم المستمر، من الاستقرار وبناء كيانهم السياسي، كما لم يتمكنوا من بناء حركة سياسية ـ دينية منظمة، متكاملة التخطيط ومترابطة الحلقات[1]، واقتصر تأثيرهم على الأماكن التي تواجدوا فيها، إلا أنهم ساهموا في توعية الناس وتهيئتهم لتقبُّل الحركة القرمطية في اليمامة والبحرين عبر موقفهم الرافض والداعي إلى الثورة الدائمة ضد النظام القائم، ممهدين بذلك لتقبُّل الموقف البديل، بدليل أن خوارج اليمامة والبحرين أدّوا دوراً مهماً في تحويلهما إلى موقع رافض ضد الخلافة العباسية، وهذا ما ساعد على ظهور الحركة القرمطية وقيامها[2].

تأثير الحركات الشيعية

● تمهيد

كانت الحركات الشيعية أكثر الحركات تشعُّباً وتنوُّعاً؛ بفعل أنها تُعبِّر عن مصالح فئات شديدة التنوع من الذين حُرموا من السلطة من القريشيين، والذين غُلبوا على أمرهم من أمراء النواحي، والذين أُخضعوا من الأقوام والشعوب الأعجمية من قِبل الطبقة العربية الحاكمة، والطبقات الفقيرة من فلاحين وصُنّاع.

تدرَّجت تلك الفئات من الاحتجاج إلى الثورة السياسية الهادفة إلى الاستقلال الإقليمي، أو الثورة الاجتماعية الهادفة، إلى تحرير الفئات المُستغلَّة من الحكام والملاّكين، وعسف الولاة والجباة.

واستغلَّت الشعوبية النزعات الدينية الشرقية والتيارات الفكرية والفلسفية، فاندمجت في الحركات الشيعية، وراحت توجهها لخدمة مصالحها الهادفة إلى هدم الدين الإسلامي، وسنقصر بحثنا على حركتين شيعيتين كان لهما أثر كبير على نشأة الحركة القرمطة، هما: الحنفية والإسماعيلية.

(١) بزُّون، م.س: ص٩٨. (٢) المرجع نفسه: ص٩٩.

• الحركة الحنفية

نشأت هذه الحركة على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي قاد انتفاضة ضد الخلافة الأموية في عام (٦٦هـ/٦٨٦م). ظهر المختار في ميدان السياسة في عام (٦٤هـ/ ٦٨٤م)، واتَّصف بالطموح السياسي، وأبرز ملامحه خاصَّتان: التوجه الشيعي، ونزعة السلطة، وهو أول زعيم في الكوفة التقى مسلم ابن عقيل، واختار هذا الأخير منزله مقراً له، كما قام بدور مهم في التعبئة الشعبية فيها عشية خروج الحسين إليها، ما دفع الوالي إلى سجنه، ثم أطلقه بعد مأساة كربلاء، فذهب إلى مكة وتعاون مع ابن الزبير، ونسَّق معه ضدَّ الأمويين، ويبدو أن الرجلين لم ينسجما بفعل تعارض توجهاتهما السياسية، فغادر المختار مكة عائداً إلى الكوفة، فوصل إليها في (٢٥ رمضان ٦٤هـ/ نيسان ٦٨٤م)[١]، في ظل نشاط محموم للثأر للحسين، فأدرك أنه إذا ما أراد استقطاب الشيعة فعليه أن يقدِّم لهم إماماً يستطيع أن يُحقق لهم الإصلاح المنشود، وإذ لا تزال سمعة علي وأبنائه حيَّة في أذهان شيعة الكوفة، فقد وجد من الأصلح أن يعلن حركته باسم أحد أبناء علي، لذلك سعى وهو في مكة، إلى الحصول على تأييد علي بن الحسين ففشل، فاتصل بمحمد ابن الحنفية وحصل منه على جواب غامض، أوَّلَه على أنه موافقة من قِبله، فاستغلَّه لتحقيق أغراضه.

الواقع أن المختار لم يجد رجلاً من سلالة فاطمة الزهراء من الحسنيين والحسينيين لاختياره، فاختار محمد بن الحنفية، ويعود هذا الاختيار إلى أن الأئمة من سلالة فاطمة الزهراء، قد هادنوا الدولة الأموية، وركنوا إلى المسالمة، ما دفع الشيعة إلى الالتفاف حول الحنفية والزيدية[٢] كطريقين لإعلان حركتهم ضد الأمويين.

وعندما فَقَدَت الحنفية مبرِّر وجودها بعد تولِّي العباسيين السلطة، وزالت من الوجود، أضحت الفاطمية هي الفرقة الغالبة بين الشيعة، وقد استقطبت بقايا الحنفية.

---

(١) الطبري، م.س: جـ٥ ص٥٦٠، ٥٨٠، جـ٦ ص٨ ـ ٩.

(٢) اتباع زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ويبدو أن الحنفية قد تعرَّضت للامتهان من قِبل أبرز دعاتها، وهو المختار، الذي أنذر محمد بن الحنفية حين أراد القدوم إلى الكوفة بقوله لجنده: «أنا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة، وهي أن يُضرب بالسيف ضربة، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي»[١]، والواقع أن المختار خشي على مركزه من قدوم محمد بن الحنفية، وذهاب رئاسته وولايته.

والواضح أن نشاط الحركة الإسماعيلية القادر على استيعاب الكثير من الحركات السياسية والاجتماعية، بالإضافة إلى قصور الحركة الحنفية عن بلوغ مستوى التنظيم الذي يُمكِّنها من الصمود في وجه التطورات العاصفة؛ هما اللذان أفقداها مبرِّر وجودها، والملاحظ أن الحنفية كَنِحْلَة دينية استمرت منتشرة في الكوفة إلى جانب غيرها من النِّحل الدينية، مستفيدة من عدم وجود دعوة قادرة على الاستقطاب، قبل قدوم الحسين الأهوازي إليها، وبدء دعوته فيها.

من هنا يمكن القول بأن قرامطة الكوفة تأثَّروا بمعتقد الحنفية، بوصفها إحدى المعتقدات البارزة في الكوفة قبل قيام الدعوة الإسماعيلية، وأن البيئة التي سادت فيها الحركة القرمطية في القرن الثالث الهجري، وبخاصة في السواد، كانت لا تزال تحتوي على عناصر من المعتقد الحنفي التي استوعبته على نحو من المعتقد الإسماعيلي المتقرمط، أي أن الحنفية والإسماعيلية تعاقبا في السواد من دون أن تتعاقبا في الحركة القرمطية[٢].

• الدعوة الإسماعيلية

يتطلب البحث التاريخي عن الحركة القرمطية العودة إلى الجذور، وبفضل علاقتها المباشرة بالدعوة الإسماعيلية في بداية ظهورها على الأقل؛ لا بدَّ لنا من الإلمام بجذور تلك الدعوة، وأبدأ بيوم السقيفة متجاوزاً الدخول في أحكام الدين والشريعة الإسلامية؛ لأن الإشكال يومها كان يدور حول الإرث السياسي، ولمن يُعقد لواء القيادة، وأي قبيلة تتولى السلطة، وأي بيت يحكم، حتى اتفقت كلمة المسلمين على بيعة أبي بكر الصديق خليفة في اليوم الذي

---

(١) البغدادي، م.س: ص٣٢.

(٢) بزُون، م.س: ص١٠١ ـ ١٠٢.

توفي فيه الرسول ﷺ في (١٢ ربيع الأول ١١هـ/ ٧ حزيران ٦٣٢م)[1].

لم يحضر علي بن أبي طالب وبعض الصحابة عملية البيعة إذ كانوا منهمكين في تجهيز الرسول ﷺ.

لكن علياً لم يلبث أن بايع أبا بكر، بغضّ النظر عن المدّة التي قضاها من دون بيعة.

وتولّى عمر بن الخطاب منصب الخلافة في (جمادى الآخرة ١٣هـ/ آب ٦٣٤م) بعد وفاة أبي بكر الصديق بعهد منه، وتطوّر في أيامه المبدأ المشار إليه من قريش بعامة إلى المبشَّرين بالجنة، وكانوا عشرة، ولكن عندما توفي عمر كانوا قد أصبحوا ستة، وخلال مناقشات أعضاء الشورى الستة، تطور المبدأ، وانحصر الحكم في آل عبد مناف بن قصي، بني أمية، وبني هاشم[2].

وجرت نقلة نوعية حين بويع عثمان بن عفان خليفة في (محرم ٢٤هـ/ تشرين الثاني ٦٤٤م)، تمثَّلت باستقرار الأمر لبني أمية، ووقف بنو هاشم على رأس المعارضة[3].

وبويع علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين على إثر مقتل عثمان بن عفان في (ذي الحجة ٣٥هـ/ حزيران ٦٥٦م)، من غير إجماع، في ظروف مضطربة كانت موضوعاً لنزاع كبير[4]، وأسفر الصراع المرير بعد الفتنة الكبرى، ومعارك الحروب الأهلية (الجمل وصفّين) عن انتصار معاوية بن أبي سفيان، وتأسيس الدولة الأموية في عام (٤١هـ/ ٦٦١م)، وكان علي بن أبي طالب قد قُتل على يد الخوارج في (رمضان ٤٠هـ/ كانون الثاني ٦٦١م)[5].

وشعر أتباع علي بعد مقتله، بالحرمان واليأس والمرارة؛ لأنَّهم تخلّوا عن مساندته والدفاع عنه في الوقت المناسب، فنمت فيهم منذ ذلك الوقت، وعلى امتداد تاريخهم، عقدة ذنب عظيمة دفعتهم إلى الالتفاف حول شهيد آل البيت، غذَّتها المصائب الجديدة باستمرار، وأضفت على حركتهم لوناً خاصاً،

---

(١) الطبري، م.س: جـ٣ ص٢٠٠ ـ ٢١١.

(٢) المصدر نفسه: ص٤١٩، ٤٢٨. زكار، سهيل: **الجامع في أخبار القرامطة**، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م: جـ١ ص٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص١٩٣، ٢٢٧ ـ ٢٤٠. المرجع نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص٤١٥، ٤٢٧. (٥) المصدر نفسه: ص١٤٣.

ومنحتها قوة، وعُرفوا بالعلوية، أو بشيعة علي، ورفضوا مختلف صيغ الحكم، وأكَّدوا أن القرآن والحديث تضمَّنا النصوص الموجبة لتولّي علي، وذرِّيته من بعده، خلافة النبي ﷺ الزمنية والروحية، وأن حقَّ آل علي بالسلطة، قائم على وصية النبي ﷺ لأبيهم، وعلى شرعة الميراث، وأن الخلفاء الأمويين حين استولوا على الجانب الدنيوي (السلطة) لم يستطيعوا انتزاع الجانب الديني من الميراث النبوي، ودُعي هذا الجزء من الميراث باسم الإمامة، وأخذوا يُطلقون على زعيمهم لقب إمام، فهم أهل النص والتعيين.

ومع مرور الأيام غدت الإمامة ذات العلم الموروث، محور العمل الشيعي العلوي، والمعروف أن حركة التشيُّع العلوي، بدأت حركة عربية وإسلامية محضة، لكن ما لبث أن دخل فيها الكثير من غير العرب، وبخاصة من سكان أراضي الامبراطورية الفارسية المنهارة، وجاء هذا الدخول في كثير من المناسبات، نوعاً من أنواع المعارضة الأعجمية للعروبة والإسلام[1].

ومنذ أن تولّى معاوية بن أبي سفيان مقاليد الخلافة، نظَّم الشيعة صفوفهم ضمن حركة معادية للأمويين بقيادة الحسن بن علي بن أبي طالب، لكنَّ تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، ثم مقتل الحسين في كربلاء (١٠ محرم ٦١هـ/ ١٠ تشرين الأول ٦٨٠م)، دفع محمد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب إلى المطالبة بالإمامة.

وعلى الرغم من اختلاف الآراء حول بداية التشيُّع العلوي، إلا أن الفِرَق التي تندرج تحت اسم الشيعة، قد بدأ ظهورها بعقائدها عقب حادثة كربلاء، وتعدُّ الفرقة الكيسانية[2] أولى الفِرَق التي ظهرت في التيار العام للحركة، وكان مذهب التشيُّع قبل ذلك مطلباً سياسياً لا غير.

والتفَّ الشيعة المعتدلون حول أبناء الحسن والحسين وراحوا يعملون بحذر بما جاءت به السنَّة، في حين التفَّ المتطرفون حول محمد بن الحنفية، ومنذ ذلك الوقت، بدأت الانقسامات والانشقاقات المتنامية، وقد كادت أن تكون

---

(١) زكار، م.س: جـ١ ص٤٢.

(٢) الفرقة الكيسانية، نسبة إلى أبي عمرو كيسان، قائد الموالي خلال ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي أو إلى اسم المختار ذاته الذي ربما لُقِّب بكيسان.

متماثلة تارة، ومتناقضة طوراً، وهو أيضاً تاريخ الهزائم والرفض والتقيَّة، والاختفاء، والظهور، وانفجارات الإيمان الشديدة، والقمع العنيف[1].

وعانت فئات في حركة التشيُّع، في الوقت نفسه، من تسرُّب الكثير من الأفكار، والعقائد الغريبة إليها، ما أدَّى إلى مزيد من التمزق والانقسام، فظهرت فِرَق جديدة، تطور بعضها إلى الخروج على الدولة وآلت إلى الإخفاق والفشل والدمار، بفعل وعي الأمويين وملاحقتهم لها، والواقع أن التنكيل الأموي لم يُوجَّه ضد آل البيت الهاشمي في الأساس، بل ضد الحركات المتطرفة التي أظهرت عداء واضحاً أو باطنياً للعروبة والإسلام[2].

وضعفت الحركة الشيعية بعامَّة، بسبب الانقسامات التي نشبت بين أتباع النزعة الفاطمية الخالصة من الحسنيين والحسينيين، وبين أتباع محمد ابن الحنفية، ما أتاح للأمويين القضاء على ثورة المختار الثقفي.

الواقع أن ثورة المختار اتَّسمت بمحتواها العقائدي، فنادى بفكرة المهدي المنتظر في شخص محمد بن الحنفية الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً، فأطلق عليه لقب المهدي، وبايعه بالإمامة، كما استخدم فكرة البداء لتغيير آرائه عند الضرورة[3].

وقد عظم حجم المادة المتعلقة بالمهدي في القرن الثاني الهجري إثر نجاح الثورة العباسية، وتطورت فكرة الإمامة، وامتزجت بفكرة المهدي، وبالعقائد التي تعلَّقت بشخصية المخلِّص والفداء[4].

وبايع أتباع محمد بن الحنفية بعد وفاته في عام (٨٠هـ/ ٦٩٩م) ابنه أبا هاشم بالإمامة، وأسهموا إلى حدٍّ كبير، في تولّي بني العباس السلطة، فاستغل العباسيون الخلافات داخل صفوف الشيعة، وأقنعوا أبا هاشم بالاعتراف بحقهم في الإمامة، وذلك في عهد الخليفة الأموي سليمان ابن عبد الملك

(١) الطالبي، محمد: **الدولة الأغلبية** تعريف المنجي الصيادي، دار المغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٥م: ص٦٣٦.

(٢) زكار، م.س: جـ١ ص٤٣.

(٣) ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد: **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦: جـ٣ ص١١٨.

(٤) زكار، م.س: جـ١ ص٤٧ ـ ٤٨.

(٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م)، وأنكر جعفر الصادق هذا التنازل، وكان من رأيه أن الإمامة تسير في خط الحسين بن علي بن أبي طالب، دون أخويه الحسن ومحمد بن الحنفية، والواضح أن العباسيين وصلوا إلى السلطة عن طريق شرعية الثورة وحقِّ الميراث[1].

وتوفي أبو هاشم في عام (٩٨هـ/ ٧١٦م) من دون أن يُعقِب، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا في الشيعة الكيسانية، وعمل محمد بن علي ابن عبد الله العباسي على تحويل الحقِّ الوراثي لصالحه بوصفه أكبر القوم سنّاً من الفريقين الهاشميين، والمتكلِّم باسمهم، من دون أن ينازعه أحد أو يشكَّ في نواياه[2].

واستطاع بنو العباس إسقاط بني أمية والاستيلاء على الحكم على حساب المطالبين بالإمامة من الشيعة، وفَقَدت الكيسانية وفروعها التوجُّه الثوري، وزالوا عملياً عن مسرح الأحداث، وتحوَّل المدُّ المذهبي الشيعي إلى اتجاه آخر تمثَّل بذرّيَّة الحسين، الذين عُرفوا حتى ذلك الوقت باعتدالهم، وكانوا بقيادة جعفر الصادق، الإمام الخامس لجدِّه الحسين، في حين نحا الشيعة من ذرية الحسن منحى تصاعدياً عندما وجدوا أنفسهم، كغيرهم من الشيعة، مُبعدين عن الخلافة، وانتهت المحاولة التي قاموا بها بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ضد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) نهاية مفجعة[3]، وعزَّزت هزيمتهم صفوف الحسينيين الملتفّين حول جعفر الصادق الذي استطاع، بفضل مهارته السياسية، اتِّقاء غضب المنصور، وأبقى الحركة الشيعية في حال ترقُّب، وتأسست حوله فرقة الشيعة الإمامية، وتوفي في عام (١٤٨هـ/ ٧٦٥م).

دخلت الحركة الشيعية مع أتباع جعفر الصادق منعرجاً حاسماً في تاريخها، تمثَّل في انقسامها إلى قسمين، بفعل نظرية الحق الوراثي عند الشيعة، هما

(١) زكار، م.س: جـ١ ص٥٨.

(٢) ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م: ص١٤٣.

(٣) الطبري، م.س: جـ٧ ص٥٩٦، ٦٤٦ ـ ٦٤٧.

الإمامية الاثني عشرية[١] والإسماعيلية[٢]، وربما كان للتوجهات السياسية المغلَّفة بإطار ديني، دور في هذا الانقسام، إذ إن أتباع إسماعيل أرادوا المحافظة على مكتسباتهم السياسية نتيجة تأييدهم لإسماعيل، فساندوا ابنه محمداً، كما دخل الفرس على الخطّ السياسي مستغلّين هذا الانقسام ليوجهوا الحركة الإسماعيلية لصالحهم، وتشير أغلب المصادر إلى أن جعفر الصادق عيَّن ابنه إسماعيل خلفاً له بطريق النصّ، وهو الإمام السادس، غير أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، فحوَّلت الفرقة التي عُرفت فيما بعد بالاثني عشرية، الإمامة إلى موسى الكاظم، الابن الثاني لجعفر الصادق، وهو الإمام السابع في سلسلة الأئمة الاثني عشرية، في حين استمرت الفرقة الثانية على موقفها بالقول بإمامة إسماعيل، وتُعدُّ البداية الأول للحركة الإسماعيلية، وانقسمت هذه الحركة بدورها إلى طائفتين، أنكرت الطائفة الأولى وفاة إسماعيل في حياة أبيه، وأكَّدت أنه الإمام الحقيقي بعده، وأنه سيعود كمهدي قائم، وحجّتها في ذلك أن والده أعلن وفاته تقيَّة لحمايته، وكتم أمره خوفاً على سلامته، وعُرفت هذه الطائفة بالإسماعيلية الخالصة، والإسماعيلية الواقفة[٣]. واعتقدت الطائفة الثانية بوفاة إسماعيل في حياة أبيه، واعترفت بإمامة ابنه محمد إماماً سابعاً وترى أن جعفر الصادق عيَّنه بنفسه مكان أبيه، وحجَّتها عدم جواز نقل الإمامة من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلا بالأعقاب[٤].

ونادى الشيعة الإسماعيليون بنظرية الاستقرار والاستيداع بعد أن قام النزاع بينهم وبين الموسوية أتباع موسى الكاظم، فالإمام المستقر هو الذي يورِّث الإمامة من بعده؛ لأنها تستقر فيه، فهو إمام حقيقي، أما المستودع فيظلُّ إماماً طيلة حياته فقط، ولا يحقُّ له نقل الإمامة إلى أبنائه من بعده؛ لأنَّه إمام

(١) سمّوا بذلك لأنهم اعترفوا باثني عشر إماماً كان آخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م)، ولن يظهر إلا في صورة مهدي آخر الزمان.

(٢) نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

(٣) الشهرستاني، محمد عبد الكريم: **الملل والنحل**، تح: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م: جـ١ ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٤) عماد الدين، إدريس: **عيون الأخبار وفنون الآثار السبع**، السبع الرابع ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.

مستودع فحسب، ولا تستقر الإمامة فيه، وبناء عليه يكون موسى الكاظم ابن جعفر الصادق إماماً مستودعاً، أما أخوه إسماعيل فهو الإمام المستقر، وتنتقل الإمامة منه إلى ولده[١].

نشأت الدعوة الإسماعيلية كحركة دينية اجتماعية، فلسفية وسياسية معاً، غير أن المرحلة المبكرة من تاريخها يكتنفها الغموض، وتمتد من عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) إلى عام (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) وهو تاريخ قيام الدولة الفاطمية في إفريقية، ولعل السبب الأبرز في ذلك هو ندرة المعلومات عن التشيُّع العلوي خلال العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧م)، عندما لجأت غالبية الفِرق الشيعية إلى التقية والعمل السرّي، في بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية، تجنُّباً لغضب ونقمة العباسيين، وتميَّزت نهاية هذه المدَّة بتوقف نشاط الإمامية الاثني عشرية في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) بفعل اختفاء الإمام الثاني عشر، وتوافق هذا التاريخ مع انطلاق نشاط الدعاة الإسماعيليين الذين أضحوا يتحمَّلون، دون سواهم، مهمة إذكاء الجذوة الحسينية، وتنبَّؤوا جميعاً بظهور المهدي في القريب العاجل، ودعوا الناس إلى القتال باسمه وتحت رايته[٢].

توجَّهت الدعوة الإسماعيلية إلى فئات المجتمع كافة، لكن التجاوب كان متفاوتاً، في حين وجد الفرس فيها أسلوباً للتعبير عن كراهيتهم للعرب، وهكذا أضحت الدعوة الإسماعيلية حركة ثورية كبيرة تضم توجهات مختلفة، لعل أبرزها:

- التوجه الاجتماعي لإقامة العدالة الاجتماعية.
- التوجه الشيعي الذي شكَّلت المبادىء الشيعية هدفه الأسمى.
- التوجه العنصري الفارسي الذي أدرك مناصروه أهمية تحقيق المبادئ المزدكية[٣].

(١) انظر فيما يتعلق بنظرية الاستقرار والاستيداع: لويس، برنار في كتابه أصول الإسماعيلية.

(٢) الطالبي، م.س: ص٦٤٢ ـ ٦٤٣.

(٣) المزدكية حركة دينية فارسية ظهرت في عهد كسرى قباذ بن فيروز الساساني في أواخر القرن الخامس الميلادي على يد مزدك الذي نادى بمشاعية الجنس والمال، وعُدَّت المزدكية من العقائد الثنوية التي تقول بصراع النور والظلمة، وهي ظاهرة نجدها في العديد من المذاهب الفارسية. الشهرستاني، م.س: جـ٢ ص٥٤.

لكن جمعت هذه التوجهات غاية واحدة، هي حلم الخلافة، وقد نتج عن اختلاف الأهداف، استحالة اندماج الميول المتعددة بشكل كامل، ويفسر ذلك، السبب في تطور مراحل هذه الدعوة التي اتخذت طابعاً مختلفاً أو حتى متناقضاً، فقد نشأت عن المذهب الإسماعيلي قوّتان كبيرتان هدَّدتا دولة الخلافة العباسية، إحداهما الحركة القرمطية التي ضايقت العباسيين، وهدَّدتهم في عقر دارهم، والأخرى هي الدولة العبيدية (الفاطمية) التي انطلقت من السلمية في سورية، وقامت في بلاد المغرب ثم انتقلت إلى مصر.

- **تأثير الحركة البابكية**

البابكية من أخطر الحركات ذات المظهر الديني والهدف السياسي، التي عرفتها الدولة العباسية منذ قيامها، وتتميز بسعة انتشارها، وتنظيم دعاياتها، وبراعة قيادتها، واتصالها بغير الفرس، وشكَّلت ذروة التآمر الفارسي المسلَّح ضد السلطة العربية العباسية.

اعتنق بابك الفارسي الأصل، مبادئ الخرَّمية[1] على يد جاويدان، ولمّا توفي هذا زعمت امرأته أن روح زوجها حلَّت في بابك، وقد تقبَّل بابك هذه الفكرة، وراح يتصرَّف من خلالها[2]، ثم خلف جاويدان في زعامة الخرَّمية في

(١) الخرَّمية: كلمة مشتقة من خرَّم الفارسية، ومعناها: لذيذ، نظراً لتعاليمها الإباحية، والخرَّمية فِرق وأصناف، غير أنهم يُجمعون علىٰ القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم، ويزعمون أن الرسل كلهم علىٰ اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة، وأن الوحي لا ينقطع أبداً، وكل ذي دين مصيب عندهم وإن كان راجي ثواب وخاشي عقاب، ولا يرون تهجيئه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد ملَّتهم، وخسف مذهبهم، ويتجنبون الدماء إلا عند راية الخلاف، ويعظِّمون أمر أبي مسلم الخرساني، ويلعنون أبا جعفر المنصور علىٰ قتله، ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز؛ لأنَّه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم «فريشتكان»، ولا يتبرَّكون بشيء مثل تبرُّكهم بالخمور والأشربة، وأصل دينهم القول بالنور والظلمة، ويقول بعضهم بإباحة النساء علىٰ الرضا منهن، وإباحة كل ما يستلذُّ النفس، وينزع إليه الطبع ما لم يعد علىٰ أحد بالضرر.
المقدسي، شمس الدين أبو عبد الرحمٰن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، جـ٤ ص٣٩.

(٢) كانت الخرَّمية حين دخلها بابك تنقسم إلى قسمين، على كل قسم رئيس، وهما يتنازعان على السيادة، يُدعى الأول جاوبدان، ويُدعى الثاني عمران.

منطقة الجبال[1]، وأخذ ينمّي حركته وينظمها في محاولة لتقوية قبضته والوصول إلىٰ تحقيق غاياته السياسية والدينية.

فالبابكية إذاً، طائفة من الخرَّمية، تبع أتباعها بابك، وهذا دليل على أنهم كانوا ضدَّ سلطة العرب السياسية، وضدَّ الدين الإسلامي الذي يعتنقه هؤلاء، من هنا لا يمكننا أن ننظر إلى هذه الحركة إلا بأبعادها الدينية والعنصرية.

فمن الناحية الدينية، فقد اعتقد البابكيون بمبدأ التناسخ والرجعة وقالوا بالاشتراكية والإباحية، منها استباحة النساء على الرضا منهن، ورفضوا التكاليف الدينية، وعليه تكون الأفكار البابكية، منافية لمبادئ الدين الإسلامي[2]، وحاول البابكيون حلَّ مشكلة التفاوت في توزيع الثروة بين الملّاكين الكبار والفلاحين، عبر نزع الأراضي من أولئك وتوزيعها على هؤلاء الفلاحين، فمازيار الذي أظهر دين المحمِّرة[3] بجرجان والذي كان على صلة قوية ببابك، أمر الفلاحين بالوثوب على أرباب الضياع، وانتهاب أموالهم[4].

ومن الناحية العنصرية، فإن حركة بابك هي تعبير عن تنفيس الكراهية التي كانت تمتلئ بها نفوس أقوام من الفرس ضد الدين الإسلامي وضد العرب الذين قضوا على دولتهم، وربط بابك نفسه بأبي مسلم الخراساني، فادَّعى أنه من نسل ابنته فاطمة، ما يدلُّ على النزعة الفارسية القديمة.

اتَّسم بابك بالبراعة السياسية عندما انتهز الظروف الصعبة التي كانت تمرُّ بها الخلافة العباسية بفعل الصراع بين الأمين والمأمون، فأعلن حركته في عام (٢٠١هـ/٨٠٦م) في الأقاليم الشمالية البعيدة عن سيطرة الدولة، وكانت جبال أذربيجان وأرَّان مهد هذه الحركة، ومركزها البُذ[5].

سلك بابك سياسة حكيمة في استقطاب الأتباع، ونجح في ضمِّ أجزاء

(١) الجبال: اسم عام للبلاد المعروفة باصطلاح العجم بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرقيسين والري وما بين ذلك من البلاد والكور. الحموي، م.س: جـ٢ ص٩٩.

(٢) المقدسي، م.س: جـ٤ ص٣٠.

(٣) كان اتباع بابك الخُرَّميين يدعون بالمحمرة؛ لأنَّهم كانوا يصبغون ثيابهم بالحمرة، كما اتخذوا هذا اللون شعاراً لهم.

(٤) الطبري، م.س: جـ٩ ص٨١.

(٥) البذ: قرية بين أذربيجان وأرَّان.

أذربيجان كافَّة، وصادفت دعوته نجاحاً ملفتاً في منطقة الجبال، وهمذان، وأصفهان، وماسبذان، ومهرجان، كما دخل في دعوته جماعة من أكراد الجبل، وقسم من الديلم، وانتشرت دعوته في طبرستان وجرجان وأرمينيا وخراسان، وسائر أرض الأعاجم[1].

واستقطبت الحركة البابكية بعض الدهاقين وأمراء الفرس والسواد، فاشتركوا جميعاً في الثورة المسلَّحة ضد العباسيين، وسعىٰ بابك إلىٰ استمالة الأرمن، وتعاون مع البيزنطيين.

واستمرَّ بابك في نجاح مطَّرد بفعل غياب القوَّة العباسية المنهمكة بالنزاعات الداخلية، وإخماد الحركات المعادية في مصر وبلاد الشام والعراق، وبالحرب مع البيزنطيين، فكانت هذه الأوضاع عاملاً مساعداً في نجاحها العسكري، وكان اضطراب الوضع الداخلي في أذربيجان آنذاك؛ عاملاً آخر ساعد على الإسراع في إعلان الثورة، فقد خرج حاتم بن هرثمة بأذربيجان عندما سمع بوفاة والده هرثمة بن أعين، وراسل بابك، وهوَّن عليه أمر المسلمين[2].

واتَّبع بابك سياسة عسكرية قائمة على هدم الحصون وتخريبها حتى يُضعف دفاعات العباسيين، كما ركَّز جهوده على قطع خطوط تموينهم، ونهب قوافلهم حتى يشلَّ هجماتهم، واشتهر أتباعه الجبليين بنصب الكمائن، فكانوا يحصرون الجند العباسيين في الممرات والمضايق الجبلية، وينقضّون عليهم، ويوضح ذلك فشل الحملات العديدة التي وجهها المأمون لحربهم[3].

ونتيجة لانتصاراته المتلاحقة، أضحى بابك يشكِّل قوة خطيرة ضد الدولة العباسية، وتوفي المأمون في عام (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) وبابك في أوج قوَّته، فأوصى أخاه المعتصم قبل وفاته، بالتصدّي لهذه الطائفة[4].

---

(١) الدينوري، أبو حنيفة ابن داوود: **الأخبار الطوال**، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م: ص٢٨٠.

(٢) اليعقوبي، م.س: جـ٢ ص٤١٩.

(٣) أرسل المأمون اعتباراً من عام ٢٠٤هـ حملات عدة ضد البابكيين بقيادة أشهر قادته، أمثال: يحيى بن معاذ، وعيسى بن محمد، وعلي بن صدقة، ومحمد بن حميد الطوسي وغيرهم، إلا أنهم لم يحرزوا أي انتصار عليهم.

(٤) انظر نص الوصية عند الطبري، م.س: جـ٨ ص٦٤٨ ـ ٦٤٩.

كان المعتصم الذي خلف أخاه المأمون عند حسن ظنِّ أخيه به، فقد صعَّد حربه ضد البابكيين حتى قضى على حركتهم في عام (٢٢٣هـ/ ٨٣٨م).

عدَّ المؤرخ ابن الجوزي الحركتان البابكية والقرمطية، اسمين لحركة واحد، فسمّى القرمطية بالبابكية أتباع بابك الخرمي، وبالمحمَّرة؛ لأنَّهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك[1]، ويعني ذلك أنه أرجع القرمطية إلى أصل بابكي خُرَّمي مزدكي.

أثَّرت البابكية في نشوء الحركة القرمطية في:

الموقف من الأرض: فقد اتَّخذت المزدكية والخُرَّمية والبابكية موقفاً قاطعاً من قضية تملُّك الأرض، وأكَّدت على حقِّ الناس جميعاً في تقاسمها من دون تمييز؛ انطلاقاً من موقف عام مؤدّاه أن الامتياز في الملكية يؤدي إلى البغضاء والصراعات والحروب، واتَّخذ القرامطة موقفاً مشابهاً من هذه القضية مع بروز أكثر وضوحاً لقضية الصراع الاجتماعي، إذ رفعوا شعار «تمليك الفلاحين أملاك أصحابهم»، ويعني التشابه في المواقف أن الحركة اللاحقة أخذت من الحركة السابقة في ظروف بيئية متشابهة، والواقع أن الحركة القرمطية في السواد، استمدَّت أساسها من تطور الصراع الاجتماعي في مكان نشأتها، وبالعلاقة مع أوضاع الخلافة العباسية، مع الاعتراف بالتأثير العنيف الذي أحدثته الحركة البابكية في ذلك الوقت، وقد دفع هذا التطور، الفلاحين القرامطة إلى تنظيم شؤونهم، وبدء التحرك ضدَّ ملّاكيهم بهدف الاستقلال عن الخلافة العباسية.

الموقف من المرأة: تُعدُّ البابكية من أهم الأصول السياسية للحركة القرمطية، فقد اشتركت الحركتان في إعطاء المرأة حقَّ مشاركة الرجل في الإنتاج، وممارسة العمل السياسي، لكن البابكية حلَّلت ما حرَّمه الدين الإسلامي من نكاح الأخوات من دون الإباحة، في الوقت الذي ذهبت فيه الحركة القرمطية إلى إباحة المرأة[2].

---

(١) المنتظم: حوادث سنة ٢٧٨هـ تحقيق: سهيل زكار، **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س جـ٢ ص٣٨٨.

(٢) العزيز، حسين قاسم: **البابكية**، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م ص٢٠٠ ـ ٢٠٢.

الواضح أن البابكية عبر التغيرات التي أحدثتها، والنموذج القائم على القوة الذي حقَّقته؛ قد أثَّرت تأثيراً مباشراً في الحركة القرمطية بعامَّة، وفي قرامطة العراق بخاصَّة، لذلك يمكن أن نعدَّها من الأصول السياسية بين المعتقد الديني البابكي والمعتقد القرمطي[1].

---

(١) بزُّون، م.س: ص١٢٠.

الفصل الخامس

العلاقات السياسية لقرامطة العراق والشام

علاقات قرامطة العراق السياسية

قيام الحركة القرمطية في سواد الكوفة

تجري الرواية التي تؤسِّس لقيام الحركة القرمطية في سواد الكوفة أن رجلاً هو الحسين الأهوازي قدم من منطقة الأهواز بخوزستان بإيران إلى هذه المنطقة، وكان من دعاة الإمام الإسماعيلي أحمد بن عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، أو أنه هو الإمام أحمد نفسه تخفَّى تحسُّباً من ملاحقة العباسيين، وكان هذا الداعي يُكثر من الصلاة، حتى أنه كان يُصلِّي خمسين صلاة في اليوم والليلة، وعندما انتشر خبره بين الناس، أعلمهم بأنه يدعو إلى إمام من آل بيت النبي، وراح يُفصِّل لهم مبادئه، وأفكاره الدينية، فالتفَّ الناس حوله، ومن بينهم حمدان بن الأشعث قرمط الذي آواه في منزله، ولما اطمأن إليه شرح له برنامج إنقاذ أهل هذه القرية، وأفهمه بأنه مأمور من الله، وأنه رُفع إليه جراب فيه علم وسرٌّ من أسرار الله، فرغب حمدان في معرفة هذا السرِّ، فناشده بأن يُعلِّمه شيئاً من علمه، فاشترط الأهوازي أن يأخذ عليه عهداً، فكان حمدان بذلك أول من انتسب إلى الحركة، ورعى ولادتها في منزله.

ويبدو أن المقابلة بين الرجلين لم تأخذ عامل الصدفة، كما توحي الروايات، ذلك أن حمدان بن الأشعث قرمط كان «مائلاً إلى الزهد والديانة»؛ أي: أنه كان لديه الاستعداد والمؤهلات لتحمُّل العمل الدعوي الإسماعيلي، كما أن سرعة تقبُّله لما دُعي إليه، وتسلُّمه العمل الدعوي، وقيامه بتنظيم هذا العمل؛ لدليل آخر على ذلك.

وما لبث أن «استحكمت ثقة الناس به، وثقته بحمدان بن الأشعث قرمط، وسكونه إليه، فأظهر له أمره»، وعندما اطمأن الأهوازي إلى انتشار الدعوة، قرَّر الذهاب إلى السلميَّة للالتحاق بالإمام، أو أنه توفي خلال ذلك، فخلفه حمدان بن الأشعث قرمط في دعوته[1].

وهكذا انتقل أمر الدعوة بالسواد من الحسين الأهوازي إلى حمدان ابن الأشعث قرمط، وصار بذلك داعي الدعاة في السواد.

نشأت الحركة القرمطية في سواد الكوفة كما ذكرنا في عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) في عهد الخليفة العباسي المعتضد، ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن، وذلك في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلِّها بعض الحركات الباطنية، والراجح أن التوجه الاجتماعي - الاقتصادي، قد غلب على توجهها الديني، على الرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية.

برزت الحركة القرمطية على المسرح السياسي في أعقاب القضاء على حركة الزَّنج في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م). وتوجَّهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمَّت فيها الحركة المذكورة، فصادفت رواجاً كبيراً بين صفوف الأعراب الذين يتوقون إلى الغنائم، وفلاحي السواد، والفئات الفقيرة، ولكنها لم تحصل على عضد قوي من البدو والأعراب في الصحراء الغربية للعراق.

التنظيم الداخلي للحركة القرمطية

وضع الحسين الأهوازي في مقدمة دعوته في السواد مسألة الخلاص من الاستغلال والفقر والضنك، وبشَّر فلاحي السواد بأن وقت خلاصهم ونصرهم قد حان، وهو وعد من الله وسرٌّ من أسراره، وأنه بموجب هذا السرِّ أُمر بالتوجُّه إليهم والعمل على تخليصهم، وأن الموكل بهذا السرِّ هو الإمام، وأن عليهم أن يتهيؤوا لنصرته، لكنه لم يُبح لهم بالسرِّ، ولم يكشف اسم إمام دعوته إلا لخاصَّته، وظلَّ التركيز بين العامة على فكرتي الخلاص من الفقر، والإمام المهدي المنتظر،

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٢٣ ـ ٢٥. المقريزي: تحقيق: سهيل زكار جـ٢ ص٥٣٦ ـ ٥٣٧.

ولم تُحسم في أوساطهم مسألة الاعتقاد بإمامة محمد بن إسماعيل إلا بعد مدَّة[1].

وهكذا اتخذت الدعوة الإسماعيلية في السواد شكل دعوة لإمام سرّي غائب ومنتظر، ولم يكن أئمتها المستورون معروفين لدى العامة، ولدى دعاة العراق، ما جعل من اليُسر أن تكتسب الدعوة على يد عبدان طابعاً مهدوياً؛ أي: طابع الدعوة إلى إمام غائب ومنتظر، وهذا ما حدث عندما دعا إلى إمامة محمد ابن إسماعيل، أي إلى إمامة غائب توفي سنة (١٩٣هـ/ ٨٠٩م).

لقد نجح حسين الأهوازي في تنظيم الفلاحين الساخطين، ونظَّم حركتهم، وحدَّد أهدافها، وبرنامجها الثوري، ودعاهم إلى اعتناق مذهبه، وأخبرهم بأن الصلاة المفروضة في اليوم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وكان تطبيق هذا الأمر يعني إضراباً مبطَّناً وتعطيلاً للأعمال التي يزاولها أولئك المريدون، ومعظمهم من الفلاحين، وأهل الحِرف من الطبقات المستضعفة، ويبدو أن ذلك كان مقصوداً لعرقلة العمل، بالإضافة إلى مخالفته عدد الصلوات المفروضة، وهي خمس، وقد نجح مع حمدان ابن الأشعث قرمط في المحافظة على الحدِّ الضروري من وحدة الحركة، على الرغم مما اعتراها من اختلاط في المعتقدات الدينية، وقد نجح بالتالي في تحويل حركتهم إلى حركة ذات ثقل وتأثير بحيث لم تُتح للدولة العباسية التقاط أنفاسها بعد القضاء على حركة الزَّنج، وساهمت في أحداث الصراع مع تلك الدولة[2].

والواضح أنه لم يكن للحسين الأهوازي غاية غير تلك المساهمة، فقد حرَّض على الخروج على الدولة قبل أن يدعو إلى الإمامة، وقد تقبَّل القرامطة دعوته بشغف، كما تقبَّلوا دعوته الدينية بالقدر الذي اختزنت فيها الدعوة إلى الخروج.

ودخلت الدعوة في ظلِّ قيادة حمدان بن الأشعث قرمط مرحلة جديدة، فقد تضاعف عدد الذين آمنوا بدعوته والتحقوا بها، وذلك بفعل قوة الدعاة الذين بثَّهم في أراضي السواد، أمثال: جلندي الرازي، وعكرمة البابلي، وإسحاق البوراني، ومهرويه بن زكرويه السلماني، وعبدان الأهوازي وهو من أبرز

(١) بزُّون، م.س: ص١٣٤.

(٢) المرجع نفسه: ص١٣٧ ـ ١٣٨.

الدعاة وأنشطهم، وأكثرهم علماً، وقد ربطته بحمدان بن الأشعث قرمط رابطة المصاهرة[١].

ونظَّم حمدان بن الأشعث قرمط المؤمنين بدعوته اجتماعياً واقتصادياً بشكل تدريجي، ففرض على كل واحد من الرجال والنساء والصبيان دفع مبلغ درهم، ودعا ذلك باسم «الفطرة»، ثم فرض على البالغين من الرجال والنساء مبلغ دينار، ودعا ذلك باسم «الهجرة»، فتقبَّل أتباعه ذلك، وسارعوا إلى دفع ما فرضه عليهم «وتعاونوا عليه حتى أن من كان فقيراً أسعفوه»، ثم فرض عليهم سبعة دنانير، ودعا ذلك باسم «البلغة»، وفرض على كل واحد بعد ذلك خُمس دخله، ثم بادر إلى اتخاذ خطوة خطيرة وجديدة من نوعها، وتمثَّل بإلغاء الملكية الخاصة للمال، وأحلَّ محلَّها المُلكية الجماعية العامة، ودعا ذلك باسم «الإلفة»، وهذا يعني، أنهم كانوا يجمعون أموالهم في موضع واحد، ثم يكونون فيه أسرة واحدة، لا يُفضَّل أحد من أصحابه على صاحبه، ولا أخيه في ملك يملكه[٢].

الواقع أن هذا الإجراء كان الأول من نوعه في تاريخ المسلمين، وكان حمدان بن الأشعث قرمط يُدرك مخاطره، وردّات الفعل ضدَّه، إسماعيلياً وعباسياً، ذلك أن الدعاة قبله كانوا يجمعون الأموال من أتباعهم، ويُرسلونها إلى الإمام، أما الآن فإنها تُصرف في سبيل هؤلاء الأتباع.

ورتَّب حمدان بن الأشعث قرمط الدعوة على المبدأ السباعي الفلكي، وجعل الترتيب الحزبي لدعوته وفق منهاج سياسي ـ عقدي صنَّفه له صهره عبدان، وسمّاه البلاغات السبعة: خصَّص البلاغ الأول للعامة، والثاني لفوق هؤلاء قليلاً، والثالث لمن دخل في المذهب مدة سنة، والرابع لمن دخل في الدعوة مدَّة سنتين، والخامس لمن دخل في الدعوة لثلاث سنوات، والسادس لمن دخل في الدعوة أربع سنوات، والبلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر، ويتضمن أسرار المذهب وحقائقه الأساس[٣].

بدأ حمدان بن الأشعث قرمط حياته الدعوية زاهداً، متقشِّفاً، يداوم على

---

(١) زكار: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س: جـ١ ص١٣٠.

(٢) النويري، م.س: جـ٢٥ ص١١٤ ـ ١١٥.

(٣) ابن النديم، م.س: ص٢٤٠.

الصلاة والعبادة، ثم دعا أتباعه إلى دفع اشتراكات لتغطية مصاريف إدارة الحركة التي أسَّسها، ثم شكَّل تنظيماً اختار بموجبه اثني عشر نقيباً، وأمرهم بدعوة الناس إلى دعوته، وقال لهم: «أنتم كحواريِّ عيسى بن مريم»[١]، فانتشروا في مناطق حدَّدها لهم، وكانوا على مرتبتين:

الأولى: المستجيبة، وينبغي أن يكون صاحبها قادراً على التأثير واستقطاب الناس.

الثانية: المكسرة[٢]، وهي مرحلة تلي الأولى، يُظهر فيها النقيب مقدرته في الدعوة، بمعنى أن لديه قدرة على مواجهة الخصوم وتفنيد حججهم.

وقسَّم حمدان بن الأشعث قرمط مراحل اختيار الأنصار والمريدين، إلى الحركة، إلى سبع مراحل[٣] هي:

١ ـ التفرُّس: وهي استخدام الدقَّة في اختيار المرشحين للدخول في الدعوة من حيث الطبع والميول والأخلاق والعقيدة الدينية الأصلية، ومراعاة ذلك في نشاط الدعاة واستخدام الذكاء والخبرة في التنظيم، وانتقاء الأشخاص بالتقرب منهم، وادِّعاء الداعي أنه على مذهبهم، ومن شرط الداعي إلى مذهب الباطنية ومنه المذهب القرمطي؛ أن يكون عارفاً بالوجوه التي تُدعى بها الأصناف، إذ لكل صنف من الناس وجه يُدعى منه[٤].

وينقسم الذين يُروَّج فيهم مذهب الباطنية إلى أصناف، منهم:

ـ العامة الذين قلَّت بصائرهم بأصول العلم والنظر؛ كالنبط والأكراد وأولاد المجوس.

ـ الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب، ويتمنّون عودة المُلك إلى العجم.

---

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٢٤.

(٢) المكسر: لقب رجل، والمكاسرة: جمع مكسر، وهو الرجل ذو الخبرة المحمودة. ابن منظور، م.س: جـ٥ ص١٣٩ ـ ١٤٢.

(٣) يجعل النويري المراحل تسع: جـ٢٥ ص١١٦ ـ ١٢٩.

(٤) البغدادي، م.س: ص٢٢٥ ـ ٢٢٨.

ـ أغتام[١] بني ربيعة، من أجل غيظهم على مُضر لخروج النبي منهم[٢].

٢ ـ المؤانسة: أي أن يأنس الداعي القرمطي بالشخص المراد استقطابه إلى الحركة حتى يثق به تماماً، ولا يبقى هناك حرج من ذمِّ الحكام والقائمين على العقائد الأخرى، الموالين للدولة، ويُبيِّن له أن الخلاص لا يأتي إلا عن طريق إمام أهل البيت[٣].

٣ ـ التشكيك: يعني التشكيك التدريجي في معتقدات الشخص المراد استقطابه إلى الحركة، وتبيـان لـه أن الظلـم الاجتماعي الواقع عليه مردُّه إلى الحكام، وفساد رأيهم ومذهبهم، وما عليه إلا أن يتخلَّى عن عقيدته السابقة، ويعتنق العقيدة القرمطية، والواضح أن التشكيك يتركَّز على مذهب الدولة بالدرجة الأولى لا على الدين نفسه، بالإضافة إلى عدم البوح بالسرِّ فيما إذا أفضى الداعي إليه بذلك السِّر، فإن أقسم على الكتمان استمرَّ معه وإلا أعرض عنه[٤].

٤ ـ الربط: وهو أن يرتبط المدعو بكتمان أخبار القرامطة الذين يعرفهم، وأن يتعهد بالطاعة والارتباط بالدعوة وبالإمام وبأهل بيته، وذلك بأن يُقسم اليمين المحدَّدة لهذه الغاية في الميثاق الخاص بالدعوة[٥].

٥ ـ التدليس: يعني قولهم للغرِّ الجاهل بأصول النظر والاستدلال أن: الظواهر عذاب وباطنها فيه الرحمة[٦].

٦ ـ الخلع: أي خلع تعاليم المذهب واتِّباع المذهب القرمطي الجديد، أو خلع الظاهر واتِّباع الباطن، أو ترك التكاليف الشرعية والتخلّي عنها[٧].

٧ ـ السلخ: وهو انسلاخ المدعو عن مذهبه السابق، وتركه نهائياً، والتقيُّد

---

(١) أغتام: جمع غُتم، وهو الشخص الذي لا يُفصح شيئاً. ابن منظور، م.س: جـ ١٢ ص٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٢) البغدادي، م.س: ص٢٢٨، ويراجع لمزيد من التفاصيل: ابن الجوزي: المنتظم جـ٢ ص٣٩٥ ـ ٣٩٧.

(٣) الغزالي أبو حامد، **فضائح الباطنية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م: ص٣١ ـ ٣٢.

(٤) طراد، م.س: ص١٤٤.

(٥) الغزالي: م.س: ص٢٨ ـ ٢٩، ١٦٤ ـ ١٦٨. النويري، م.س: جـ٢٥، ص١١٩ ـ ١٢٠.

(٦) البغدادي، م.س: ص٢٢٨.

(٧) الغزالي: م.س: ص٣٤. طراد، م.س: ص١٤٤.

بتعاليم المذهب القرمطي الجديد والالتزام بها، فيصبح بذلك عضواً أصيلاً يتمتع بالحقوق كافَّة، وعليه الواجبات الواردة في البلاغات السبعة.

وشرح حمدان بن الأشعث قرمط كيفية الدخول في المذهب القرمطي لكل صاحب ديانة، وأوصى الدعاة بأخذ الميثاق منه، وهو العهد، ونصُّه طويل[١]، يجعل من الداعي القرمطي منافقاً، مخاتلاً ومداهناً، ويُنادي بإمامة محمد بن إسماعيل، وهو المهدي المنتظر الذي سيأتي، عند عودته من غيبته، بشريعة تُنهي ما قبلها من شرائع، وتعمُّ العالم، ويلحُّ بطريقة خفية أنه النبي السابع خاتم النبيين، وبذلك يُنهي ديمومة الشريعة المحمدية[٢].

ويُعقِّب ابن الجوزي على الميثاق بقوله: «واعلم أن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر، ومفتتحه حصر العلوم في قول الإمام المعصوم، وعزل العقول أن تكون مدركة للحقِّ لما يعترضها من الشبهات، وإن غاية مقصدهم نقض الشرائع؛ لأنَّ سبيل دعوتهم ليس متعيِّناً في واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه؛ لأن غرضهم الاستتباع، وقد ثبت عنهم أنهم يقولون بإلٰهين قديمين لا أول لواحد منهما من حيث الزمان، إلا أن أحدهما علَّة لوجود الثاني، واسم العلَّة: السابق، واسم المعلول: التالي، وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه، وقد يُسمّون الأول: عقلاً، والثاني: نفساً، والأول: تاماً، والثاني: ناقصاً، والأول لا يوصف بوجود، ولا عدم، ولا موصوف، ولا غير موصوف، فهم يؤمنون إلى النفي... ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة، وهو أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من العقل السابق بواسطة التالي قوة قدسية صافية، وأن جبريل عبارة عن العقل الفائض؛ لا أنه شخص»[٣].

وأقام حمدان بن الأشعث قرمط الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها، وكلَّفه بجمع كل ما يملكه أهل القرية من ماشية وحليٍّ ومتاع وما إليها، وبالمقابل كان على المدبِّر أن يُوفِّر الكساء للعراة، ويُنفق على

---

(١) انظر نص الميثاق عند النويري، م.س: جـ ٢٥ ص١٢٩ ـ ١٣٥.

(٢) علم الدين، م.س: ص١٥٣.

(٣) المنتظم: جـ٢ ص٣٩٣، تحقيق: سهيل زكار: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س.

سائرهم ما يكفيهم، حتى لم يبقَ فقير واحد قطُّ من المستجيبين للدعوة.

وكان كل عضو في الحركة يعمل بكثير من المثابرة والمنافسة من أجل استحقاق رتبة أرفع عن طريق المنافع التي يُقدِّمها للمجموعة، فكان النساء يُقدِّمن ثمرة غزلهن، كما كان الأولاد يدفعون أجرة حراستهم الحصاد من العصافير، ولم يعد أحد منهم يملك شيئاً سوى سيفه وسلاحه، فلما ترسَّخت هذه المؤسسة، أمر حمدان بن الأشعث قرمط دعاته بجمع النساء ذات ليلة ليختلطن بالرجال من غير تمييز، وكان ذلك في نظره منتهى الصداقة والاتحاد الأخوي، وإذ آنس من نفسه السيطرة التامة على نفوسهم، وتيقَّن من طاعتهم له، أباح لهم النهب، وكل ما شابهه من التجاوزات، وعلَّمهم أن يخلعوا نير الصلاة والصوم وسواهما من تعاليم الإسلام قائلاً لهم: إن معرفة المعلِّم والحقيقة التي أطلعهم عليها، تكفيهم مؤونة كل ذلك، وأنهم إن ثبتوا في الإيمان فلا خوف عليهم من المعصية والعقاب[1].

وعندما اطمأن حمدان بن الأشعث قرمط إلى نجاح دعوته، أخذ يُحِلُّ لاتباعه ترك الفرائض الدينية، فالصلاة أربع ركعات، ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها، والقبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة ويوم الاثنين لا يُعمل فيه شيء، وأن الصوم يومان من السنة، يوم عيد المهرجان[2]، ويوم عيد النيروز[3]، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه يجب أخذ الجزية منه[4].

لا يمكن أن نعدَّ التنظيم الذي توصل إليه حمدان بن الأشعث قرمط في السواد، دولة أو نظاماً سياسياً متميزاً ومكتملاً ولو نسبياً، فتعيين رجل مختار

---

(١) دي خويه، م.س: ص٣٥ ـ ٣٦.

(٢) كان المهرجان من أعياد الفرس القديمة، ويوافق موسم جمع المحاصيل والغلال.

(٣) النيروز أو النوروز، لفظ فارسي معرَّب، ومعناه: اليوم الجديد، وقد اتخذه الفرس عيداً، ويوافق عندهم يوم الاعتدال الربيعي، وهو رأس السنة.

(٤) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٢٥ ـ ٢٦.

في كل قرية هو تعيين داعية يمكن أن يتحوَّل إلى حاكم القرية في حال تمكُّن الدعوة من الانتصار، والتحوُّل إلى دولة، ولأن ذلك لم يحصل، فقد ظل تنظيم الدعوة في المرحلة الانتقالية التي لم يتمكَّن من تجاوزها[1].

التنظيم القرمطي للدعاة

كانت التنظيمات القرمطية في تحديد مسؤوليات القيادة، تقتصر على الرتب القيادية الرئيسة، أما المستجيبون فلم يكونوا سوى جمهور من الناس يُقسمون يمين الولاء، ويدفعون رسوم انتساب للدعوة، ويشتركون في الغزوات، فيأخذ كل واحد نصيبه من الغنائم والأسلاب، من دون أن تكون له وضعية تنظيمية مستقلة عن تركيبه الاجتماعي، وتجمُّعاته السكنية[2].

اعتمد التنظيم القرمطي للدعاة بشكل عام على الدعوة الإسماعيلية، ولكن بطريقة عشوائية لا تتقيد بخطط ومناهج خاصة بهم. كان للقرامطة داعي دعاة، وله دعاة يرأس كل داعٍ منهم جزءاً من السواد، وتُحدَّد صلاحياته وفقاً لاحتياجات الحركة وأوضاع الناس الاجتماعية والدينية[3].

وكانت الدعوة الإسماعيلية قد رُتِّبت على نحو هرمي من عشر مراتب جسمانية هي[4]:

١ ـ الناطق، وله رتبة التنزيل، وهو النبي.

٢ ـ الأساس، وله رتبة التأويل.

٣ ـ الإمام، وله رتبة الأمر.

٤ ـ الباب، وله رتبة فصل الخطاب.

٥ ـ الحجة، وله رتبة الحكم فيما كان حقاً أو باطلاً.

٦ ـ داعي البلاغ، وله رتبة الاجتماع وتعريف الميعاد.

٧ ـ الداعي المطلق، وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية.

٨ ـ الداعي المحدود، وله رتبة تعريف الحدود السفلية، والعبادة الظاهرية.

٩ ـ المأذون المطلق، وله رتبة أخذ العهود والميثاق.

---

(١) بزُّون، م.س: ص٢١٠.

(٢) المرجع نفسه: ص١٦٤.

(٣) علم الدين، م.س: ص١٦٧.

(٤) تامر، م.س: ص١٢٣.

١٠ ـ المأذون المحدود، هو المكاسر، وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة[١].

ويتمتع الإمام في التنظيم القرمطي بالصلاحية المطلقة، وهو الملهَم من الله وخليفته على الأرض، وهو القائم بالقسط، المُلهِم للناس، وله العصمة، وحقُّ التأويل، طاعته واجبة، والانقياد له واجب أيضاً. هذا التنظيم القيادي بعيد عن الشورى، ولا وجود فيه لهيئات تشريعية ولا حتى لهيئة جماعية قيادية[٢].

وبناء عليه، تكوَّنت مراتب الدعوة في سواد الكوفة كما يأتي:

- حمدان: رئيساً للدعوة في السواد.
- عبدان: أكبر دعاته، وهو داعي الدعاة.
- الدعاة رؤساء في الأقاليم «والطساسيج»[٣]، وهؤلاء هم النقباء.
- الدعاة المحدَّدون في القرى والبطون، القبلية.

ويلاحظ أن بعض هذه المراتب لا تتطابق مع خصائص وصلاحيات المراتب المنصوص عنها في كتب الدعوة الإسماعيلية، وإن ساد التطابق الشكلي بينهما[٤].

كان عبدان يختار الدعاة من وجوه القوم بما يتناسب ومكانتهم الاجتماعية، وتأثيرهم، وقدرتهم القيادية؛ فأجابه مهرويه بن زكرويه السلماني، وجلندي الرازي، وعكرمة البابلي، وإسحاق السوداني، وعطيف النيلي وغيرهم من وجوه القوم، والمعروف أن هؤلاء كانوا من أبرز القادة وأكثرهم تأثيراً في فلّاحي السواد، ودخلت في دعوته طائفة من العرب، فنصَّب فيهم دعاة، ولم يبقَ بطن من البطون المتَّصلة بسواد الكوفة إلا دخل في الدعوة من: بني عباس، وذهل، وعنزة، وتيم الله، وغيرهم من بني شيبان[٥].

وهكذا فإن شروط تعيين الدعاة، كانت تتقاطع مع التركيب الاجتماعي

(١) تحوَّلت مراتب الدعوة الإسماعيلية في العهد الفاطمي إلى القاعدة السبعية، فأضحت تتألف من: الإمام، اليد، الداعي، المأذون المطلق، المأذون المحدود، المؤمن، المستجيب.
(٢) بزُون، م.س: ص١٦٥.
(٣) الطساسيج: جمع طسج، كلمة فارسية معرَّبة معناها الناحية أو المحافظة.
(٤) بزُون، م.س: ص١٦٣.
(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، م.س: ص١٥٥ ـ ١٥٦.

القائم، ولا تلتزم التدرُّج المعرفي كما عند إخوان الصفا أو عند الإسماعيلية في مراحل العمل السرّي، وبخاصة في مرحلة تأسيس الدعوة[١].

وتُحدِّثنا المصادر[٢] عن اجتماعين للدعاة في مراحل مصيرية شهدت فيها الحركة انعطافة مهمة:

الأول: اجتماع الدعاة لبناء دار الهجرة في مرحلة نهوض الحركة، والمعروف أنهم اختاروا من سواد الكوفة في طسوج الفرات من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميات، قرية تُعرف بمهنماباد[٣].

الثاني: اجتماع الدعاة لاتخاذ قرار بقطع الدعوة للإسماعيلية، عندما عاد عبدان من سلمية وأطلع حمدان بن الأشعث قرمط على التغييرات في القيادة هناك، فجمع الدعاة وأمرهم بقطع الدعوة حنقاً من قول صاحب السلميَّة: «لا حقَّ لمحمد بن إسماعيل وأولاده ولا إمامة... ومن ثَمَّ جرى قطع الدعاة مكاتبتهم للذين كانوا بسلمية»[٤].

انفصال الحركة القرمطية عن الدعوة الإسماعيلية

عانى بيت الإمامة الإسماعيلية في مرحلة الستر العديد من المشكلات أدَّت إلى انشقاقه على نفسه، وتوضح لنا هذه العملية قضية انتساب زعيمي قرامطة السواد وقرامطة الشام إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ولا بدَّ لنا من لفت النظر في هذا المقام، إلى مسألة تغيُّر الأئمة بالوفاة أو بغير ذلك، وبالتالي التعديل في سياسة الدعوة.

قد تكون مغادرة الحسين الأهوازي السواد والذهاب إلى سلمية عائداً إلى تغيير قد حصل في توجه الدعوة الإسماعيلية أدَّى إلى القول بإمامة حاضر مستتر سيظهر في الوقت المناسب ليبني الدولة الموعودة، والمعروف أن ميمون القداح بن عبد الله الديصاني والثنوي المذهب، وفقاً لإحدى الروايات[٥]؛ كان

(١) بزُون، م.س: ص١٦٣.
(٢) المقريزي، م.س: ص١٥٨، ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه: ص١٥٨.
(٤) المصدر نفسه: ص١٦٨.
(٥) ابن النديم، م.س: ص٢٣٣. النويري، م.س جـ ٢٨ ص٤١ ـ ٤٢.
فياض، نبيل: الطائفة الإسماعيلية جسر يربط الدين بالعقل، مجلة الموسم العددان ٤٣، ٤٤ ص١٥٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

حجة للإمام عبد الله الرضي بن محمد بن إسماعيل، فتابع عمل أبيه، واستطاع أن يجمع معظم الفِرق العلوية المنقسمة على نفسها في جبهة واحدة، وضمَّ إلى جماعته كل العناصر الساخطة على العباسيين، وشكَّل منهم فئة مخلصة لإسماعيل بن جعفر الصادق، مدفوعاً بكره بالغ للعرب، ثم نقل مقرَّ الدعوة، والإمام عبد الله الرضي وابنه أحمد، إلى الأهواز بين البصرة وفارس، وعندما انتقل الإمام إلى السلَميَّة في سورية في أواخر عهد الخليفة العباسي المأمون، خشية من ملاحقة العباسيين له، ظلَّ حجته عبد الله القداح يُقيم في الأهواز تستُّراً عليه، ثم لحق به إلى السلميَّة التي أضحت مركزاً للدعوة.

برز من عائلة عبد الله القداح ثلاثة أولاد هم: أحمد وحسين وعلي، اعتمد عليهم في نشر الدعوة الإسماعيلية، وكان أحمد الملقب بأبي الشلعلع، مسؤولاً عن نشر الدعوة في العراق والأهواز، فادَّعى أنه من نسل عقيل ابن أبي طالب لاستقطاب الشيعة، وعندما مات الحسين بن عبد الله القداحي في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) وكان يرافق الإمام الحسين بن أحمد في السلَميَّة، عهد أبوه عبد الله إلىٰ ابنه أحمد برئاسة الدعوة في سلمية، ثم انتقلت إليه رئاسة الدعوة العامة بعد وفاة أبيه في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م)، وأصبح وصيّاً على ابن أخيه سعيد بن الحسين الذي تقلَّد وظيفة الحجة أو نائب الإمام، عقب وفاة عمه أحمد في عام (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، فأظهر إخلاصاً وتفانياً للمذهب الإسماعيلي، ما أكسبه ثقة الإمام المستور الذي قلَّده إمامة الإسماعيلية استيداعاً لا استقراراً، فاتخذ اسم عبد الله، وادَّعى أنه من السلالة الشيعية، وأنه المهدي، وهو عبيد الله أول الحكام الفاطميين في إفريقيا[1].

ويبدو أن مرحلة من التشكيك قد سادت بين الداعيين حمدان بن الأشعث قرمط وصهره عبدان، وبين القائمين بالدعوة في السلَمية، والمعروف أن حمدان هذا وأتباعه كانوا يتلقون التعليمات من سلمية ويُنفِّذونها بشكل دقيق، كما كان حمدان بن الأشعث قرمط يراسل القيادة في السلميَّة بشكل دوري، فلما مات من كان في وقته، وخلفه ابنه، كتب إلى حمدان بن الأشعث قرمط، فأنكر هذا منه أشياء، واستراب، فبعث بابن مليح، وهو أحد دعاته، إلى

(١) ابن النديم، م.س: ص٢٣٣.

السلَمية ليستطلع الأمر، فامتنع عليه، فأرسل عندئذٍ صهره عبدان، فنزل في دار الدعوة، وقابل صاحب الدعوة الأول، وأجرى اتصالات مع كبار الدعاة، وسألهم عن الحسين الأهوازي، فأخبروه بأنه توفي منذ سنوات، ولما دخل على الإمام وجده شاباً في مقتبل العمر، لا تنطبق أوصافه على الأوصاف التي ذكرها الحسين الأهوازي، فعرف عندئذٍ موت الإمام الذي كانا يراسلانه، فسأله عن الحجة، وعن الإمام الذي يدعو إليه، فقال الابن: «ومن الإمام؟»، فقال عبدان: «محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان»، فأنكر ذلك وقال: «لم يكن إمامي غير أبي، وأنا أقوم مقامه»، فرجع عبدان إلى حمدان بن الأشعث قرمط وأخبره بذلك، فجمع الدعاة، وأمرهم بقطع الدعوة حنقاً من قول صاحب السلَميَّة ألَّا حقَّ لمحمد بن إسماعيل في هذا الأمر، ولا إمامة، وكان حمدان بن الأشعث قرمط إنما يدعو إلى إمامة محمد بن إسماعيل[1].

ويذكر النوبختي، أن القرامطة جماعة حمدان كانوا من المباركية، ثم اختلفوا عن الدعوة الإسماعيلية بأن نادوا بأن الإمام السابع هو محمد ابن إسماعيل، وهو الإمام القائم المهدي، وهو رسول، وكوَّنوا لهم طريقة خاصة بهم، وزعموا أن محمد بن إسماعيل حيٌّ لم يَمتْ، وأنه في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي، ومعنى القائم عندهم أنه يُبعث بالرسالة ويُبشِّر بشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد[2].

فالقرامطة إذاً كانوا ينتظرون عودة محمد بن إسماعيل ليبشِّر بالشريعة الأخيرة، ولا يرون في أعمال الدعوة إلا تمهيداً لرجوعه.

يؤكد ما ذكرنا سيادة الدعوة إلى إمامة محمد بن إسماعيل بصفته مهدياً وغائباً، ورفْض القرامطة القبول بإمام حاضر سواه، وقد وصف عبدان إجابة القيادة في سلَمية عن الحجة والإمام، بعدم الوضوح أو الالتباس، أو التباين، بين وجهة نظره في إمامة محمد بن إسماعيل، ووجهة نظر من بسلمية، وطلب حسم الموضوع حتى تتحدَّد علاقة القرامطة بالمركز الإسماعيلي على نحو أكثر وضوحاً، ويدل ذلك على أن تبايناً قد حصل أثناء نشر الدعوة في السواد، كما

(١) المقريزي، م.س: ص٥٤٨. (٢) فرق الشيعة، م.س: ص٧٢.

تدل على أن انعطافة قد حدثت في الدعوة الإسماعيلية موازية لانتقالها من دور الستر إلى الدور السياسي الثوري الطامح إلى إحداث انقلاب شامل في السلطة، وتتمثَّل هذه الانعطافة بانتقال أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من الدعوة إلى إمامة محمد بن إسماعيل، إلى الدعوة إلى إمام آخر[1].

الواضح أن تغيير مضمون رسائل القيادة بسلمية، هو تعبير عن هذه الانعطافة التاريخية على المستوى السياسي والعقدي، وإن كانت الانعطافة الأولى قد بدأت حوالي عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م) عندما أخذت الحركة الإسماعيلية تُرسل دعاتها إلى الأقاليم تحضيراً للمرحلة الجديدة، ويدخل إرسال الحسين الأهوازي إلى السواد في إطارها، ولكن هل يعني ذلك أن الانعطافة على مستوى العقيدة يمكن أن تصل إلى حدِّ إنكار القيادة في السلميَّة لإمامة محمد بن إسماعيل؟ قد يكون ذلك قد وقع بالفعل وهو ما سبَّب الانفصال، أو أن من بالسلميَّة أنكر على حمدان بن الأشعث قرمط وعبدان وأتباعهما التوقف عند إمامة محمد بن إسماعيل، ورفض إمامة المنتسبين إليه والحاضرين القائمين من سلالته[2].

الراجح أن الحركة الإسماعيلية مثَّلت بين عامي (٢٣٦ ـ ٢٨٦هـ/ ٨٥٠ ـ ٨٩٩م) حركة موحَّدة تدعو إلى إمامة محمد بن إسماعيل، وتُبشِّر بمهديته، وكان حمدان بن الأشعث قرمط وغيره من كبار الدعاة المحلّيين في السواد قد حافظوا علىٰ اتصالاتهم بالقادة الإسماعيليين الذين كانوا يقيمون بسلميَّة في سورية، وأُصيبت الحركة الإسماعيلية في عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) بصدع نتيجة انشقاق رئيس وقع بعد تسلُّم عبد الله (عبيد الله) الخليفة الفاطمي الأول فيما بعد، لقيادتها بوقت قصير، فقد شعر هذا بأمان كافٍ جعله يزعم الإمامة علناً لنفسه ولأسلافه الذين كانوا قد نظموا الحركة الإسماعيلية وقادوها عملياً خلال القرن التاسع الميلادي والمتمثلين بآل القداح، وقد سارع بالطلب من حمدان بن الأشعث قرمط ومن كبار دعاة المناطق المختلفة كي يبدؤوا التبشير بالدعوة باسمه الخاص بدلاً من الاعتراف بمهدية محمد بن إسماعيل، وقد قسَّم إعلانه هذا الحركة الإسماعيلية إلى فرعين متنافسين، أحدهما، وهو الذي

(١) بزُون، م.س: ص١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢) المرجع نفسه: ص١٣٧.

تألَّف من الجماعات الإسماعيلية في اليمن ومصر وشمالي إفريقيا بشكل أساس، بقي موالياً لعبيد الله، وقَبِل زعمه في أن الإمامة كانت قد انتقلت من دون انقطاع بين أجداده، وقد اعترف ذلك الفرع الموالي بسلسلة من الأئمة المستورين في تلك المرحلة، بين جعفر الصادق وعبيد الله المهدي، واقترنت بالقادة المركزيين الذين تولّوا عملياً قيادة الحركة، ثم تتبعوا الإمامة، عقب ذلك، بين أحفاد عبيد الله الذين حكموا على أنهم الخلفاء الفاطميون. وقد رفض الدعاة الشرقيون بقيادة حمدان بن الأشعث قرمط وعبدان قبول مزاعم عبيد الله، فأوقفوا نشاطهم الدعائي لمن بسلميَّة، وتمسَّكوا بمعتقدهم الأصلي بشأن مهدية محمد بن إسماعيل، وقد انحاز أبو سعيد الجنَّابي الذي أسس حكمه في البحرين في سنة (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)؛ إلى جانب حمدان بن الأشعث قرمط، وقطع علاقاته بعبيد الله[1].

وانضمَّ إلى ذلك الفرع المنشقّ إضافة إلى الإسماعيليين في العراق والبحرين؛ الجماعات الإسماعيلية المقيمة في مناطق الجبال، وخراسان، وما وراء النهر، ومنذ ذلك التاريخ أضحىٰ مصطلح «قرامطة» يُطلق بشكل أكثر تحديداً على إسماعيلية البحرين والمناطق الأخرى للمنشقّين الذين لم يعترفوا بإمامة ومهدية عبيد الله ولا بأسلافه، بالإضافة إلى خلفائه في السلالة الفاطمية الحاكمة؛ أئمة لهم[2].

وسرعان ما راح الإسماعيليون المنشقّون يُظهرون عداءهم للإسماعيليين الفاطميين وإمامهم علناً، وأرغموا عبيد الله المهدي على مغادرة السلميَّة عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)، والانطلاق في رحلته التاريخية إلى شمالي إفريقية حيث أسَّس الدولة الفاطمية.

وفي غضون ذلك، واصل قرامطة المشرق، في العراق والبحرين وفارس ومنطقة ما وراء النهر، انتظارهم عودة محمد بن إسماعيل إلى الظهور مرَّة أخرى في صورة المهدي المنتظر.

(١) دفتري، فرهاد: **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين**، دار المدى، دمشق، ط١، ١٩٩٩م: ص٣٨ ـ ٣٩.
(٢) المرجع نفسه: ص٣٩.

بالإضافة إلى ما ذكرنا بشأن علاقة قرامطة السواد بالحركة الإسماعيلية، يمكن رصد الملاحظات الآتية:

ـ قامت حركة قرامطة السواد على أكتاف الفئات العاملة، وظهرت تحت وطأة تفاقم الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطرحت برنامجاً للخلاص الاجتماعي، لذلك امتازت عن غيرها من حركات المعارضة في ذلك الوقت، بطابعها الفئوي المحدد، ونزوعها نحو الاستقلال عن الحركات الكبرى[1].

ـ لم تكن حركة قرامطة السواد معزولة عن محيطها، فقد تفاعلت مع أكثر القوى السياسية والدينية أهمية وخطورة في ذلك الوقت، ألا وهي الحركة الإسماعيلية، وتأثَّرت بها، كما ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً أثناء نشأتها عبر الحسين الأهوازي، وعلى الرغم من ذلك فإن النزوع إلى الاستقلال ظلَّ عاملاً أساسياً للسياسة القرمطية، وكان من نتائج هذا النزوع تبنّي عقيدة مهدوية تمدُّ الحركة بالشرعية الضرورية للتمرُّد على الخلافة، كما تمدُّها بالعزم اللازم والثقة بحتمية النصر، وتحول دون تبعيتها لأي سلطة زمنية خارجة عن كيانها، وشكَّل هذا النزوع دافعاً إلى تمسُّك قرامطة السواد بهذه المهدوية، والسير نحو الاستقلال الديني، في الوقت الذي تخلَّت فيه الحركة الإسماعيلية عن مثل هذه العقيدة[2].

ـ إن الحركة القرمطية في السواد هي حركة مستقلة، قامت بينها وبين الإسماعيلية روابط مهمة، وحاولت الحركة الإسماعيلية من جانبها أن تستغل تلك الروابط لتحوِّلها إلى جزء منها، أو إلى حركة تابعة لها تتقيد بأوامرها، وتخدم سياستها وخطَّتها العامة، وقد أدَّت هذه السياسة إلى افتراقهما، وإعلان الاستقلال الكامل للدعوة في السواد، وقطع الدعوة الإسماعيلية، وقد دفع قرامطة السواد ثمن استقلالهم غالياً: انشقاقاً في القيادة، وخروجاً لزكرويه ابن مهرويه ومن معه، وتفككاً في التنظيم والمعتقد، واغتيالاً لأكبر دعاتهم عبدان، ما يسَّر تصفية حركتهم واستعادة السلطة العباسية هيمنتها على السواد[3].

(١) دفتري، م.س: ص١٣٨.
(٢) المرجع نفسه: ص١٣٩ ـ ١٤٠.
(٣) المرجع نفسه: ص١٤٠.

ـ تجاوز القرامطة سلطة الإمام الفاطمي، حيث راحوا ينتهجون نهجاً مغايراً لنهج الفاطميين، وقد وصل الخلاف بينهما إلى حدِّ المواجهة العسكرية.

ـ قامت الحركة القرمطية على مبادئ اجتماعية تخدم الفئات العاملة وقد حتَّمها الواقع التاريخي البيئوي، وعقيدة ملتزمة بمصالح تلك الفئات التي وُجدت في بيئة تختلف كلّياً عن بيئة الفاطميين في المغرب ومصر، وبقي القرامطة بسبب هذا التباين ملتزمين بالحلول الاجتماعية والاقتصادية لمشكلات الفئات الفقيرة، ويبدو أن هذا الالتزام، كان غطاء لنشر عقيدتهم الدينية التي اتصفت بالغلو والقائمة على الظاهر والباطن، والفلسفة اليونانية وتمجيد العقل، والمعروف أن للقرامطة اجتهادات عقلية تفلسف الدين وتخرجه من جوهره.

خروج قرامطة سواد العراق على الخلافة العباسية

اتَّسمت علاقة القرامطة بالخلافة العباسية بالعدائية والتصادمية، فبعد نضوج الظروف الموضوعية والداخلية للحركة؛ اندلعت الاشتباكات مع الحكم العباسي.

فمن حيث الظروف الموضوعية، فإن الخلافة العباسية كانت منهمكة بإخماد حركة الزَّنج في البصرة، التي أثَّرت سلباً على الأوضاع الاقتصادية في العراق، كما نشطت تعدّيات اللصوص على القرى والأرياف، ويعني ذلك أن ظروف الأزمة الاقتصادية والسياسية والأمنية قد هيَّأت الفرصة لقيام الانتفاضة القرمطية.

وفيما يتعلَّق بالظروف الداخلية، فقد تطوَّر البناء التنظيمي للحركة من حيث اتِّساع صفوفها، وتحولها إلى حركة شعبية بعد أن انضمَّ إليها الأنباط وبعض بطون القبائل العربية في السواد، وتعميق ارتباط أعضائها بمركز قيادتها[1].

وهكذا، فعندما بدأت الحركة بالخروج على الدولة، كانت السلطة عاجزة عن تصفيتها ووضع حدٍّ لها، نظراً لضعفها، وكون المنتمين إليها من الفلاحين الذين «يخرب السواد من دونهم».

(١) بزُّون، م.س: ص١٨١.

وحاول حمدان بن الأشعث قرمط تقوية موقف حركته بالتحالف مع حركة الزَّنج بفعل أنها أشدُّ وأهم الحركات تأثيراً في الأوضاع العامة آنذاك، وبذل جهوداً حثيثة كي يُصاغ هذا التحالف على أسس سليمة تؤدي إلى ضمان انتصار حركته وتحقيق أهدافها، إلا أنه لم ينجح بسبب الموقف السلبي لقائد الزَّنج.

أعدَّ حمدان بن الأشعث قرمط المقاتلين للقيام بالانتفاضة على الدولة العباسية، وطلب منهم شراء السلاح وإعداده والتهيّؤ لليوم الموعود، وعندما نضجت الظروف الموضوعية والداخلية، وشعر بقوته، أعلن الخروج، وحوَّل حركته إلى حركة انتفاضة تستطيع تجنيد آلاف المقاتلين، وتُحدث تغييراً في الخارطة السياسية والتوازنات العسكرية للقوى المتصارعة في العراق وخارجه.

وكان هذا التحول من العمل السرّي إلى العمل العلني، ومن التنظيم المحدود العضوية إلى التنظيم الشعبي، أثره في الوضع التنظيمي من واقع تحوُّل التنظيم الأول إلى تنظيم دعاة قادر على قيادة جموع الأتباع من دون حصر أو تحديد عضويتهم في التنظيم، ويعني ذلك تنظيم نخبة تشغل مركز الزعامة المقرر في التشكيلات الاجتماعية، وتكون قادرة على التواصل والارتباط بجموع العامة وقيادتها انطلاقاً من موقعها المزدوج في التركيب التقليدي كما في التركيب التنظيمي[1].

لا تشير المصادر إلى نشاط عسكري كبير لحمدان بن الأشعث قرمط وأتباعه في سواد الكوفة، إنما هي انتفاضات صغيرة ومحدودة قمعتها الدولة بسهولة ويُسر.

ففي عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، قامت انتفاضة صغيرة قمعتها السلطة، وقبضت على جماعة من القرامطة، فأقرُّوا بأن أبا هاشم الكاتب كان يكاتبهم، وأنه أحد رؤسائهم، فقُبض عليه وحبس في المطامير[2].

وانتفض القرامطة من أهل جنبلاء بين واسط والبصرة في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) ضدَّ واليهم بدر غلام أحمد بن الطائي، فقتلوا من المسلمين جمعاً

---

(١) بزُّون، م.س: ص١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٦٤. والمطامير حُفَر تُحفر في الأرض.

فيهم النساء والصبيان، وأحرقوا المنازل[1]. أثار هذا العمل حفيظة الخليفة، فأمر قائده بدراً بمهاجمتهم، فباغتهم بنواحي روز ميسان بين البصرة وواسط، وقتل منهم «مقتلة عظيمة»، ثم ترك المنطقة خوفاً من السواد أن يخرب، إذ كانوا فلّاحيه وعمّاله، لكنه لاحق رؤساءهم وقتل من ظفر به منهم، وكان الخليفة قد أمدَّه بقوة عسكرية من جنده وغلمانه[2].

وانتشر القرامطة في عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م) في سواد الكوفة برئاسة أبي الفوارس، فوجَّه إليهم الخليفة، شبل الديلمي، غلام أحمد بن الطائي، على رأس قوة عسكرية فأخضعهم وقبض على عدد منهم، وأسر أبا الفوارس فاقتيد إلى الخليفة، فتناظر معه مناظرة مشهورة ثم قتله وصلبه[3].

ركن قرامطة العراق إلى الهدوء مدَّة عشرين عاماً تقريباً بعد قمع الانتفاضات التي قاموا بها، وأخذوا في غضون ذلك يتحيَّنون الفرصة للتحرك ضد العباسيين، وقد تحقَّقت عندما قام أبو طاهر الجنَّابي بزحفه من البحرين إلى العراق في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)، فاستغل قرامطة العراق ذلك وتحرَّكوا في جنوبي العراق، وساندهم قوم من الأعراب من بني رفاعة وذهل وعبس، وكان عليهم رؤساء منهم عيسى بن موسى ابن أخت عبدان، وحريث بن مسعود، «فأوقعوا وقائع عظيمة، وأخذوا الجزية ممن خالفهم على رسوم أحدثوها»[4].

وتمكَّن عيسى بن موسى من احتلال قسم من سور الكوفة، ونزل في ظاهرها في عين التمر، فجبى الخراج، وطرد عمال الخليفة، ووجَّه الدعاة، فهاجمته جيوش الخليفة بقيادة صافي البصري، فقبضت عليه، وسُجن في بغداد، ثم فرَّ منها، واشتغل في تحريف الكتب ونسبها إلى خاله عبدان ليوهم الناس بها، وليؤكد عبقرية عبدان[5].

وقام الحريث بن مسعود في الوقت نفسه بتحرُّك كبير في منطقة سواد واسط، وهو من أنصار حمدان بن الأشعث قرمط وعبدان، وقد رفع الأعلام

---

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٨٦.

(٤) ابن سعيد، عريب: **صلة تاريخ الطبري**، ليدن: ص١٣٧.

(٥) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٢٤ ـ ٧٢٥.

البيضاء شعاراً له ونادى بالمهدي، والتفَّ حوله أكثر من عشرة آلاف مقاتل، واستولى على أعمال الموفَّقي، وهو نهر على اسم الموفَّق، وبنى دار هجرة في الموفقية، وضايق العباسيين، فأرسل إليه الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م) هارون بن غريب، فاصطدم به وهزمه، وأسره مع مئتين من أتباعه، فصُلبوا وقُتلوا[1].

انتهى أمر القرامطة في العراق بعد هذه الهزيمة، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وكفى الله الناس شرَّهم.

نهاية قائدي الحركة في العراق

لا ندري ما الذي حدث لحمدان بن الأشعث قرمط، فقد اختفى في ظروف غامضة، والروايات في ذلك مختلفة، ويبدو أنه خاطر بمصيره ومصير حركته عندما انفصل عن القيادة في السلَمية واتخذ قرار مواجهة الخلافة العباسية بمعزل عنها، وهي التي لم ترضَ عن تصرُّفه، فألَّبت عليه آل زكرويه، فأزاحوه عن المسرح بشكل غامض، ومن الممكن أن يكون قد توفي بسبب كبر سنِّه، أو أنه قُتل في بغداد، أو أنه رحل إلى بلاد الشام ومات فيها، وذلك في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) أما صهره عبدان، فقد قتله آل زكرويه بدفع من قادة الحركة الإسماعيلية في السلميَّة، وقد تذرَّع زكرويه بانشقاق حمدان عن السلَميَّة ونفَّذ مؤامراته التي أودت بحياته[2].

وعلى هذا الشكل كانت نهاية قائدي قرامطة السواد، ويُعدَّان رائدا الحركة القرمطية ومؤسساها.

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٢٤ - ٧٢٥.

(٢) المقريزي، م.س: ص٥٤٩. عليان، محمد عبد الفتاح: **قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين**، القاهرة، ١٩٧٠: ص٨٣.

علاقات قرامطة الشام السياسية

الأوضاع السياسية في بلاد الشام عشية قيام الحركة القرمطية

لا بدَّ في بداية الحديث عن الحركة القرمطية في بلاد الشام من التعرُّف على أوضاع هذه البلاد السياسية التي ارتبط تاريخها بالعرب منذ العصر الجاهلي، فقد قامت فيها أقدم الدول العربية، وهاجرت إليها القبائل العربية قادمة من الجزيرة العربية، وأكثرها يرجع إلى أصل يمني، واشتهرت منها قبيلة كلب التي استقرت في منطقة دمشق وإلى الجنوب منها، وقد أدَّت هذه القبيلة دوراً بارزاً في العصر الأموي، وكانت السند المتين للأمويين، وفي المقابل فإن أغلبية القبائل التي هاجرت من الجزيرة العربية واستقرت في شمالي بلاد الشام هي من أصل قيسي، وأشهرها قبيلة كلاب.

وحملت تلك القبائل خلافاتها العصبية معها، وجرت بين العصبيتين اصطدامات أبرزها الصدام الذي حصل في مرج راهط إلى الشرق من دمشق في عام (٦٤هـ/ ٦٨٤م) عقب وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وانتهت المعركة بفوز اليمنيين بقيادة مروان بن الحكم القيسي، وقُتل الضحّاك بن قيس زعيم القيسيين في المعركة، وفرَّ زفر بن الحارث، وهو أحد زعمائهم، إلى الشمال وتحصَّن بقرقيسياء[1]، رافضاً الاعتراف بحكم مروان بن الحكم، ولم يتمكَّن مروان من إخضاعه.

لعل من أهم نتائج تلك المعركة تقسيم بلاد الشام إلى قسمين، شمالي تسكنه القبائل القيسية وبخاصة قبيلة كلاب، وجنوبي تسكنه القبائل اليمنية وبخاصة قبيلة كلب، ويفصل بين القسمين خط وهمي يمرُّ عند الرستن على نهر العاصي بين حمص وحماة.

(١) الطبري، م.س: جـ٥ ص٥٣٥ - ٥٤١.

وازداد نفوذ قبيلة كلب في منطقة دمشق مع مرور الأيام، وتركَّز عدد من بطونها خارج أسوار المدينة في منطقة المزة، كما انتشر عدد منها في البادية حتى منطقة السماوة بين العراق والشام[1].

كانت بلاد الشام مقرَّ الخلافة الأموية، وبعد سقوط هذه الخلافة على يد العباسيين في عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، غدت ولاية تابعة للخلافة العباسية، لكنها كانت بعيدة نسبياً عن حاضرتها بغداد، وبفعل اهتمام العباسيين بأمور المشرق الإسلامي، تمَّ تهميش دور دمشق حتى قامت الدول الانفصالية في مصر التي توجَّهت بأنظارها إلى ضمِّ بلاد الشام، حدث ذلك مع تزامن قيام النزعات الاستقلالية في ربوعها.

وتأسَّست الدولة الطولونية في مصر على يد أحمد بن طولون التركي الأصل في عام (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)، وتطلَّع حكّامها إلى ضمِّ بلاد الشام، فسيطروا على أجزائها الجنوبية، واصطدموا بالخلافة العباسية، وكانت سيطرتهم على الأجزاء الشمالية هشَّة وشبه معدومة[2].

توفي أحمد بن طولون في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) وخلفه ابنه خمارويه، فورث عنه الصراع مع الخلافة العباسية، لذلك قضى معظم وقته في دمشق، واغتيل فيها في عام (٢٨٢هـ/ ٨٩٦م)، فدخل الطولونيون من بعده في نزاعات داخلية، ما أضعف دولتهم وهيَّأ المناخ للإقدام على عمل ثوري في بلاد الشام، وبخاصة في القسم الجنوبي منها.

قيام الحركة القرمطية في بلاد الشام

بدأت الحركة القرمطية في بادية الشام عقب الانشقاق الذي وقع بين قرامطة سواد الكوفة وبين الدعوة في سلَمية، وتوقُّفْ حمدان بن الأشعث قرمط وصهره عبدان عن مراسلة قيادتها، فأرسلت هذه القيادة أحد دعاتها، فنفذ إلى سواد الكوفة وراح يسأل عن قرمط، فنزل على عبدان، فعاتبه على حادثة الانشقاق وأبدى عتب الدعاة في السلميَّة على انقطاع مراسلتهم، فتصلَّب

(١) زكار، م.س: جـ١ ص١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) انظر كتابنا **تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين**، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م: ص٦٦ ـ ٧١.

عبدان في موقفه «وأنه لا يعود فيها، وأنه تاب من هذه الدعوة» فانصرف عنه إلى زكرويه بن مهرويه، وهو أحد الدعاة، ونصَّبه رئيساً للدعوة في السواد، الأمر الذي أدّى إلى صراع بين الرجلين انتهى بمقتل عبدان على يد زكرويه[1] على الأغلب.

وهكذا ذهب زكرويه بعيداً في انشقاقه عن حركة حمدان بن الأشعث قرمط، وصلت إلى حدِّ التآمر، واغتيال عبدان بهدف السيطرة على قيادة الحركة، وجاء هذا الانقلاب تنفيذاً لتوجهات القيادة الإسماعيلية في السلميَّة ولصالحها.

ويبدو أن زكرويه لم يتمكَّن من تحقيق أهدافه، فلم يخضع له فلاحو السواد، ولم يجد من يؤيده في سواد الكوفة، فراح يتنقل بين القرى وقرامطة السواد تطارده.

الواقع أن زكرويه وضع نفسه وحركته في خدمة القيادة الإسماعيلية في السلميَّة، في أدقِّ مراحلها، وهي مرحلة الانتقال من دور الستر إلى دور العلن، ومن مرحلة الحركة في المشرق إلى مرحلة تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب، لكن ذلك لم يكن إلا مدخلاً للانشقاق وتأسيس حركة مستقلة.

وما لبث مُعتقد زكرويه أن تكيَّف مع المعطيات الاجتماعية التي كوَّنت حركته الجديدة، والراجح أن أهل البادية الذين كانوا في أمسِّ الحاجة إلى حركة تنقلهم مباشرة إلى المناطق الحضرية، وتُقدِّم لهم غنائم الغزو، لم يستهوهم انتظار الإمام إلى أجل غير مسمى، فاستعجلوا تحقيق أهدافهم، ولم يكن ظهور الإمام يعني شيئاً بالنسبة لظهورهم وغلبتهم في محيطهم والحصول على قدر كبير من الغنائم.

والحقيقة أن الغزو والحصول على الغنائم كان الهدف الرئيس لالتحاق الأعراب بجيش زكرويه وأولاده من بعده، وأن أغلبهم لم يسمع بمحمد ابن إسماعيل أو بعقيدة الإمام المهدي المنتظر.

وتعرَّض زكرويه وأتباعه لضغط الجيوش العباسية في الوقت الذي ابتعد عنه أغنياء أهل السواد، فسعى إلى استقطاب مَن قرُب من الكوفة من أعراب أسد وطيء وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب، ودعاهم إلى رأيه، وحاول إقناعهم

(١) المقريزي، م.س: جـ١ ص٥٤٨ ـ ٥٤٩.

بأن مَن بالسواد من القرامطة يطابقونه على أمره إن استجابوا له، إلا أنه فشل، فلم يستجب له هؤلاء الأعراب باستثناء جماعة من كلب تحرس الطريق على البرِّ بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق، على طريق تدمر وغيرها، وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها، فأرسل إليهم زكرويه أولاده فبايعوهم وخالطوهم، وانتموا إلى علي بن أبي طالب وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وذكروا بأنهم خائفون من السلطة، وأنهم ملتجئون إليهم، فقبلوهم على ذلك، وحاول القرامطة إدخالهم في مذهبهم، فرفضوا إلا الفخذ المعروفة ببني العليص بن ضمضم بن عدي بن جناب ومواليهم، فبايعوا في أواخر عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م) يحيى بن زكرويه المكنى أبا القاسم، ولقَّبوه بالشيخ، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، وأن أباه المعروف بأبي محمود، داعية لهم، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مئة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة، وأنهم إذا اتَّبعوها في مسيرها انتصروا، وتكهَّن لهم، وأظهر عضداً له ناقصة، وذكر أنها آية، وانحازت إليه جماعة من بني الإصبغ، وأخلصوا له، ودانوا بمذهبه[١]، أنه صاحب الناقة.

وهكذا انطلقت الحركة القرمطية من العراق إلى الشام، وانتشرت في بادية السماوة وفي بلاد الشام نفسها.

تميَّزت الحركة القرمطية في البادية على أنها حركة غزو لا تهدف إلى إقامة دولة مستقرة، فكان البدو ينهبون ويعودون إلى البادية، من دون أن يبثُّوا دعوة دينية أو سياسية، أو يقيموا في مواقع ثابتة، بدليل أن المصادر لا تذكر أيّاً من أهل الشام اعتنق الدعوة القرمطية، بل إنهم خضعوا للقرامطة كأمر واقع لا خيار لهم فيه، ومعنى ذلك أن الدافع الاقتصادي هو المحرِّك لهذه الحركة[٢].

اصطدام القرامطة بالخلافة العباسية

• في عهد يحيى بن زكرويه

انحصر نشاط آل زكرويه في بادىء الأمر في منطقة شمال غربي العراق، وتخلَّص زكرويه من عبدان، منافسه الرئيس على الزعامة كما ذكرنا، وتظاهر

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٩٤ ـ ٩٥.
(٢) علم الدين، م.س: ص١٧٥.

بالإخلاص للمذهب الإسماعيلي بهدف التقرب من سلمية، تمهيداً للاستقلال عنها، ويبدو أن القيادة في سلمية وقفت على نواياه، فأقصته عن مسؤولية الدعوة في العراق، فأمر كبير الدعاة أبو الحسين بن الأسود بعزل يحيى ابن زكرويه عن الدعوة في الكوفة.

شكَّلت هذه الخطوة تحدّياً لآل زكرويه، ومبعث غضب لهم، وبخاصة أنهم أضحوا محاصرين من ثلاث قوى هي:

ـ أنصار حمدان بن الأشعث قرمط وصهره عبدان الذين يكنُّون الحقد والكره لهم، وراحوا يُهدِّدونهم بالقتل انتقاماً للقائدين المذكورين.

ـ الإمام الإسماعيلي في سلمية الذي لم يرضَ عن تصرفاتهم وتآمرهم على قتل عبدان.

ـ العباسيون الذين يتأهبون لمهاجمتهم وقتالهم والقضاء عليهم.

انتشر القرامطة في العراق، وقد شعر شبل الديلمي[١] مولى الخليفة العباسي، المعتضد بوطأتهم فجهَّز جيشاً قاتلهم في الرصافة، فاستخدم هؤلاء عنصر المباغتة، ففاجؤوه وهزموا جيشه، وقتلوه مع عدد من أصحابه، ودخلوها، فأحرقوا مسجدها ونهبوها، ثم ساروا نحو الشام بقيادة يحيى ابن زكرويه، وهاجموا أملاك الطولونيين، وراحوا يقتلون ويحرقون القرى وينهبونها إلى أن وصلوا إلى أطراف دمشق، وكان عليها طغج بن جف من قِبل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، فتصدّى لهم، ويبدو أنه لم يكن على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، فلم يُقدِّر التطور الهائل الذي طرأ على الحركة القرمطية سياسياً وعسكرياً، فخرج للقائهم وهو على غير تعبئة، وكأنه في نزهة صيد حاملاً معه الطيور والصقور، فلم تصمد قواته أمامهم وتعرَّضت لكارثة حقيقية من القتل الشنيع من دون شفقة[٢].

احتمى طغج بن جف بقلعة دمشق، وأرسل جيشاً آخر بقيادة غلامه بشير، اصطدم بالقرامطة في منطقة الكسوة جنوبي دمشق، فانتصر القرامطة عليه وقُتل بشير في المعركة.

(١) عند الطبري سبك الديلمي، م.س: جـ١٠ ص٩٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٩٧.

وتقدَّمت القوات القرمطية المنتصرة إلى دمشق وحاصرتها، استمر الحصار مدَّة سبعة أشهر تعرَّض السكان خلالها للمجاعة، فالتمس طغج بن جف المساعدة من مصر، فبعث إليه هارون قوة عسكرية بقيادة بدر الحمامي، وتمكَّنت القوتان الشامية والمصرية من فكِّ الحصار من دمشق، واشتبكت مع القوات القرمطية في ضواحيها وانتصرت عليها، وقتلت قائدها يحيى ابن زكرويه وأجلتها عن مواقعها[1].

- **في عهد الحسين بن زكرويه**

لم ييأس القرامطة إثر هزيمتهم في الوقت الذي ارتدت فيه القوات الطولونية إلى دمشق، وانسحب القرامطة لإعادة تنظيم صفوف قواتهم في مناطق تجمُّع العشائر الشامية على ضفتي الفرات، ونصَّبوا الحسين بن زكرويه، أخا يحيى، الملقب بصاحب الشامة أو الخال[2]، ثم تحركوا لمهاجمة المدن الشامية، ولم يكن لقوّات بدر الحمامي أن تنتصر عليهم بسبب ضعفها، فاضطر سكان دمشق إلى مصالحتهم على مبلغ من المال[3]، فتركوهم وتوجَّهوا نحو حمص، فخُطب لصاحب الشامة على منابرها، وتسمَّى بالمهدي، ثم ساروا إلى حماة، فاستسلم سكانها لهم، وكذلك فعل سكان بعلبك، ودخلوا سلَمية فبطشوا بسكانها، من العباسيين والهاشميين، وأنصار عبيد الله المهدي، وكان هذا قد غادرها إلى المغرب قبل وصول القرامطة بناء على إشعار أخبره به الداعي حامد بن الحسين من بغداد، ثم غادروها إلى بعض القرى يقتلون ويحرقون ويخيفون السابلة[3].

كان بطش صاحب الشامة بأهل سلَمية شديداً، فقد فظَّع بأهلها، حتى أنه قتل البهائم والصبيان بالكتاتيب، وهاجمت قواته قصر عبيد الله المهدي.

استقر الحسين بن زكرويه في دمشق بعد عودته من سلَمية، وقد شعر بقوَّته، واغتصابه للسلطة من الإمام نفسه، فادَّعى أنه المختار من ولد رسول الله، وأن جده محمد رسول الله، وأنه القائم بأمر الله، وأنه خليفة الله على العالمين، وأنه المهدي المنصور بالله، وواصل حشد الجيوش حتى بلغت أربعة وعشرين

---

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٩٧ ـ ٩٩. (٢) كان يزعم أنها ختم نبوَّته.

(٣) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٠٠.

ألف مقاتل، منهم ثمانية آلاف فارس، وستة عشر ألف راجل، وأعدَّها للقتال[1].

توضَّح تراجع القوة الميدانية للجيش الطولوني بعد الهزائم المتكررة التي تعرَّض لها، وعجزه عن حماية المدن الشامية وسكانها أمام ما نشره القرامطة من ذعر وفوضى، فضاعت هيبة الطولونيين في نفوس الناس، وارتفعت صيحات النقمة والاحتجاج في أرجاء العالم الإسلامي في غربي آسيا، وتدفَّقت الرسائل من مصر وبلاد الشام إلى دار الخلافة لالتماس المساعدة، فكتب تجار دمشق إلى الخليفة مستنجدين به[2].

كانت الخلافة تنتظر الفرصة المواتية للتدخل وإثبات وجودها وتأكيد مكاسبها في بلاد الشام، فقرَّر الخليفة المكتفي الذي خلف المعتضد بعد وفاته في عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)؛ التصدّي للقرامطة، وضربهم في بلاد الشام، فأعلن حال الاستعداد في (رمضان ٢٩٠/ آب ٩٠٣م)، وأعطى الجند أرزاقهم، ومنحهم مئة ألف دينار دفعة واحدة لتشجيعهم[3].

تجمَّعت القوات العباسية عند باب الشماسية، فاستعرضها الخليفة، ومن ثَمَّ سار على رأسها نحو بلاد الشام متخذاً طريق الموصل، وتوقف في هذه المدينة، وراح يُرسل منها الجيوش الواحد تلو الآخر، فأرسل جيشاً ضخماً بقيادة أبي الأغر، تقدَّم من الموصل إلى الرقة في طريقه إلى حلب، وعسكر في وادي بطنان بين منبج وحلب، فباغتته القوات القرمطية وهزمته، وقتلت كثيراً من جنده، ونجا أبو الأغر مع نفر من جنوده لا يتجاوزون الألف، ودخل بهم إلى حلب، فطاردتهم القوات القرمطية وحاصرت المدينة، غير أنه تمكَّن بمساعدة سكانها من إجبار تلك القوات على رفع الحصار بعد اصطدامات ضارية معها، وقتل منها أعداداً كثيرة[4].

وصل الخليفة في غضون ذلك إلى الرقة، وأرسل جيشاً كثيفاً لمطاردة

---

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٩٦ ـ ١٠٠. (٢) المصدر نفسه: جـ١٠ ص٩٧ ـ ٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ص١٠٣.

(٤) ابن العديم الصاحب كمال الدين عمر، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٧م: جـ١ ص٩٤ ـ ٩٥.

القرامطة والقضاء عليهم بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، فالتقى بهم قرب حماة في مكان يُسمَّى (تمنع) وهزمهم، واستأصل شأفتهم، ووضع حدّاً لخطرهم في بلاد الشام وذلك في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م)[1]، ويبدو أن الزعيم القرمطي لم يشترك في المعركة، وفضَّل أن يتخلَّف وراء القوات ومعه الأموال والأرزاق الكثيرة، فذهب باتجاه سلَمية للتحصن بها، ثم ذهب إلى الكوفة متخفياً برفقة ابن عمه عيسى بن مهرويه الملقب بالمدثر، وسار معه أحد قادته ويُلقَّب بالمطوق، وغلام رومي مهمته إرشادهم على الطريق[2]، فطارده محمد بن سليمان، ولكنه اختفى مع مرافقيه، إلا أن القوات العباسية قبضت عليهم في قرية الدالية قرب الرحبة (الميادين اليوم)، وحملتهم إلى الخليفة العباسي المكتفي في الرقة، ثم حُملوا إلى بغداد مع أمثالهم من الأسرى الذين أسرهم القائد العباسي، وبلغ عددهم ثلاثمئة وستين نفراً، فعذَّبهم الخليفة ونكَّل بهم، وقتلهم مع السجناء القرامطة المقبوض عليهم من الكوفة وبغداد، وصُلبوا جميعاً، وعلى رأسهم الحسين بن زكرويه[3].

• في عهد أبي الفضل بن زكرويه

أضعفت الهزائم المتكررة بالإضافة إلى مقتل الحسين بن زكرويه، القرامطة في بلاد الشام، فمال الكثير منهم إلى المسالمة؛ لا سيما زعماء بني العليص وتخلّى بعض قادة القرامطة عن صاحب الشامة بعد انتصار الجيش العباسي، وذهب بعض رؤساء القرامطة بعد هزيمتهم إلى رحبة مالك بن طوق، وهي مدينة على الفرات، فطلبوا الأمان، منهم: أبو المحمدين، وأحمد بن النعمان، ووضاح، وعطير، وشديد بن ربعي وغيرهم. وعلى الرغم في ذلك، فقد حاول بعضهم تجديد نشاطهم بقيادة أبي الفضل بن زكرويه الذي أعاد جمع شتات القرامطة وتنظيمهم استعداداً لجولة جديدة مع القوات العباسية، وكان أخوه الحسين قد أمره أن يلحق بالبوادي

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٠٨.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٥٣٨ ـ ٥٣٩.
(٣) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٠٨ ـ ١١٥.

إلى أن يظهر بمكان فيسير إليه، فأحيا الحركة القرمطية في نوحي الفرات[1].

استغل أبو الفضل القتال بين العباسيين والطولونيين، فحاول السيطرة على بلاد الشام ومصر، فهاجم بعض مدن الشام مثل طبرية التي دخلها عنوة، وعاث فيها فساداً، فأرسل الخليفة العباسي المكتفي القائد حسين بن حمدان، فدحره إلى البادية، وهنا يحيط الغموض بدور أبي الفضل ونهايته[2].

• نهاية قرامطة الشام

الواضح أن انتصار الجيوش العباسية على القرامطة لم يكن حاسماً، بدليل أن الحركة القرمطية استمرت ناشطة، فقد تسلَّم زكرويه قيادتها، وكتب إلى قرامطة البادية يُعلمهم أن يحيى وأخاه الحسين قد قُتلا، وأن الإمام الذي يوحى إليه لن يبطئ في الظهور والغلبة، وذلك في خطوة تشجيعية لشحذ الهمم ورفع المعنويات، وأرسل رجلاً كان يُعلِّم الصبيان بقرية الزابوقة من عمل الفلوجة يُدعى عبد الله بن سعيد، ويُكنى أبو غانم، فتسمى باسم نصر ليُموِّه على شخصه ومهمَّته، فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله منهم أحد سوى رجل من بني زياد يُسمى مقدام بن الكيّال، إلا أنه استقطب طوائف من الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم، وسواقط من العليصيين، وصعاليك من سائر بطون كلب، ما قوّى موقفه وشجّعه على التقدم إلى بلاد الشام، وكان عامل الخليفة العباسي على دمشق والأردن آنذاك أحمد بن كيغلغ، وهو مقيم بمصر على حرب ابن خليج الذي ثار على حكم محمد بن سليمان الكاتب، فاستغل نصر هذه الفرصة، وسار إلى بصرى وأذرعات من كورتي حوران والبثنية، فحارب أهلها ثم أمَّنهم، فلما استسلموا غدر بهم، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، واستصفى أموالهم، ثم سار إلى دمشق للاستيلاء عليها، فتصدى له جماعة من المدافعين عنها من المصريين الذين كان أحمد بن كيغلغ قد خلَّفهم مع صالح بن الفضل، فتغلَّب عليهم، واضطرهم إلى الاستسلام، فقتل صالحاً، وشتَّت جنده، لكنه لم يدخل المدينة بسبب مقاومة أهلها،

(١) ابن سنان، ثابت: **ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المسلمين** جـ١ ص٢٠١، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س .
(٢) دي خويه، م.س: ص٥٥.

ومناعة أسوارها، فتركها وتوجه إلى طبرية، في جند الأردن، وانضم إليه مجموعة من القبائل القريبة من دمشق، فتصدى له يوسف بن إبراهيم بن بغامردي، عامل أحمد بن كيغلغ على الأردن، فهزمه، واستسلم له، فأعطاه الأمان ثم غدر به، فقتله ونهب المدينة، وسبى النساء، وقتل طائفة من أهلها[1].

أثارت أعمال القرامطة، الخليفة العباسي، فنهض للتصدّي لهم ووضع حدٍّ لتعدّياتهم وتخريبهم القرى، وقتلهم الناس ونهبهم، فأمر قائده الحسين ابن حمدان بمطاردة نصر وأتباعه من القرامطة، لكن هؤلاء تراجعوا نحو بادية الشام، وهم يُغوِّرون الماء، ويردمون البرك والعيون حتى لا يستفيد الجيش العباسي منها[2].

وعجز الحسين بن حمدان عن مطاردة القرامطة، وتوجَّه إلى الرحبة، وعندما علم الخليفة العباسي بذلك، أرسل محمد بن إسحاق بن كنداج ومعه المؤن والمياه، وكتب إلى الحسين بن حمدان أن يوافيه من الرحبة، وأن يقوم معه بتطويق القوات القرمطية، وعندما علم هؤلاء بذلك، توجَّهوا إلى هيت على الفرات، فهاجموها، ونهبوا السفن في الفرات، بالإضافة إلىٰ الأموال والمتاع، وقتلوا بعض أهلها، وأحرقوا ربضها، واستولوا على ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة، فامتنع أهلها بسورهم، وخرج المهاجمون بعدها إلى البرّيَّة، وعندما اقتربت الجيوش العباسية منهم، هربوا إلى المائنين، ولما شعروا بإشراف الجند العباسي عليهم ثار فريق منهم ضد نصر، فوثبوا عليه، وفتكوا به، وتفرَّد بقتله رجل منهم يُقال له الذئب بن القائم، وأرسلوا رأسه إلى بغداد، واستقروا في عين التمر، فعفا الخليفة العباسي عنهم[3].

لم يستسلم زكرويه لهذه الهزائم التي لحقت بأتباعه، فأعاد تنظيمهم، وجمع شمل أنصاره من الكلبيين بقيادة الداعي القاسم بن أحمد، وأرسله إلى الشام لجمع الأنصار والمستجيبين له.

وبالغ زكرويه في أعداد أتباعه والمؤيدين له في العراق، حوالي نصف مليون رجل، وأنهم نادمون على ما فعلوه بنصر، وأخبرهم أن وقت ظهورهم

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٢٢ ـ ١٢٣. (٢) المصدر نفسه: ص١٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ص١٢٣ ـ ١٢٤.

قد حان، وأن معظم أهل الكوفة وسوادها قد بايعوه، وأمرهم بأن يلتفوا حول القاسم بن أحمد، وأن يأتوا معه إلى العراق، ولكن القاسم لم يتمكَّن من جمع أكثر من سبعمئة رجل، أمرهم بالكتمان حتى لا يفتضح أمره، ووضع خطة لاحتلال الكوفة تعتمد على المباغتة، وحدَّد يوم عيد الأضحى موعداً للهجوم أثناء الصلاة، لكنه وصل متأخراً، فتصدّى له أهلها بالسلاح والحجارة بقيادة عاملها إسحاق بن عمران، إلا أنه تمكَّن من فتح السجون وإخلائها من السجناء ثم غادرها إلى القادسية بهدف اقتحامها.

والتمس إسحاق بن عمران المساعدة من الخليفة العباسي لمواصلة الحرب ضد القرامطة، فأمدَّه بقوة عسكرية على رأسها قادة كبار، أمثال: وصيف ابن صوارتكين التركي، والفضل بن موسى، وبشر الخادم والأفشين وغيرهم، توجَّهت هذه القوة في إثر القرامطة ونزلت في مكان يُقال له الصوان أو الصودر، وهي قرية في سواد الكوفة، فوجدت زكرويه الذي كان مختبئاً هناك منذ مدة طويلة في حفرة، مستخدماً حيلاً ذكية في التخفّي والاستتار[1] لكنها لم تتمكن من القبض عليه.

وجمع زكرويه أتباعه الوافدين من الشام الذين وعدهم بظهور الإمام الذي يوحى إليه، وأنه لن يبطئ في الظهور والغلبة، مع أنصاره العراقيين الذين افتتنوا به، ومنهم أهل قريته، وبعض الزعماء من قبيلة كلب مثل المغلغل، وهو أحد رجالهم الشجعان وقد انضم إليه مع جموعه، وحجب زكرويه نفسه في قبَّة خاصة، ودعى نفسه بالسيِّد، وخوَّل القاسم بن أحمد بتسيير الأمور.

وأمر الخليفة العباسي، قاسم بن سيما وغيره من رؤساء الأعراب بجمع أتباعهم من البوادي بديار مضر، وطريق الفرات، ودقوقاء، وخاتيجار وغيرها من النواحي، لينهضوا إلى القرامطة.

ووصلت القوات العباسية في هذه الأثناء إلى الصوان، فاصطدمت بالقوات القرمطية يوم الأحد (لعشر بقين من ذي الحجة ٢٩٣هـ/الثاني عشر من تشرين الأول ٩٠٦م)، واشتدت الحرب بين الطرفين، وكادت الدائرة تدور على القرامطة، لكن ما أقدم عليه زكرويه من نصب كمين من خلف القوات العباسية

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٢٥.

التي لم تشعر به فأصابها الذعر؛ أتاح له النصر عليها، وقُتل الكثير من أفراد الجيش العباسي، وغنم القرامطة كثيراً من المال والسلاح، وارتفعت معنوياتهم[١].

توجَّه القرامطة بعد هذا الانتصار إلى البادية وقد تألَّبت القبائل المتاخمة لسواد الكوفة ضدهم، مثل بني شيبان الذين اتحدوا مع القوات العباسية وأهل الكوفة، فالتفتوا إلى مهاجمة قوافل الحجاج لهدفين:

الأول: الحصول على الغنائم بنهب أموال القوافل ومتاعها للاستعانة بها على محاربة الجيوش العباسية، وبخاصة أنهم كفَّروا كل من لا يدين بمذهبهم.

الثاني: إظهار الخلافة العباسية أمام العالم الإسلامي، بمظهر العاجز عن حماية الحجاج، والمحافظة على سلامتهم.

فتوجَّهوا إلى مكان يُقال له السلمان يقع على الطريق إلى تهامة من العراق، وأقاموا فيه ينتظرون قدوم قوافل الحجاج، ولكن أهل واقصة الواقعة على هذا الطريق أنذروا قافلة كانت ستسلكه، بخطر القرامطة، فارتحلت القافلة ونجت، ودفع أهل واقصة الثمن عندما علم القرامطة بفعلتهم، فحوصروا، وأُحرقت أعلافهم، وقُتل العلَّافة، وعُذِّب الأهالي، وعندما علمت القوة العسكرية العباسية التي كان قد أرسلها الخليفة لمساندة الحجاج بنجاة القافلة ورحيل القرامطة، عادت من حيث أتت.

وتوجَّه زكرويه وأنصاره إلى زبالة في عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٦ ـ ٩٠٧م)، وهي عقدة مواصلات رئيسة على طريق الحجاج قرب مكة، فأغاروا على منازل القبائل في طريقهم، وتعرَّضوا لأول قافلة حجاج التقوا بها، وهي قافلة الخراسانية، فقتلوا رجالها، ونكَّلوا بأفرادها، وسلبوا أموالها، وذلك في مكان يدعى عقبة الشيطان، وهي منزل في طريق مكة[٢].

الواضح أن الجيش العباسي كان عاجزاً عن حماية الحجاج والدفاع عنهم، فلما قدم ابن كنداج إلى الكوفة ثم القادسية، لم يتقدم جيشه إلى واقصة، محطة الحجاج، بل أرسل غيلان بن كشمرد مع كوكبة من الفرسان إليها، لكن قافلة الحجاج الأولى كانت قد نجت، وجرى للقافلة الخراسانية ما جرى من

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص١٣١.

القتل والحرق والنهب، وعندما لقي كشمرد بعض المنهزمين منها وعلم بالخبر، وسمع رأيهم باللحاق بالعقبة التي ستنزل فيها قافلة أخرى، من أجل حمايتها والمحافظة عليها؛ قال قولته المشهورة: «لا أُعرِّض رجال الخليفة للقتل»[١]، وعاد مع رجاله من دون أي عمل يستحق الذكر.

وتعرَّضت قافلة ثالثة للخطر، فلم يلتزم رجالها بالتحذير الذي أطلقه الخليفة المكتفي والذين نجوا من القافلة الخراسانية؛ بالعودة إلى فيد وهي منزل بطريق مكة، وانتظار قدوم الجيش العباسي الذي كان الخليفة المكتفي يُجهِّزه للقضاء على القرامطة؛ فغلب على أفرادها العطش الشديد، لأن القرامطة طمروا الآبار والبرك على الطريق في واقصة والثعلبية والعقبة، وجميع الأمكنة القريبة منها، وكمنوا لها في مكان يدعى الهبير على طريق مكة، فلما وصلت انقضّوا عليها، وقاتلوها مدة ثلاثة أيام، فمات معظم أفرادها من العطش ومن سيوف القرامطة الذين استولوا على أموالها الطائلة[٢].

وحاول القرامطة مهاجمة فيد، فقاومهم أهلها[٣]، ويبدو أنهم أرادوا اتخاذها قاعدة لهم في الصحراء لكي يُهاجموا منها قوافل الحجاج كل عام، ويغيروا منها على أطراف العراق والشام كلما سنحت لهم الفرصة.

وأرسل زكرويه أثناء حصار فيد من يستطلع له أخبار الجيش العباسي وقد خشي أن يلحق به، ورغم فشل الحصار الذي دام أياماً عدة، فقد رحل إلى النباج[٤] ثم إلى حفر أبي موسى، وكان قادة الجيش العباسي يراقبون تحركاته تمهيداً للاصطدام به، فتقدموا نحوه وهم على تعبئة، وجرى اللقاء الدامي بين الطرفين في خفان في ضواحي حمص يوم السبت (٢٢ ربيع الأول ٢٩٤هـ/ ٨ كانون الثاني ٩٠٧م)، استمر يوماً كاملاً قُتل خلاله أعداد كبيرة من القرامطة، وأُشعلت النيران في قبَّة زكرويه، وكان يقود المعركة وهو قابع فيها، وفي الوقت الذي كان يحاول فيه الخروج منها أصابته ضربة من أحد الجنود فوقع

(١) ابن سنان، م.س: جـ١ ص٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٠٧ ـ ٢٠٨. الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٣١.

(٣) الطبري، المصدر نفسه: ص١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤) هو نباج بني عامر على طريق البصرة بحذاء فيد، وهو منزل لحجاج البصرة. الحموي، م.س: جـ٥ ص٢٥٥.

جريحاً وأُخذ أسيراً، وأحاقت الهزيمة بقوّاته، وأُلقي القبض على جميع رؤسائهم، وتوفي زكرويه بعد خمسة أيام متأثراً بجراحه، فأُرسلت جثّته إلى بغداد، فحُنِّطت لعرضها على الناس، ثم أُرسل رأسه إلى خراسان لبثّ الطمأنينة في نفوس الراغبين في مواصلة الحج، وقتل العباسيون جميع أفراد أسرته، وكاتبه، وغنموا أموالهم[1].

دبَّ الذعر في من نجا من المعركة من القرامطة، فضعف نشاطهم في بلاد الشام، ولم يبقَ لهم شأن يُذكر في العراق، لكن جماعة منهم حاولت تجديد نشاطها، وإشعال الحرب من جديد عبر الدعوة بين القبائل العربية في البادية، وطريق مكة، وتولّى رجلان هذا الأمر، هما: الحداد والمنتقم، وهو أخو امرأة زكرويه، لكنهما لم يتمكّنا من جمع الأنصار بسبب الحالة السيئة التي وصل إليها القرامطة، فتمَّ القبض عليهما من قِبل الأعراب أنفسهم فسلَّموهما إلى الخليفة، فقتلهما، واستطاع الحسين بن حمدان أن يقضي على ما تبقّى من قرامطة الشام، واضطر العطير صديق زكرويه، والأغر وهو أحد قادته، أن يُسلِّما نفسيهما إلى السلطات العباسية ويطلبا الأمان، وذلك في عام (٢٩٩هـ/ ٩١١ ـ ٩١٢م)[2].

وهكذا زالت الحركة القرمطية في بلاد الشام.

أسباب سقوط قرامطة الشام

يمكن إجمال أسباب سقوط قرامطة الشام بما يأتي:

ـ عدم ملاءمة الظروف الموضوعية لنجاح الحركة.

ـ اهتمام العباسيين بالحركة القرمطية، وسعيهم الدائم لمكافحتها.

ـ حال الانقسام بين الحركتين القرمطيتين في العراق والشام.

ـ الاستقلال عن الدعوة الإسماعيلية في سلَمية، الأمر الذي كشف قرامطة العراق والشام أمام القوة العباسية.

ـ معاداة كبار المالكين والأغنياء للحركة القرمطية، بفعل التعارض في المصالح.

---

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص١٣٤. ابن سنان، م.س: جـ١ ص٢١٠.

(٢) الطبري، المصدر نفسه: ص١٤٥.

ـ تصرُّفات أنصار الحركة من البدو والذين مارسوا النهب والسلب في المدن والقرى، ما جلب العداء الشديد للحركة.

ـ ارتكاب القرامطة أعمال البطش الشديد، والقسوة والعنف بحقِّ خصومهم وبخاصة الشاميين.

ـ الفوضى والتدمير، ومهاجمة قوافل الحجاج، وسلبهم أموالهم ومتاعهم ثم قتلهم، وقد أثار ذلك عامة المسلمين ضدهم.

ـ ثقافتهم الدينية المخالفة لشعائر أهل السُّنَّة، مع ما يثير ذلك من شعور ديني معادٍ.

ـ ابتعاد عبيد الله المهدي عن المشرق، وانهماكه بشؤون المغرب، وقد ساهم هذا الابتعاد في انفضاض كثير من القبائل عن الحركة القرمطية التي كانت هي أيضاً في وضع مضطرب، بسبب عدم توفر الوقت الكافي للتنظيم العسكري، وقد أدى ذلك إلى ضعف صفوف القرامطة الشاميين، وإجهاز العباسيين عليهم حتى انتهى أمرهم في بلاد الشام.

الفَصْلُ السَّادِسُ

العلاقات السياسية لقرامطة البحرين

في عهد أبي سعيد الحسن الجنّابي

بداية أمر القرامطة في البحرين

تتباين روايات المصادر في تحديد شخصية رائد الحركة القرمطية في البحرين، وهناك شخصيتان دار حولهما الجدل، وتنافستا في ذلك هما: الحسن بن بهرام الجنّابي[١]، ويُكنى بأبي سعيد، وأبو زكريا يحيى بن المهدي الطمامي، لكنها تكاد تُجمع على أن الأول هو مؤسس دولة القرامطة في البحرين.

كانت مدة وجود الحسن الجنّابي منذ أن ظهرت دعوته في القطيف[٢]، وفتْح سائر مدن البحرين وآخرها هجر؛ إلى أن قُتل في عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م) ثمانية وعشرين عاماً،وإذا اعتمدنا هذه الرواية فإن الحسن الجنّابي بدأ دعوته في القطيف في أوائل عام (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م).

وثمّة رواية تخالف ما ذهبنا إليه من أن الحسن الجنّابي هو أول داعية نشر الفكر القرمطي في القطيف «كان رجل من أهل قرية جنّابة يعمل الفراء، يُقال له أبو سعيد الحسن بن بهز الجنَّابي، أصله من الفرس، سافر إلى سواد الكوفة، وتزوج من قوم يُقال لهم بنو القصار كانوا من أصول هذه الدعوة، فأخذ عن عبدان، وقيل: بل أخذ عن حمدان قرمط، وسار داعية، فنزل القطيف وهي حينئذٍ مدينة عظيمة، فجلس بها يبيع الدقيق، فلزم الوفاء والصدق، وكان أول من أجابه الحسين بن سنبر، وعلي بن سنبر، وحمدان

(١) نسبة إلى مدينة جنَّابة، وهي بلدة صغيرة من سواحل فارس. الحموي، م.س: جـ٢ ص١٦٥.

(٢) القطيف: مدينة بالبحرين. المصدر نفسه: جـ٤ ص٣٧٨.

ابن سنبر، في قوم ضعفاء، ما بين قصّاب وحمّال وأمثال ذلك، فبلغه أن بناحيته داعياً يُقال له أبو زكريا، أنفذه عبدان قبل أبي سعيد، وكان قد أخذ على بني سنبر من قبل، فعظم أمره على أبي سعيد، فقبض عليه وقتله، فحقد عليه بنو سنبر قتله»[١].

تجري رواية المقريزي أن عبدان أنفذ أبا زكريا قبل الحسن الجنّابي وأخذ العهد على كبار عشائر القطيف مثل بني سنبر، ولهذا عظم أمره كمنافس على زعامة الدعوة القرمطية في القطيف، فقام بقتله.

وهناك مصادر تاريخية تذكر أن أبا زكريا يحيى بن المهدي قدم إلى القطيف «فنزل على رجل يُعرِف بعلي بن المعلّى بن حمدان، مولى الزياديين، وكان يغالي في التشيُّع، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وكان ذلك سنة ٢٨١هـ، وذكر أنه خرج إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره، وأن ظهوره قد قرب، فأخبر علي بن المعلّى الشيعة من أهل القطيف، وقرأ عليهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي إليهم، فأجابوه، وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنّابي، وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم، ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدَّة، ثم رجع ومعه كتاب يزعم أنه من المهدي إلى شيعته، فيه: قد عرَّفني رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم إلى أمري، فليدفع إليَّ كل منكم ستة دنانير وثلاثين درهماً، فدفعوا ذلك ثم غاب، وعاد ومعه كتاب فيه: أن ادفعوا ليحيى خُمس أموالكم، فدفعوا إليه الخُمس، وكان يحيى يتردَّد في قبائل عبد القيس، ويورد إليهم كتباً يزعم أنها من المهدي، وأنه ظاهر، فكونوا على أهبة»[٢].

وتجري رواية أخرى حول ظهور الحسن الجنّابي في البحرين «وأرسل عبدان، أبا سعيد بن بهرام الجنّابي إلى جنوبي إيران، فأظهر مقدرة كبيرة، ولاقت تعاليمه الأولى نجاحاً كبيراً، فبشَّر بأن الله غضب على العرب؛ لأنَّهم قتلوا الحسين، وأنه يحب شعب الأكاسرة الذين هم وحدهم أيَّدوا حقوق الإمام، وقال بأن تعاليم محمد فيها الكثير من الخطأ، ونجح أبو سعيد في

(١) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٤١ ـ ٥٤٢.

(٢) ابن سنان، م.س: جـ١ ص١٩٢ ـ ١٩٣.

تطبيق مبادئه الاشتراكية، وأشرف بنفسه على إدارة أموال جماعته، ولكن الشرطة اكتشفت نشاطه، وصادرت أمواله، فهرب واختفى، ثم دعاه حمدان لمقابلته في كلواذي وأراد استغلال قابليته في منطقة أخرى، فزوّده بالدراهم والتعاليم، وأرسله إلى البحرين حيث لاقى نجاحه الأكبر»[1].

تعقيب على الروايات المتباينة

يمكن استخلاص الوقائع الآتية من الروايات المتباينة التي أوردناها:

ـ إن الوضع السياسي في البحرين كان مناهضاً للخلافة العباسية، وقد شقَّ التشيع الغالي طريقه، وهيَّأ البلاد لتقبل الدعوة الجديدة.

ـ بغضّ النظر عمن أرسل الداعية أبا زكريا يحيى بن المهدي، فقد ظهر هذا في بيئة مهيّأة وخصبة، فاستجاب له أهل القطيف، ودفعوا له عن كل رجل ستة دنانير وثلاثين درهماً، ثم ما لبثوا أن دفعوا له الخُمس، ويدل ذلك على تمكُّن الدعوة من استقطابهم، وعلى رغبتهم استعجال ظهور المهدي، واستعدادهم للانضمام إليه.

ـ يبدو من الروايات التي أوردناها أن الحسن بن بهرام الجنّابي هو السابق في الدعوة في البحرين (٢٧٣هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٧م)، وأن يحيى بن المهدي هو اللاحق (٢٨١هـ/ ٨٩٤م)، لكن الأول لم يكن مهيّأً بعد لتحمُّل أعباء نشر الدعوة، ولم تظهر الدعوة حتى قدم يحيى بن المهدي وقام بإقناع كبار الشخصيات القطيفية بأنه ممثل الإمام المهدي، فاتّبعه أهل القطيف، وهذا ما لم يستطع الحسن الجنّابي القيام به طيلة مدة إقامته في القطيف، ومن هنا بدأ التنافس بين الرجلين الذي انتهى بمقتل يحيى بن المهدي على يد الحسن الجنّابي[2].

ـ قد يكون الاختلاف بين الداعيين المذكورين مرتبطاً أيضاً بالانشقاق الذي حصل بين الدعوة الإسماعيلية في سلَمية وبين قرامطة سواد الكوفة بزعامة حمدان بن الأشعث قرمط نتيجة وفاة عبد الله بن ميمون القداح وخلافة ابنه من

(١) دي خويه، م.س: ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢) آل سلهام، حسين بن حسن: **ساحل القرامطة**، دار كيوان، دمشق، ط١، ص٢٠٠٨، ص٢٧١.

بعده، وقد أنكر الإمام محمد بن إسماعيل؛ الأمر الذي أثار حفيظة حمدان، فاستغل دعاة المناطق ذلك واستقلّوا كلٌّ بمنطقته، ويظهر هذا النزوع في البحرين في انشقاق واضح قاده الحسن الجنّابي مستنداً على أُسَر محلّية قوية وعريقة، هي آل سنبر، ومُنصِّباً نفسه ممثلاً للإمام المهدي، واعداً بظهوره عام (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، وفي ذلك خروج على السلَمية وعلى سواد الكوفة معاً[1].

ـ لقد مرَّ الحسن الجنّابي بسواد الكوفة إثر مغادرته فارس، فالتقى بحمدان بن الأشعث قرمط وصهره عبدان، واطَّلع منهما على تجربتهما في قيادة الحركة، وأظهر حماساً للإفادة من دروسهما أثناء العمل على تأسيس حركة ثورية في البحرين، لكن لم تُنظِّم أية علاقة بين الجانبين بعد إرساله، ولا تتجاوز الغاية من إرساله في هذه الحالة حدود القيام بحركة استطلاعية، أو حركة لإرباك الدولة العباسية، ووضعها أمام تحديات جديدة بهدف تخفيف الضغط عن قرامطة العراق، وتجنيبهم خطر التصفية[2].

ـ لا شك بأن الحركة القرمطية في البحرين ذات أصول إسماعيلية تتمثل بوجود الداعي يحيى بن المهدي، إلا أن الحسن الجنّابي قام بانشقاق مبكر أدَّى إلى استقلال الحركة، وصياغة علاقاتها وتحالفاتها السياسية وحتى معتقداتها الدينية، في كل مرحلة من مراحلها، وفقاً لما يُناسب مصالحها الإقليمية المستقلة، ومواقع قيادتها.

ـ إن علاقة الحركات القرمطية الثلاث في السواد والبادية والبحرين، تبدو واهية حيث لا ذكر لأي تنسيق فعلي في المصادر، ولا وجود لأية معارك مشتركة، غير أن ميزة عامة تجمع بينها، وهي أنها ابتدأت بشرارة الإسماعيلية، وسرعان ما نزعت نحو الاستقلال، فكوَّنت حركات إقليمية محدودة الآفاق، لم تكتمل فيها شروط الفروع وخصائصها إنْ من حيث عقيدتها وبرنامجها، أو من حيث علاقاتها وتنظيمها وتحالفاتها السياسية[3].

ـ انتشر الفكر القرمطي في البحرين بين القبائل العربية، وساهم اعتناق بعضها المذهب الإسماعيلي في تقوية نفوذها، فهي الوسط الذي عاشت فيه

(١) آل سلهام، م.س: ص٢٧١. بزّون: ص١٥٥.

(٢) بزّون، م.س: ص١٥٦.

(٣) المرجع نفسه: ص١٥٨ ـ ١٥٩.

الحركة القرمطية في تلك المنطقة، وقد دامت حوالي مئة وتسعة وثمانين عاماً (٢٨١ ـ ٤٧٠هـ/ ٨٩٤ ـ ١٠٧٨م)، وكانت التربة خصبة لقيامها، وكذلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

ـ لعل سبب طول مدة حكم قرامطة البحرين متعلق ببُعد المنطقة عن مركز الخلافة العباسية، وأسلوب الحكم الجماعي، مع الأخذ بعين الاعتبار الإطار التاريخي والتطوري لتلك الحقبة، والمعروف أن أسلوب الحكم تمثَّل في مجلس العقدانية المكوَّن من ستة أفراد، كان الحكم بينهم شورى، والرأي فيه للسادة الذين يضمُّهم هذا المجلس، يضاف إلى ذلك التأييد الشعبي الواسع للسلطة القرمطية.

ـ إن الأسباب التي أدَّت إلى قيام الحركة القرمطية في البحرين، هي نفسها التي أدَّت إلى قيام هذه الحركة في العراق والشام في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قريبة الشبه جداً بين المناطق الثلاث، والقاسم المشترك بين الحركات الثلاث، وجود الصراع الاجتماعي والعداء للسلطة المركزية في بغداد، وتجسَّد ذلك عبر الحركات الثورية التي قامت بسبب الأوضاع الاقتصادية، حيث كانت البحرين تدفع سنوياً إلى الخزانة المركزية مبلغ خمسمئة وعشرة آلاف دينار[١]، وهو مبلغ ضخم بالمقارنة مع حجم المنطقة ومواردها المالية.

ـ مهَّدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي قامت في ظلها ثورة الزَّنج في البحرين قبل أن تنتقل إلى البصرة؛ لتحريك الروح الثورية في نفوس الناقمين على الدولة العباسية وولاتها.

ـ اعتمدت الحركة القرمطية في البحرين على البدو والفقراء المخلصين للحركة، ودُعِّمت بمن انخرط في صفوف مؤسسها من الضعفاء؛ ما ساهم في نجاحها.

تأسيس الدولة القرمطية في البحرين

بدأ الحسن الجنّابي نشاطه في بلدة القطيف في (جمادى الآخرة ٢٨٦هـ/ حزيران ٨٩٩م)، ولقي مساعدة من عشيرة سنبر القوية، فتحالف معها، وتزوج من إحدى بناتها، وكان قوام هذا التحالف، القيادة له والمشورة لآل سنبر،

(١) نشرة الجزيرة العربية، العدد ٥، ص٢٤، أيلول ١٩٧٣.

واستمر العمل بهذه القاعدة حتى أسَّس دولته القرمطية في البحرين في العام التالي، فظلَّت السيادة لآل الجنّابي، واكتفى بنو سنبر بالوزارة.

تطلَّع الحسن الجنّابي إلى التوسع على حساب القرى والنواحي المجاورة، فقاتل بمن معه، من عصاه، حتى اشتدت شوكته، وكان لا يظفر بقرية إلا قتل أهلها ونهبها، فهابه الناس، ودخل كثير منهم في طاعته، وفرَّ من عارضه إلى بلدان شتى وبخاصة إلى البصرة خوفاً من شرِّه، ولم تمتنع عليه إلا هجر، وهي قصبة البحرين، وبها التجار والأغنياء، ووجوه القوم، فحاصرها، ولكنه لم يتمكَّن من دخولها والاستيلاء عليها، فتركها ونزل بالأحساء وبينها وبين هجر ميلان، فبنى بها دار هجرة، وجعلها قاعدة له، ومركزاً لقيادته وإدارة دولته، واعتنى بزراعتها، وكان يهاجم منها هجر بين الحين والآخر[١].

ودعا الحسن الجنّابي بني الأضبط من كلاب إلى دعوته، فأجابوه وساروا إليه بأُسَرِهم وأموالهم، فأنزلهم الأحساء، وأطمعوه ببني كلاب والقبائل المجاورة، فكلَّفهم بدعوتهم إلى حركته، واستعمال القوة في حال الرفض، فساروا إليهم وأكثروا من قتلهم حتى أرهبوهم، وأجبروهم على الدخول في الدعوة القرمطية، كما أجبروا بني عقيل على الدخول فيها أيضاً، وظفر الحسن الجنابي ببني ضبَّة، فتمَّ له بذلك الاستيلاء على القطيف والأحساء[٢].

بعد أن نجح الجنّابي في السيطرة على معظم مدن البحرين منذ بداية عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) لم يبقَ من مدن المنطقة خارج سلطته سوى مدينة هجر، وهي أكبر مدن المنطقة وأحصنها، فحاصرها بعد تغلُّبه على الجيش العباسي الذي أرسله الخليفة المعتضد بقيادة عباس بن عمرو الغنوي كما سيمر معنا، استمر الحصار نيفاً وعشرين شهراً، ولم تسقط المدينة إلا بعد أن قطع الماء عنها، فتضايق السكان، فاستسلم قسم منهم ودخلوا في طاعته، فنقلهم إلى الأحساء، وبقي قسم آخر في المدينة لم يدخلوا في طاعته فقتلهم جميعاً، واستولى على ما في المدينة ثم أمَّن أهلها[٣]، واتخذها عاصمة له، وكوَّنت مع الأحساء مدينة واحدة.

وعلى هذا الشكل قامت دولة قرامطة البحرين.

(١) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٤٢ ـ ٥٤٣. (٢) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٧١.
(٣) المصدر نفسه: ص٧٨.

الصدام الأول بين قرامطة البحرين والعباسيين: معركة آفان

بعد أن قوي أمر الحسن الجنابي واشتدت شوكته تطلَّع إلى التوسُّع في جنوبي العراق، وكانت البصرة هدفه الأول، فأرسل قوة عسكرية إلى نواحيها، فالتمس واليها أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي المساعدة من بغداد، فأرسل إليه الخليفة العباسي المعتضد قوة عسكرية مؤلَّفة من ثلاثمئة جندي كطليعة؛ ثم جهَّز جيشاً قوامه ألفي جندي بقيادة عباس بن عمرو الغنوي، وولّاه اليمامة والبحرين ومحاربة الحسن الجنّابي ومن معه من القرامطة، فتقدم باتجاه البحرين، وانضمَّ إليه جند من البدو، ومتطوعة البصرة والبحرانيين المناهضين للقرامطة، فبلغ عدد جنوده بين سبعة وعشرة آلاف رجل[1].

تقدم الجيش العباسي من البصرة، وقد خطَّط الغنوي أن يعسكر في آفان[2] على ماء الأعباء، وهي سبخة فيها نخل، طولها سبعة أميال، وينتظر وصول الجيش القرمطي للاصطدام به، غير أن الحسن الجنّابي سبقه إلى آفان، فنشر قواته البالغ عديدها نحو سبعمئة مقاتل من كلاب وعقيل وبحرانيين، واصطدم الطرفان في رحى معركة ضارية استمرت يومين، انتصر فيها الجيش القرمطي، والواقع أن الطرفين اشتبكا في اليوم الأول، فكانت الكفَّة متكافئة، ثم حجز الليل بينهما.

وما جرى خلال الليل من انسحابات في صفوف الجيش العباسي، حيث تخلَّى بنو ضبَّة ومطوعة البصرة عن الغنوي في أصعب الظروف؛ أضعف القوة الميدانية للجيش العباسي، ومع ذلك خاض الغنوي معركة في اليوم التالي بمن تبقَّى معه من القوّات، فتعرَّض للهزيمة، ووقع في الأسر مع سبعمئة مقاتل، وفرَّ من نجا باتجاه البصرة، وقد افتقروا إلى الأزواد والكساء، فأمدَّهم أهل البصرة بأربعمئة راحلة عليها الأطعمة والكسوة والماء، غير أن هذه المساعدة تعرَّضت لهجوم قام به بنو أسد، فاستولوا عليها وعلى ما تحويه، وقتلوا

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٥٠٩ ـ ٥١٠.
(٢) تبعد آفان عن البصرة سبعة أيام، وهي الأرض الواقعة بين القطيف والدمام المتاخمة لساحل البحر.

جماعة من حراسها وذلك في شهر (رمضان ٢٨٧هـ/ أيلول ٩٠٠م)، فاضطربت البصرة لذلك اضطراباً شديداً، وهمَّ أهلها بالانتقال عنها وقد تخوَّفوا من هجوم القرامطة عليهم، فمنعهم أحمد بن محمد الواثقي المتولي من ذلك، وقتل الحسن الجنّابي الأسرى في اليوم التالي، وأبقى على حياة الغنوي، وهو ينوي إرساله إلى بغداد بمهمة رسمية، فحمَّله رسالة إلى الخليفة العباسي المعتضد[1].

وصل الغنوي إلى بغداد في (١٩رمضان/ ١٦ أيلول)، فاجتمع بالخليفة في داره بالثريا وسلَّمه الرسالة وهي طويلة[2]، وعندما سمع المعتضد رواية الغنوي أطرق مفكراً، ثم رفع رأسه وقال: «كذب عدو الله الكافر، المسلمون رعيتي حيث كانوا في بلاد الله، والله لئن طال بي عمري لأشخصنَّ بنفسي إلى البصرة وجميع غلماني، ولأوجِّهنَّ إليه جيشاً كثيفاً، فإن هزمه وجَّهت جيشاً آخر، وإن هزمه خرجت في جميع قوادي وجيشي إليه حتى يحكم الله بيني وبينه»[3].

وعلى هذا يكون الحسن الجنّابي قد بلغ هدفه على الرغم من حنق الخليفة، فتجهيز حملة أخرى لم يعد أمراً وارداً؛ لأن المعتضد شُغل عن القرامطة بأمر وصيف غلام أبي الساج، الذي ثار في منطقة الثغور الشامية، ثم توفي في (ربيع الآخر ٢٨٩هـ/ آذار ٩٠٢م)[4].

أسباب انتصار القرامطة في معركة آفان

ـ تُعدُّ معركة آفان من المعارك المهمة في التاريخ القرمطي، وبخاصة أن الدولة القرمطية كانت في بداية التكوين، فقد ثبَّتت سلطة القرامطة على البحرين، وأتاحت الاستيلاء على هجر والانطلاق نحو مزيد من التوسع في الجنوب على حساب عُمان، وعدَّها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر القرمطي من عجائب الدنيا الثلاث التي حدَّدها، وهي:

أ ـ جيش العباس بن عمرو الغنوي، يؤسر العباس وحده، وينجو وحده، ويُقتل جميع أفراد جيشه.

ب ـ جيش عمرو بن الليث الصفّار، يسلم جميعه ويؤسر عمرو وحده،

(١) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٧٧ ـ ٧٨. ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٥١٠.
(٢) انظر نصّها عند: دي خويه، م.س: ص٤٥ ـ ٤٦.
(٣) النويري، م.س، م.س: جـ٢٥ ص١٤٤.
(٤) الطبري، م.س: جـ١٠ ص٨٥ ـ ٨٦.

والمعروف أن هذا الجيش كان يتألف من خمسين ألف جندي، وذهب ليحارب إسماعيل بن أحمد الساماني[1].

جـ ـ تولّي ابنَي أبي العباس الجسر ببغداد[2].

ـ صمود الجيش القرمطي القليل العدد بالمقارنة مع كثرة عدد أفراد الجيش العباسي، وقيل: إن القرامطة إذا كانوا في ألف حطموا مئة ألف وانتصروا بدليل قولهم: «نحن نُقدِّر السلامة في الثبوت، وهؤلاء (يعني أعداؤهم) يُقدِّرونها في الهروب»، الواقع أن سبب صمودهم يرجع إلى حال العصبية القرمطية التي يتمتعون بها، على خلاف الجيش العباسي الذي يتضمن عصبيات عدّة.

ـ اعتمد الحسن الجنّابي على أساليب تكتيكية ساعدته على كسب المعركة، منها بثُّ التفرقة بين أفراد جيش الغنوي، ويتضح ذلك من انسحاب أكثر من نصف الجيش بعد الليلة الأولى، ما أضعف قدرته القتالية، كما استخدم أسلوب الكرِّ والفرِّ بدليل توغُّل حملة نجاح، غلام أحمد بن عيسى الشيخ صاحب ميسرة الغنوي، في ميمنة جيش الحسن الجنّابي، فقُتلوا جميعاً، وعددهم زهاء مئة رجل.

ـ استغل الحسن الجنّابي شخصيته وصفاته القيادية وخبرته العسكرية في المعركة، وقد درَّب جنوده على خشونة العيش، والاستبسال في المعارك، وكان يعمل على بثِّ الرعب في صفوف أعدائه[3].

محاولة الحسن الجنّابي التوسع في البلاد المجاورة

حاول الحسن الجنّابي بعد استيلائه على هجر أن يتوسع باتجاه البلاد المجاورة للبحرين، أي اليمامة وعُمان، فبدأ باليمامة فأخضعها، أما الحملة على عُمان فقد أوصى بها بعض اللاجئين العُمانيين الذين أتوه ملتمسين المساعدة، وهذا يعني أن عُمان كانت تمرُّ بمرحلة تمزُّق سياسي وتناحر عسكري، وأن الحسن الجنّابي أراد استغلال هذه الظروف للسيطرة عليها.

وأرسل الزعيم القرمطي فرقة عسكرية مؤلفة من ستمئة جندي، وأردفهم

(١) انظر الحادثة عند ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٥١١.

(٢) المصدر نفسه: ص٥١٠. (٣) آل سلهام، م.س: ص٣٠٢ ـ ٣٠٤.

بستمئة آخرين، فتصدى لهم أهل عُمان، وجرى بينهما قتال، يبدو أنه كان ضارياً، حتى تفانوا، فبقي من العُمانيين خمسة نفر ومن القرامطة ستة نفر، فلحق هؤلاء بالحسن الجنّابي فأمر بقتلهم وقال: «هؤلاء خاسوا لعهدي ولم يواسوا أصحابهم الذين قُتلوا، وتطيَّر بهلاك السرية، وكفَّ عن أهل عُمان»[1].

وعلى هذا الشكل فشلت الحملة القرمطية على عُمان.

وأخذ الحسن الجنّابي، بعد هزيمة الجيش العباسي بقيادة الغنوي، في إعداد جيش لبسط سيادته على جنوبي العراق وما يجاوره من أنحاء الجزيرة الفراتية، «فأقبل على جمع الخيل، وإعداد السلاح، ونسج الدروع والمغافر، واتخاذ الإبل، وإصلاح الرجال، وضرب السيوف والأسنَّة، واتخاذ الروايا والزاد والقوت، وتعليم الصبيان الفروسية، وطرد الأعراب من قريته، وسدَّ الوجوه التي يتعرَّف منها أمر بلده وأحواله، بالرجال، وإصلاح أراضي المزارع، وأصول النخل... ونصَّب الأمناء على ذلك، وأقام العرفاء على الرجال، واحتاط على ذلك كله، وكان ذلك دأبه لا يغفله... ويوجِّه كل قليل خيلاً إلى ناحية البصرة فتأخذ من وجدت، وتسير بهم إليه، ويستعبدهم، فزادت بلاده، وعظمت هيبته في صدور الناس»[2].

مقتل الحسن الجنّابي

استطاع الحسن الجنّابي أن يؤسس دولة قرمطية في البحرين والأحساء، ويوطّد حكم القرامطة فيها منذ استيلائه على مدنها في عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) وحتى مقتله في عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م)[3]، واستولى خلال حياته السياسية على هجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين[4].

وكان سبب مقتله «أنه بعد أن هزم الجيش العباسي بقيادة الغنوي، واستولى على معسكره، أخذ خادماً صقلبياً، فاستخدمه وجعله على طعامه وشرابه، فمكث كذلك مدة طويلة لا يرى أبا سعيد فيها مصلّياً لله ﷻ صلاة واحدة، ولا يصوم في شهر رمضان، ولا في غيره يوماً واحداً، فأضمر

(١) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٤٤. (٢) المصدر نفسه: ص٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٣) في رواية للمسعودي أنه قُتل في عام ٣٠٠هـ. **التنبيه والأشراف**، م.س: ص٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٤) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٣١.

الخادم لذلك قتله، فدخل معه الحمّام يوماً، وكان الحمّام في داره، فأخذ الخادم معه خنجراً ماضياً، ولم يكن معه في الحمّام غيره، فلما تمكّن منه أضجعه فذبحه، ثم خرج فقال: السيد يستدعي فلاناً لبعض بني سنبر، فأُحضر، فقال: ادخل، فدخل، فبادر فقبض عليه وذبحه، ولم يزل يستدعي من رؤساء القرامطة واحداً واحداً حتى قتل جماعة من رؤساء الوجوه، إلى أن استدعى بعضهم، فنظر عند دخوله إلى باب البيت الأول دماً جارياً، فاستراب بذلك وخرج مبادراً، فلم يدركه الخادم، وأعلم الناس، وعمد الخادم إلى الباب فأغلقه، وكان وثيقاً، فاجتمع الناس ونقبوا ثقوباً إلى أن وصلوا إليه، فأخذه ابنه سعيد فأمر بشدِّه بالحبال ثم قرض لحمه بالمقاريض حتى مات»[1].

وفي رواية أن الحسن الجنّابي أراد الفاحشة في الخادم الصقلبي وقد راوده عن نفسه في الحمام بقصره، فقتله[2].

خلّف الحسن الجنّابي من الأولاد: أبا القاسم سعيداً، وأبا طاهر سليمان، وأبا منصور أحمد، وأبا العباس إبراهيم، والعباس محمد، وأبا يعقوب يوسف، وكان الحسن الجنّابي قد جمع رؤساء دولته، وأوصى إن حدث به موت يكون القيِّم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر سليمان، وكان هذا أصغر سناً من سعيد، فإذا كبر أبو طاهر سليمان كان المدبر، فلما قُتل جرى الأمر على ذلك[3]، وفي رواية أن الحسن الجنّابي عيَّن ابنه أبا القاسم سعيداً خلفاً له، وأن أبا طاهر سليمان وثب على المنصب، وجرَّد أخاه؛ لأنَّه عجز عن القيام بهذا الأمر[4]، ومما يؤكد هذه الرواية أن سعيداً هو البكر، ويبدو أن مجلس العقدانية قرَّر أن يعهد بتدبير الأمور إلى أبي طاهر سليمان بدلاً من أخيه سعيد الذي لم يرث شجاعة أبيه وحزمه.

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٣٠. ابن سنان، م.س: ص٢١١. المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٤٦.
(٢) الذهبي، أبو عبد الله محمد: **دول الإسلام**، حيدر آباد، ١٩١٨، جـ١ ص١٣٤.
(٣) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٤٦.
(٤) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٣٠.

عهد أبي طاهر سليمان

المرحلة الانتقالية

تسلَّم الحكم القرمطي في البحرين بعد مقتل الحسن الجنّابي، ابنه الأكبر أبو القاسم سعيد، ويبدو أنه لم يكن على قدر المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه، وعجز عن إدارة شؤون البلاد، ويمكن تأكيد ذلك بحالة الهدوء شبه التام التي مرَّ بها القرامطة في المرحلة الانتقالية التي استمرت خمس سنوات، وقام المجلس العقداني[1] بمهام الحكم حتى كبر أبو طاهر سليمان وتسلَّم الحكم في (رمضان ٣١٠هـ/ كانون الأول ٩٢٢م)، وعمره ستة عشر عاماً.

الواقع أن القرامطة في البحرين أعدّوا العدَّة منذ وفاة الحسن الجنّابي لاعتلاء ابنه أبي طاهر سليمان الحكم عندما يبلغ سنَّ الرشد ويقوى عوده؛ لأنَّهم لم يثقوا بقدرات أبي القاسم سعيد.

كان أول اختبار لأبي القاسم سعيد، هو الردُّ على رسالة الوزير العباسي علي بن عيسى، وزير الخليفة المقتدر، التي تتضمن تهديداً ووعيداً، وتقيم الدليل على فساد مذهب القرامطة، وكانت هذه الرسالة مرسلة إلى الحسن الجنّابي قبل مقتله، وعندما وصل الرسل الذين يحملونها إلى البصرة، علموا بمقتله، فتوقَّفوا، وراسلوا الوزير فيما يفعلونه، فأمرهم بمواصلة طريقهم إلى الأحساء وتسليم الرسالة إلى أولاده أو من يقوم مقامه[2]، وردَّ أبو القاسم سعيد عليها بقوله:

«إنَّا لم نخرج من الطاعة، ولكنا كنا قوماً مستورين، فنَقَم علينا ذلك فجّار من الناس لا دين لهم، فشنَّعوا علينا وقذفونا بالكبائر، ثم خرجوا إلى سبِّنا

(١) ظهر في عهد الحسن الجنّابي مجلس حاكم أُطلق عليه اسم: مجلس العقدانية، أو مجلس أهل الحل والعقد، شكَّله الحسن نفسه، وهو مؤلف من ستة من أبنائه يحكمون الناس بالعدل والقسط.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٣١.

وضربنا، ثم نادوا قد أجّلناكم ثلاثة أيام، فمن أقام بعدها أحلّ بنفسه العقوبة، فخرجنا، فوثبوا علينا قبل الأجل، وضربونا، وأغرمونا الأموال، فسألناهم أن يؤمِّنونا على أنفسنا فلم يفعلوا، وأمر صاحب البلد بقتلنا، فهربنا، فأخذوا حرمنا وسلبوهم سلباً قبيحاً، وانتهبوا منازلنا، فلجأنا إلى البادية، فخرج الناس إلى المعتضد بالله، فشنَّعوا علينا، فصدّق مقالتهم، وبعث إلينا من يخاصمنا، فدافعنا عن أنفسنا، فقويت وحشتنا من الخلق، وأما ما ادُّعي علينا من ترك الصلاة وغيرها، فلا يجوز قبول وعد إلا ببيِّنة، وإذا كان السلطان ينسبنا إلى الكفر بالله تعالى، فكيف يسألنا أن ندخل في طاعته»[1].

فلما وصل كتاب القرامطة، كتب الوزير إليهم كتاباً جميلاً وعدهم فيه بالخير.

ينمُّ الردُّ الذي بعثه أبو القاسم سعيد إلى الخليفة المقتدر عن مشاعر الاستقلال والإباء التي كان يتصف بها القرامطة في عهد والده، كما ينمُّ عن السخرية، ففيه من الغموض والمراوغة التي ساعدت القرامطة على انتزاع هدنة جديدة تمكَّنوا خلالها من ترتيب أوضاعهم الداخلية، فلم يصطدموا بالجيوش العباسية حتى عام (٣١٢هـ/ ٩٢٤م)، ويؤكد هذا الصدام عدم رغبتهم في العيش بسلام مع الدولة العباسية، والحصول على تسهيلات لتجارتهم، وكانت سياسة علي بن عيسى في مهادنتهم قد أثارت ضدَّه سيلاً من الانتقادات التي وصلت إلى حدِّ الاتِّهام بالخيانة، فعزله الخليفة ونفاه إلى اليمن وعيَّن أبا الحسن علي بن الفرات مكانه في (ذي الحجة ٣٠٤هـ/ حزيران ٩١٧م)[2].

الصدامات مع الخلافة العباسية

• تمهيد

شهدت مرحلة حكم الحسن الجنّابي تصادماً وقتالاً وجفاءً مع الخلافة العباسية، وأشهر أحداثها معركة آفان، حتى أن الخليفة المعتضد كان يرغب الانتقام من الزعيم القرمطي قبل وفاته، ولكن وافته المنيَّة قبل تحقيق رغبته، ثم شهدت المرحلة من تاريخ وفاة الحسن الجنّابي حتى استلام أبي طاهر

(١) ابن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، م.س: جـ١٣ ص١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٤٤ ـ ٦٤٥، وذكر ابن الأثير أسباب العزل وهي لا تتضمن العلاقة مع القرامطة.

سليمان الحكم مرحلة مهادنة لمجلس السادة مع العباسيين، وقد نفَّذوا وصية الحسن الجنّابي بتسليم ابنه أبي طاهر سليمان الحكم، فنهض لمقارعة الخلافة العباسية من أجل تحقيق ثلاثة أهداف: مادي وتوسعي والقضاء عليها، وقد حقَّق الهدف الأول فقط، صحيح أنه ضايق هذه الخلافة، إلا أنه بدا قاصراً عن النيل منها والقضاء عليها، وكان للخلافة من القوة المختزنة ما أتاح لها الصمود في وجهه وعدم تنفيذ رغباته.

اجتهد أبو طاهر سليمان أن يصطدم بالخلافة العباسية بعيداً عن البحرين، لذلك كان يُبادر بالهجوم على جيوشها قبل وصولها إلى مناطق نفوذه، وربما كان ذلك تحسُّباً لانتصار المهاجمين وحصارهم الأحساء، والملفت أن مناطق القرامطة لم تشهد اضطرابات بفعل انتقال القائد والجيش إلى خارج المنطقة وابتعادهم إلى الشام وفلسطين ومصر، الأمر الذي يعني استقرار الدولة، وولاء المواطنين للقيادة القرمطية، وهذا ما أتاح لأبي طاهر سليمان حريَّة الحركة، واعتماد أسلوب التهديد والهجوم في مواجهاته مع الخلافة العباسية التي لم تكن فتوحاً بقدر ما كانت مطالب بالدعم المادي لدولته، وتحدّياً سافراً للخلافة العباسية[1].

• مهاجمة البصرة

حدث أول تحرك قرمطي بعد مقتل الحسن الجنّابي عندما تلقَّى القرامطة أمراً من عبيد الله المهدي الفاطمي في أفريقيا بمساندة القائم، ولي العهد، في حملته على مصر، ولكن هذه المساعدة كانت ضئيلة لسببين:

الأول: فتور علاقة قرامطة البحرين بالدولة الفاطمية.

الثاني: فقد أرسل الخليفة العباسي المقتدر حملة عسكرية بقيادة مؤنس الخادم إلى مصر، سبقت القرامطة ومنعتهم من الاستجابة لدعوة الفاطميين، والمعروف أن الفاطميين بعد أن أسَّسوا دولتهم في أفريقيا، وتوسَّعوا على حساب القوى المجاورة، تطلَّعوا نحو مصر للاستيلاء عليها، والتمدد باتجاه الشرق للقضاء على الخلافة العباسية، فأرسلوا حملتين من أجل هذه الغاية

(١) الخليفة، مي محمد: **من سواد الكوفة إلى البحرين، القرامطة من فكرة إلى دولة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ص٢٨٢.

بقيادة ولي العهد القائم، الأولى في عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م)، والثانية في عام (٣٠٦هـ/ ٩١٩م)، لم تسفرا عن نتيجة إيجابية، واضطر القائم إلى الانسحاب من الاسكندرية بعد أن سيطر عليها، وعاد من حيث أتى.

كان أبو طاهر سليمان قائداً شجاعاً، وتحت شعار «لا طاعة إلا لله والحرب غداً»، بادر بشنّ حروبه ضد الخلافة العباسية، متحدياً سلطتها، وقد توافقت مصالحه مع مصالح الفاطميين في شمالي أفريقيا، ما استُخدم كأساس للبرهنة على وجود اتفاق خاص ووثيق للقرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان مع عبيد الله المهدي، إلا أنه بغضّ النظر عما يتطلبه إخفاء الاتفاق السرّي بين مختلف فروع الحركة الإسماعيلية من جهد، فإن الإطاحة بالعباسيين يبقى الهدف الأسمى.

بدأ أبو طاهر سليمان نشاطه العسكري ضد الخلافة العباسية في عام (٣١١هـ/ ٩٢٣م) بعد هدنة طويلة، فنهض متوجهاً إلى البصرة على رأس ألفين وسبعمئة مقاتل، في الوقت الذي كان فيه الفاطميون يهاجمون مصر على شكل حملات شبه دورية، ما عُدَّ اتفاقاً مسبقاً بين الطرفين، وحاصرها، ونصب سلالم من شعر على السور الذي يحيط بها، ارتقاها بعض جنوده، ودخلوا المدينة، فقتلوا الجنود الموكلين بالحراسة، وفتحوا أبوابها، فدخلها الجيش القرمطي، ووضع السيف في أهلها، كان والي البصرة آنذاك سبك المفلحي، فلم يشعر بهم إلا سَحَراً، ولم يعلم بأنهم قرامطة، واعتقد أنهم أعراب تجمَّعوا، فقُتل في المعركة، وهرب من نجا إلى الكلاء[1]، وطرح بعضهم أنفسهم في الماء، فغرق أكثرهم. أقام أبو طاهر سليمان مدة سبعة عشر يوماً في البصرة ثم نهبها وغادرها، وقد تضافرت عوامل عدَّة ساعدت القائد القرمطي على الدخول إلى المدينة منها:

- السلالم التي استخدمها لارتقاء السور.
- تهاون حرّاس الأبواب في الدفاع عن المدينة بسبب تأخُّر صرف أعطياتهم بفعل الفوضى الإدارية وتغيير الوزارة من علي بن عيسى إلى ابن الفرات.
- توكيل كبار السنّ بحراسة الأبواب.

(١) الكلاء: سوق مدينة البصرة.

- منع السلطة العباسية من تسليح الأهالي، فكان الآجرُّ وحده سلاح أهل البصرة في مواجهة الجيش القرمطي[1].

● **حادثة الهبير**[2]

جاء ردُّ الفعل العباسي سريعاً على مهاجمة القرامطة البصرة ونهبها، ففي محاولة للسيطرة على الوضع وإعادة تنشيط الحياة في المدينة، تصرَّف الخليفة العباسي على محورين:

الأول: أمر عامله محمد بن عبد الله الفارقي بالتوجه إلى البصرة للدفاع عنها أمام الهجوم القرمطي، فوصل إليها وقد رحل القرامطة عنها.

الثاني: عيَّن أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان، على أعمال الكوفة والسواد وطريق مكة، وأمره بالتصدي للقرامطة، ومنعهم من مهاجمة قوافل الحجاج.

قام الوالي بتجهيز جيش لملاقاة القائد القرمطي، وكان جيش القرامطة في جهوزية تامة للقائه، إذ كانت جواسيسه لا تنقطع عن العراق، وبعد عملية رصد دقيقة من قِبل هؤلاء تأكد أبو طاهر سليمان ترؤوس أبي الهيجاء قافلة الحجاج لموسم (٣١٢هـ/ ٩٢٥م)، فخطَّط لمهاجمتها أثناء عودتها من الديار المقدسة، وهو حريص على اغتنام أفضل الفرص للنهب والسلب، ولعل هذا كان سبباً جزئياً لتعلُّقه بالسيطرة على الطريق بين العراق ومكة، فقد كان يعلم، فضلاً عن ذلك، بأنه يسدِّد ضربة في أكثر الأماكن حساسية بالنسبة إلى المسلمين[3].

تحرَّك أبو طاهر سليمان على رأس جيش كثيف يُقدَّر بألف وثمانمئة مقاتل لاعتراض القافلة، ففاجأها عندما كانت تعبر سهل الهبير الرملي الممتد من محطة الأجفر حتى الشقوق، ومن جبال قبيلة طيء حتى بحر الخليج العربي، وكانت تضمُّ معظم الحجاج وبعض الشخصيات البارزة، من بينها أبي الهيجاء، واضطر هذا إلى خوض معركة فُرضت عليه، قُتل فيها الكثير من الطرفين، وقُدِّرت الخسائر البشرية بألفين ومئتي رجل وخمسمئة امرأة، وأسر ألفين ومئتي

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٨٥ ـ ٦٨٦. النويري، م.س: جـ٢٥ ص١٦٧.
(٢) الهبير: رمل زرود في طريق مكة. الحموي، م.س: جـ٥ ص٣٩٢.
(٣) دي خويه، م.س: ص٧٧.

رجل وثلاثمئة امرأة، كان من بينهم: أبو الهيجاء، وأحمد بن كشمرد، ونحرير الخادم، وأحمد بن بدر عم والدة الخليفة المقتدر، وكانت الغنائم ضخمة ضمَّت حوالي مليون دينار فضة وحوائج أخرى ومتاعاً ثميناً، كما وقعت الشمسية[١] بيد أبي طاهر سليمان[٢].

وصل خبر الحادثة إلى باقي الحجاج، وكانوا بفيد، وهي منزل على طريق مكة، فأقاموا بها حتى أكلوا زادهم، فارتحلوا مسرعين، وكان أبو الهيجاء قد أشار عليهم بالعودة إلى وادي القرى[٣]، فاستطالوا الطريق، ولم يقبلوا منه[٤].

ويبدو أن أبا الهيجاء كان على قدر كبير من الحنكة والدهاء والحيلة، فقد استخدم أسلوباً سياسياً، وأقنع أبا طاهر سليمان بالإفراج عن عدد من القادة الأسرى، من بينهم أحمد بن بدر، ونحرير الخادم وبدر الطائي صاحب الشمسية.

وأفرج أبو طاهر سليمان عن أبي الهيجاء وحمَّله رسالة إلى الخليفة العباسي المقتدر تتضمن شروطاً للتفاهم؛ كان من ضمنها أن يتنازل له الخليفة عن البصرة والأهواز وأن يُقرَّ بسيادته على تلك المناطق.

ويبدو أن مطالبة أبي طاهر سليمان بتلك المناطق تتقاطع مع توجهاته توحيد المناطق الموالية له، والمعروف أن القرامطة انطلقوا من الكوفة، وكانت البصرة هي الطريق إلى الأهواز والبحرين، بالإضافة إلى منفذ بحري يريد أبو طاهر سليمان استخدامه في حالة انقطاع الطريق البرّي[٥].

الواقع أن أعمال أبي طاهر سليمان العسكرية ضد قوافل الحج كانت بمثابة تحدٍّ كبير هزَّ كيان الخلافة العباسية والعالم الإسلامي، وهي استمرار لسفك

---

(١) الشمسية هي قرص مصنوع من الذهب ومرصع بالجواهر يُعلَّق على جدار الكعبة أثناء موسم الحج.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٨٩ ـ ٦٩٠. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة: جـ٣ ص٢١١.

(٣) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القرى. الحموي، م.س: جـ٥ ص٣٤٥.

(٤) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٩٠.

(٥) الخليفة، م.س: ص٢٨٤.

الدماء الذي قام به قرامطة الشام، وقد سار أبو طاهر سليمان على خطى زكرويه واحتذى حذوه، واستمر على ذلك طيلة عهده[١].

أقضَّت أعمال القرامطة العسكرية مضاجع الناس في بغداد، وسبَّبت انفجار السخط الشعبي على الوزير ابن الفرات الذي اتُّهم بالتشيع وممالأة القرامطة والتنسيق معهم، ولُقِّب بالقرمطي الكبير إهانة له، كما لُقِّب ابنه المحسن بالقرمطي الصغير، وقد أبعد هذا الوزير القادة الكبار عن بغداد، وعيَّنهم في مناطق الأطراف، مثل مؤنس الخادم الذي أبعده إلى الرقة، فأفرغ عاصمة الخلافة من القوة العسكرية، مُعرِّضاً الدولة إلى السقوط، ربما لتسهيل أمر القرامطة وأعمالهم العسكرية، وقد أنكر التُّهم الموجَّهة إليه، وهذا طبيعي في مثل هذا الموقف، فسجنه الخليفة وصادر أمواله قبل أن يُقتل مع ابنه المحسن[٢].

• مهاجمة الكوفة

رفض الخليفة العباسي المقتدر مطالب أبي طاهر سليمان، ما دفعه إلى استئناف تحدّيه للدولة العباسية، وتابع عادته السنوية بقطع طريق القوافل ومهاجمتها.

وحدث أن خرجت قافلة الحج من الكوفة في (ذي القعدة ٣١٢هـ/ شباط ٩٢٥م) يرافقها جيش عباسي بقيادة والي الكوفة جعفر بن ورقاء الشيباني يُقدَّر بألف مقاتل من بني شيبان، وسار مع الحجاج ثمل صاحب البحر، وجنى الصفواني، وطريف البكري وغيرهم في ستة آلاف مقاتل لحمايتها، فعلم بها أبو طاهر سليمان، وأراد مهاجمتها، فخرج من هجر إلى العقبة لاعتراضها قبل أن تصل إلى سهل الهبير الرملي، والتقى الطرفان، وجرى بينهما قتال ضارٍ، انهزم فيه الجيش العباسي الذي تراجع إلى الكوفة، واصطحب قافلة الحجاج معه وقد انحدرت إلى العقبة، فتبعهم أبو طاهر سليمان إلى باب الكوفة واشتبك مع الجيش العباسي، فانهزم جند الخليفة وتعرَّضوا للقتل، ودخل القائد القرمطي الكوفة وبقي فيها ستة أيام، وقد تحمَّل أهلها الفَظائع، والأشد

---

(١) عليان، محمد عبد الفتاح: **قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين**، القاهرة، ١٩٧٠م: ص١٥٠.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٩٠ ـ ٦٩٥.

من ذلك أنهم أُجبروا على مشاهدة تدنيس القرمطي للمسجد الجامع؛ إذ أقام فيه هو وطلائعه، وغنم كثيراً من الغنائم مما وجده في خزانة الولاية من الأموال الطائلة والمؤن المُعدَّة[1]، ودخل المنهزمون بغداد، فاشتد جزع الخليفة، فاستدعى مؤنساً الخادم وأمره بالمسير مع رجاله إلى الكوفة لقتال القرامطة، فلم يصل إليها إلا بعد انسحابهم منها وعودتهم إلى هجر، فجاءه الأمر من الخليفة بالمرابطة في واسط ليحمي البصرة والكوفة وبغداد[2].

• الأوضاع العامة في دار الخلافة

كان وضع الخليفة العباسي المقتدر آنذاك حرجاً، فقد تعرَّض لأزمات خارجية وداخلية عدة، نذكر منها:

- تهديد البيزنطيين لمناطق الثغور الإسلامية، الأمر الذي استدعى إرسال جيش بقيادة مؤنس الخادم لحمايتها من الغارات البيزنطية.
- تعرُّض الدولة لنقص في القادة، ولاستدراك ذلك، أفرج الخليفة عن يوسف بن أبي الساج، وكان مسجوناً، وقلَّده نواحي المشرق، ما وضعه في مواجهة مباشرة مع الخطر القرمطي القادم من هجر.
- ظهور الدولة السامانية في المشرق، ومحاولاتها اقتطاع أجزاء أخرى من أراضي الدولة في الرَّيِّ (طهران حالياً)، وقطعت الخراج عن دار الخلافة.
- تردّي الأوضاع الداخلية، فعيَّن الخليفة علي بن عيسى في الوزارة مرَّة أخرى، وكلَّفه بإصلاحها.
- استقطاب بعض أمراء الأطراف لاتقاء طموحاتهم التوسعية، من ذلك: أن الخليفة اصطلح مع الحمدانيين في شمالي العراق، وعيَّن أبا الهيجاء عبد الله ابن حمدان مسؤولاً عن الخراج والضياع في الموصل وقردى وبازبدي.
- على الرغم من تلك المحاولات لضبط الأوضاع، شهدت الخلافة مؤامرات داخلية وصراعاً على المناصب.

الواقع أن تلك الأخطار لم تكن خافية على أبي طاهر سليمان الذي كان يتجهز لإشعال ثورة شاملة في محاولة أخيرة للقضاء على خلافة بني العباس.

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٩٧. (٢) المصدر نفسه: ص٦٩٨.

• التوغل القرمطي في الشمال وتداعياته

استأنف أبو طاهر سليمان أعماله العسكرية ضد قوافل الحجاج، فاعترض في (ذي القعدة ٣١٣هـ/ شباط ٩٢٦م) قافلة الحج في زبالة[1]، فقاتله جند الخليفة فانهزموا، فوضع إتاوة على الحجاج، وأخذها منهم، مقابل أن يكفَّ عنهم، ثم عاد إلى الأحساء، وسار الحجاج إلى مكة[2].

انتقل مركز القرامطة في عام (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) من القطيف إلى الأحساء على أثر خلاف الهيئة العقدانية مع أهل البحرين، فبنى أبو طاهر سليمان الأحساء وسمّاها المؤمنية وانتقل إليها، والمعروف أن أهل القطيف لم يتبعوا المذهب الشيعي الإسماعيلي.

واستؤنف القتال بين العباسيين والقرامطة في تلك السنة، فقد عيَّن الخليفة العباسي المقتدر يوسف بن أبي الساج، أمير أذربيجان والجبال، على نواحي المشرق، بناء على اقتراح الوزير الخصيبي، وأذن له في أخذ أموالها وصرفها على قادته وجيشه، على أن يسير إلى واسط لمحاربة أبي طاهر سليمان.

ويبدو أن ذلك القائد كان معتدّاً بنفسه، وبفعل شعوره بأنه لا غنى عنه، جعله متطلِّباً، فلم يتحرك بجيشه البالغ عشرين ألف مقاتل نظامي إلا في آخر شهر (رمضان ٣١٥هـ/ تشرين الثاني ٩٢٧م)[3]، ويبدو أن تأخُّره ناتج عن صعوبات مالية.

وانطلق أبو طاهر سليمان في هذه الأثناء من هجر إلى الكوفة لخوض معركته ضد الدولة العباسية التي عدَّها فاصلة، على رأس جيش بلغ تعداده ألفاً وخمسمئة رجل، منهم سبعمئة فارس وثمانمئة راجل، وفي رواية كانوا ألفين وسبعمئة[4]، فوصل إليها في آخر شهر رمضان، فهرب نوّاب الخليفة منها، فدخلها أبو طاهر سليمان يوم الخميس (٧ شوال/ ٥ كانون الأول)، واستولى عليها وعلى ما تحويه من المؤن، وكان بأمسِّ الحاجة إليها بسبب نفاد مؤنه، وتقوَّى بها.

---

(١) زبالة: منزل على طريق مكة من الكوفة. الحموي، م.س: جـ٣ ص١٢٩.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٠٢. (٣) المصدر نفسه: ص٧١١.
(٤) المصدر نفسه: ص٧١٣.

ووصل الجيش العباسي إلى الكوفة في اليوم التالي، فاستهزأ قائده بخصمه، واحتقر قلَّة عدد أفراد جيشه، ويبدو أنه كان واثقاً من النصر بدليل قوله: «إن هؤلاء الكلاب بعد ساعة في يدي»، كما أنه كتب رسائل النصر إلى الخليفة قبل بدء المعركة وراح يساوم أبا طاهر سليمان على الطاعة، فأجابه: «لا طاعة علينا إلا لله تعالى، والوعد بيننا للحرب غداً»[1].

وجرى اللقاء بين الطرفين يوم السبت، فزحفت العساكر بعضها إلى بعض واقتتلت طيلة النهار، ويبدو أن أبا طاهر لم يشترك في القتال في بداية المعركة ومكث ملازماً قبَّته تحت حراسة مئتين من فرسانه الأشدّاء، إلى أن أشتد القتال ورجحت كفَّة الجيش العباسي، وجُرح عدد من أتباعه، عندئذٍ امتطى جواده، وقاتل مع حرسه إلى أن كسب المعركة، وهُزم يوسف بن أبي الساج، ووقع في الأسر بعد أن جُرح، فقام طبيب أبي طاهر بعلاجه، وعاد المنهزمون إلى بغداد، حفاة عراة، تسبقهم الأخبار المروِّعة، فعمَّ الخوف، وعزم السكان على الهرب إلى حلوان وهمذان خوفاً من القرامطة[2]، وعسكر أبو طاهر سليمان في عين التمر القريبة من الأنبار.

لم يركن الخليفة العباسي المقتدر إلى الهدوء بعد هزيمة جيشه، فأرسل قائده مؤنس المظفَّر العائد من الثغور، على رأس جيش تعداده ستة آلاف مقاتل، للتصدّي لأبي طاهر سليمان، ومنعه من عبور نهر الفرات قادماً من عين التمر، وتخليص يوسف بن أبي الساج.

وعلم القائد العباسي عندما خرج من بغداد، أن القرامطة ساروا إلى عين التمر في طريقهم إلى بغداد، فأرسل خمسمئة سميرية (سفينة) لتمنعهم من عبور نهر الفرات، وأرسل فرقة عسكرية إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من الاستيلاء عليها.

وقصد القرامطة الأنبار، فقطع أهلها الجسر، فنزلوا غرب الفرات، وأرسل أبو طاهر سليمان قوة عسكرية إلى حديثة الفرات، وتقع على فراسخ من الأنبار، فأتته بسفن، فعبر النهر وقاتل الجيش العباسي وهزمه، وقتل منه جماعة، واستولى على مدينة الأنبار.

---

(1) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧١١. المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٦٠.

(2) ابن الأثير، المصدر نفسه: ص٧١٢.

وعندما علم الخليفة بذلك، أرسل قوة عسكرية بقيادة نصر الحاجب لمساعدة مؤنس المظفر، فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل سوى الغلمان ومن يريد النهب، وساروا جميعاً حتى بلغوا زبارة، على فرسخين من بغداد عند عقرقوف[1]، وقطعوا القنطرة التي على نهر زبارة بناء على إشارة أبي الهيجاء بن عبد الله بن حمدان، لمنع أبي طاهر سليمان من عبور النهر.

ووصل أبو طاهر سليمان في غضون ذلك إلى زبارة وعسكر غربي الفرات، فأرسل مؤنس المظفر فرقة عسكرية مؤلَّفة من ستة آلاف مقاتل بقيادة بليق، إلى المعسكر القرمطي، فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً أسفر عن انتصار أبي طاهر سليمان، وهُزم الجيش العباسي، وقد نظر أبو طاهر سليمان إلى يوسف ابن أبي الساج وقد خرج من خيمته ينتظر ويرجو الخلاص، وقد ناداه أصحابه، «أبشر بالفرج» فلما انهزموا، أحضره أبو طاهر سليمان وقتله، كما قتل جميع الأسرى من أصحابه[2].

وهكذا بلغ أبو طاهر سليمان غايته، فغنم غنائم وافرة، ونشر الرعب، وكان الناس يتوقعون دخول جيش الخليفة إلى هجر منتصراً، لكنهم رأوا عاصمتهم بدلاً من ذلك واقعة تحت تهديد القرامطة.

وهاجم القرامطة بعد انتصارهم مدينة هيت[3]، وبها هارون بن غريب، وسعيد بن حمدان، فقاتلاهم من فوق سورها بالمنجنيقات، وقتلا منهم عدداً، وفشل أبو طاهر سليمان في دخول المدينة، فسكنت نفوس البغداديين، وتصدَّق الخليفة العباسي المقتدر بمئة ألف درهم[4].

ونُدب مؤنس المظفر للخروج إلى الرقَّة، وهي مدينة على الفرات، للتصدي لأبي طاهر سليمان الذي استولى على الرحبة[5] بالقوة، وقتل أهلها وفرض

---

(1) عقرقوف، قرية من نوحي دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ. الحموي، م.س: جـ٤ ص١٣٧.

(2) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧١٢ ـ ٧١٣. المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٦٠ ـ ٥٦١.

(3) هيت، بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار. الحموي، م.س: جـ٥ ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

(4) الهمذاني، محمد بن عبد الملك: **تكملة تاريخ الطبري**، بيروت، ١٩٥٩م: ص٥٥.

(5) الرحبة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة عن يسار الحجاج إذا أرادوا مكة. الحموي، م.س: جـ٣ ص٣٣.

على من نجا من أهلها ديناراً على كل بيت، وأرسل أهل قرقيسياء[1] يطلبون منه الأمان، فأمَّنهم[2].

التفت أبو طاهر بعد ذلك إلى هيت، فجدَّد هجومه عليها، ولكنه لم يتمكَّن من اقتحامها، فأتى الكوفة، وجاء إلى قصر ابن هبيرة، فخرج إليه نصر الحاجب، وكان محموماً، لكن لم يجرِ بينهما قتال، ثم توفي نصر وهو في طريقه إلى بغداد[3].

• محاولة قرامطة السواد إثارة الاضطرابات

جرت في سواد الكوفة في عام (٣١٦هـ/٩٢٨م) محاولة داخلية للثورة على الدولة العباسية وإثارة الاضطرابات الداخلية، فقد استغل قرامطة السواد انهماك الجيش العباسي في الحرب مع قرامطة هجر، وثاروا في السواد، فجمعوا عشرة آلاف مسلَّح وأعلنوا الاستقلال عن الدولة، واجتمعوا في سواد واسط بقيادة حريث بن مسعود، كما اجتمعت طائفة أخرى منهم في عين التمر ونواحيها، وولَّوا عليهم رجلاً يُدعى عيسى بن موسى، وقد دعوا إلى المهدي، فسار الأول إلى أعمال المُوفَّقي وبنى فيها داراً سماها دار الهجرة، وتقدم الثاني نحو الكوفة[3].

قلَّد الخليفة العباسي المقتدر بني ابن نفيس أمر حرب قرامطة السواد، فقاتلهم، إلا أنه تعرَّض للهزيمة، فأرسل الخليفة قوة عسكرية إلى حريث ابن مسعود ومن معه بقيادة هارون بن غريب، وقوة عسكرية أخرى إلى عيسى بن موسى ومن معه، بقيادة صافي البصري، فهزمهم هارون وأسر منهم كثيراً وقتل أكثر ممن أسر، وهزم صافي من سار إليه[4].

وهكذا تمَّ القضاء نهائياً على آخر وجود قرمطي في السواد، ولم يكن هناك مجال جديد تنفذ منه الجيوش القرمطية القادمة من هجر في مواجهاتها الأخرى

(١) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق، على ستة فراسخ، وعندها مصبُّ الخابور في الفرات. الحموي، م.س: جـ٤ ص٣٢٨.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٢٠.
(٣) الهمذاني، م.س: ص٥٦. ابن الأثير، المصدر نفسه: ص٧٢٤ ـ ٧٢٥.
(٤) الهمذاني، المصدر نفسه: ١٨٦ ـ ١٨٧.

مع الدولة العباسية على أرض العراق، فكان لا بدَّ من فتح جبهة جديدة بعيداً عن بغداد، فكانت مكة، حيث النصر مؤكد والعائدات المادية مُغرية[1].

• الصراع على السلطة في بغداد

انتزع الوزير علي بن عيسى هدنة مؤقتة من القرامطة، عبر إمدادهم بالمال والسلاح، فاستطاع بذلك تهدئتهم بعض الشيء، إذ إن الحوادث التي هزَّت العالم الإسلامي مثل غزو مكة، ونهب الكعبة، لم تقع إلا بعد استقالته، فاتهمه الوزير ابن الفرات بعلاقات مشبوهة مع القرامطة، ولقَّبه بالقرمطي.

أقرَّ هذا الوزير بإرسال الهدايا والسلاح إلى القرامطة، ولكن بهدف استقطابهم، وإدخالهم في الطاعة، وكفِّهم عن الحجاج وأعمال الكوفة، بدليل أنهم أطلقوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين، وعلى الرغم من ذلك عوقب علي بن عيسى بمصادرة أمواله وأملاكه ونُفي إلى اليمن[2].

تزامنت هذه الأحداث مع عزل الخليفة العباسي المقتدر وتعيين أخيه القاهر مكانه في ظل الصراع الداخلي على السلطة بين القادة الذين انقسموا إلى قسمين:

ضمَّ **الأول**، مؤنس المظفر ونازوك صاحب الشرطة، وأبو الهيجاء عبد الله ابن حمدان، وقد رشَّحوا القاهر محمد أخا الخليفة المقتدر ليتولّى منصب الخليفة بدلاً من أخيه.

وضمَّ **الثاني**، هارون بن غريب، وأحمد بن كيغلغ، والغلمان الحجرية والرجالة المصافية وغيرهم، وقد التفّوا حول الخليفة المقتدر.

نجح أفراد القسم الأول في عزل الخليفة المقتدر وتنصيب أخيه القاهر مكانه، وذلك في (١٥ محرم ٣١٦هـ/ ١١ آذار ٩٢٨م)، وسجنوه مع أسرته في دار مؤنس المظفر، وما جرى بعد ذلك من انتفاضة بعض الفرق العسكرية وبخاصة الرجالة المصافية المُطالِبة بأرزاقها، وقد حقدوا على نازوك الذي طردهم من دار الخلافة، وأحلَّ أنصاره محلَّهم، واستطاع هؤلاء فرض

(١) الخليفة، م.س: ص٢٩٥.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٣٨ ـ ٧٤١.

إرادتهم، فقتلوا نازوك وأبا الهيجاء، وأعادوا الخليفة المقتدر إلى منصبه، وذلك في (١٧ محرم/ ١٣ آذار) أي بعد يومين من عزله، وخشي القاهر على نفسه، فطمأنه أخوه وأدناه من مجلسه[1].

• غزو مكة

استغل أبو طاهر سليمان الأوضاع القلقة التي كانت تمرُّ بها الخلافة العباسية، فانطلق إلى مكة على رأس جيش يُقدَّر بستمئة فارس وتسعمئة راجل، في (ذي الحجة ٣١٧هـ/ كانون الثاني ٩٣٠م)، وهي المركز الديني الأساس والمهم للمسلمين، متحدياً السلطة العباسية الحاكمة والمسلمين بعامة، فخرج إليه ابن محلب أمير مكة في جماعة من الأعيان لاسترضائه بالمال، فرفض، فاصطدموا به فقتلهم كلهم، وعبث بالحجاج وهو على فرسه، وداسهم وقتلهم في المسجد الحرام يوم التروية في الثامن من ذي الحجة، وارتكب مجزرة رهيبة بحقِّهم.

بقي القرامطة في مكة المنكوبة مدة ثمانية أيام أو أحد عشر يوماً، ثم غادروها عائدين إلى هجر وقد حملوا معهم الحجر الأسود بعد أن اقتلعوه من الكعبة.

تعقيب على غزو مكة

ـ اقتصرت ردود فعل الخليفة العباسي المقتدر على توجيه الإنذارات، وإطلاق التهديدات ضدَّ الزعيم القرمطي، لعجزه عن التصدّي له[2]، فقد كتب إليه يتوعَّده على ما استحلَّه في مكة، فأجابه أبو طاهر سليمان بكتاب شديد اللهجة، يستحقره فيه.

ـ أدَّت هذه الحادثة إلى التقليل من هيبة الخلافة العباسية، وأثبتت عجزها عن حماية نفسها ورعاياها، وتأمين طريق الحج، في الوقت الذي أخذ فيه نفوذ الفاطميين يتعاظم.

ـ يتحمل أبو طاهر سليمان المسؤولية الكاملة عن هجومه على مكة، وما

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٣٨ ـ ٧٤١.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٤٢.

ترتَّب عليه من نتائج، وبدا للعديد من الناس أنه يعمل بتوجيه من عبيد الله المهدي في القيروان بأفريقيا، وبخاصة بعد أن عدَّ هذا الأخير، الخليفة العباسي فاسقاً، وسعى إلى الغضِّ من شأنه، والقضاء على الخلافة العباسية، والمعروف أن شكوكاً واسعة الانتشار كانت تحوم، إبان تلك السنوات، مفادها أن الحركتين الشيعيتين في شمالي أفريقيا والبحرين كانتا تعملان معاً يداً بيد، وحتى يُبعد الشكوك التي ثارت حول تورُّطه في ذلك العمل الشائن، أظهر عبيد الله المهدي استياءه، وكتب إلى أبي طاهر سليمان من القيروان مستنكراً ومُحذِّراً، ويأمره بردِّ الحجر الأسود فوراً، وإعادة كسوة الكعبة، وما أخذه من الحجاج[1].

ـ أرسل أبو طاهر سليمان إلى عبيد الله المهدي ردّاً على كتابه قائلاً إنه غير قادر علىٰ إعادة الحياة إلىٰ الذين قُتلوا، ولكنه وعد بأنه سيعمل على إعادة الحجر الأسود إلى بيت الله الحرام، ولا يمكن تفسير هذه الرسالة وذلك الردّ، على أنهما برهان على وحدة القرامطة والفاطميين أو على استمرارية هذه الوحدة، إذ لم تتم إعادة الحجر الأسود إلا في (ذي القعدة ٣٣٩هـ/ نيسان ٩٥١م)[2] أي بعد اثنين وعشرين عاماً، وبعد وفاة أبي طاهر سليمان بسنوات، وكان بجكم المتغلِّب على الدولة العباسية في أيام الخليفة العباسي المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٤٦م) على استعداد لدفع مبلغ خمسين ألف دينار من الذهب، على أن يردُّوه، فأبوا[3]، ويدل ذلك على أن الكسب المادي لم يكن من أولويات القرامطة بعد وفاة أبي طاهر سليمان، وأن تعطيل الشريعة الإسلامية كان الهدف الأسمى.

ـ يبدو أن معركة مكة كانت مواجهة بين القرامطة والدولتين العباسية والفاطمية، وكان العدوان على الحجاج أمراً رهيباً، وعملاً مرفوضاً، ولكننا قد نجد تفسيراً له في:

١ ـ الاعتقاد الديني: فالقرامطة يشكِّلون إحدى الفرق الدينية الباطنية، والمعروف أن الباطنيين يتَّصفون بالتطرف الشديد في آرائهم الدينية، ويُعطِّلون الشرائع من خلال تفسيرها تفسيراً باطنياً، وإن اقتلاع الحجر الأسود من

(١) انظر نص الكتاب عند ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٧٤٢.

(٢) المصدر نفسه: جـ٧ ص١٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

الكعبة وحمله إلى خارج مكة يعطِّل فريضة الحج، وهذا ما هدفوا إليه.

٢ ـ الحالة السياسية: كانت الخلافة العباسية تمرُّ آنذاك بمرحلة فوضى سياسية بفعل الصراع الداخلي بين القادة الأتراك، ثم بينهم وبين الخليفة، وتفشَّت في المجتمع العباسي ظاهرة تكوين دول انفصالية في مناطق الأطراف على حساب الخلافة، كان من بينها دولة القرامطة في البحرين، وقد سعت إلى التوسُّع والقضاء على الخلافة العباسية ووراثتها في المشرق الإسلامي، ومواجهة الدولة الفاطمية في شمالي أفريقيا التي بدأت ترنو ببصرها نحو الشرق.

٣ ـ الحالة الاقتصادية: تردَّت آنذاك أوضاع القرامطة الاقتصادية بعد معارك العراق، والخسائر المادية والبشرية التي تكبَّدوها في تلك الحروب، فكان لا بدَّ من توفير المال اللازم كي تستمر تلك الدولة، وتُشكل ظاهرة سلب الحجاج غنيمة دسمة يمكن أن تسدَّ حاجة اقتصادية مُلحَّة.

٤ ـ الحالة النفسية: إن الجرأة في التعدي على المقدسات الإسلامية وقتل الحجاج في مكة، المدينة الإسلامية المقدَّسة، يعطيهم هيبة، ورهبة في نفوس المسلمين.

وقد تمَّ من ذلك الواقع الديني والسياسي والاقتصادي والنفسي، ذلك العدوان، أما إعادة الحجر الأسود، فقد تمَّ تحت ضغط ظروف سياسية تمثَّلت باشتداد شوكة الفاطميين، ومن أجل تحقيق هدنة مع العباسيين تحسُّباً لمواجهات مقبلة معهم، هذا على الرغم من أنهم فسَّروا حادثة إعادته تفسيراً يتوافق مع اعتقادهم الديني، «أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئته»، «أخذناه بأمر ولن نعيده إلا بأمره»[١].

ويبدو أن جزم القرامطة بأنهم كانوا يعملون بأمر، لم يكن يعني إحالة مسؤولية تلك الأفعال ونقلها إلى شخص مُعيَّن، ففي جذور هذا الأمر يكمن أحد معتقداتهم الأساس، وهو أن كل شيء يحدث كان مُقدَّراً له بالضبط أن يحدث، وأنهم وحدهم كانوا على معرفة، بوصفهم المؤمنين الحقيقيين بهذا القَدَر، وفي رواية أنهم اقتلعوه بأمر من إمامهم عبيد الله، ولن يعيدوه إلا بأمر

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص١٩٠.

منه أو من خَلَفِه[١]، وتتفرَّد هذه الرواية بتحديد اسم الشخص المسؤول، وتدلُّ قرائن الأحداث على استبعاد ذلك.

أحداث متفرقة

عاد أبو طاهر سليمان إلى هجر ومعه الحجر الأسود، إلا أنه ظلَّ يتطلع إلى القضاء على الدولة العباسية، وبعد توسُّعه في عُمان عام (٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، ارتدَّ إلى العراق للسيطرة عليه، فهاجم الكوفة في (رمضان ٣١٩هـ/ أيلول ٩٣١م)، وشدَّد عليها، فذُعر السكان الذين هرب معظمهم إلى بغداد، وبعد أن مكث فيها مدَّة خمسين يوماً، غادرها عائداً إلى هجر[٢]، وعاقداً العزم على القضاء على الخلافة العباسية.

وأرسل أبو طاهر سليمان قوة عسكرية إلى بلاد فارس في عام (٣٢١هـ/ ٩٣٣م) في نحو أربعين مركباً من دون سبب ظاهر، فوضع أفرادها السيف في أهل الساحل، ولم يلقوا أحداً إلا قتلوه، من رجل وامرأة وصبي، فما نجا منهم إلا من لحق بالجبال، فتصدى لهم الأهالي، فقتلوا الكثير منهم، وأسروا جماعة حملوهم إلى بغداد، فحُبسوا هناك[٣].

أزعجت الغزوات التي نفَّذها أبو طاهر سليمان ضد الكوفة، وتعرُّضه للحجاج؛ الخليفة العباسي القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٣٤م) الذي خلف أخاه المقتدر، ويبدو أنه وجد نفسه عاجزاً عن وضع حدٍّ لتعدّياته، فمال إلى المهادنة، والملاطفة، والالتماس منه عدم التعرُّض إلى الحجاج، وأن يردَّ الحجر الأسود، فأرسل حاجبه محمد بن ياقوت رسولاً إلى هجر لدعوة أبي طاهر سليمان إلى طاعة الخليفة والكفِّ عن الحجاج، وردِّ الحجر الأسود إلى موضعه، مقابل إقراره على ما بيده من البلاد، وتقليده بعد ذلك ما شاء من البلدان.

وافق أبو طاهر سليمان على الكفِّ عن الحجاج، وألا يتعرَّض لهم، ولم يُجب على مسألة ردِّ الحجر الأسود إلى مكة، وسأل أن تُطلق له المسيرة من

(١) ابن خلدون: **العبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة الجمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م: جـ٤ ص٩٤.

(٢) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٦١.

(٣) المصدر نفسه.

البصرة، ليخطب للخليفة في أعمال هجر، فسار الحجاج إلى مكة، ولم يتعرَّض لهم القرامطة[1].

لم يستمر أمر عدم التعرُّض للحجاج أكثر من سنة، إذ لم يلبث أبو طاهر سليمان أن عاد إلى سيرته الأولى باعتراض قوافل الحجاج، وذلك في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) في عهد الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) الذي خلف القاهر، فاعترض قافلة عند القادسية، واشتبك مع حراسها، فخرج بعض العلويين الشيعة من الكوفة، وطلبوا منه أن يكفَّ عن الحجاج، ففعل، لكنه اشترط أن يعودوا إلى بغداد، فعادوا، ولم يحج في هذه السنة أحد من العراق[2].

الواقع أن الحج من جهة درب العراق قد تعطَّل بين عامي (٣١٧ ـ ٣٢٧هـ/ ٩٢٩ ـ ٩٣٨م)، ولم يأت الحلُّ إلا في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) بعد اتصال أبو علي عمر بن يحيى العلوي بأبي طاهر سليمان، والطلب منه إطلاق الحج على أن يعطيه مقابل ذلك عن كل جمل خمسة دنانير، وعلى المحمل سبعة دنانير، فوافق وحج الناس، وأخذ القرامطة منذ ذلك الوقت الضرائب من الحجاج[3]، وصارت الدولة العباسية تُرسل مع أمير قافلة الحج المال المطلوب ليدفعه إلى القرامطة، وعُرف ذلك بالبذرقة[4]، وقبض أبو الحسين ابن معمر هذه الضريبة لأول مرة في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) في محطة زبالة، وأضحى أبو طاهر سليمان حارساً لطريق الحج، وكان يتقاضى مخصصات مالية من الخليفة العباسي في بغداد[5].

وفاة أبي طاهر سليمان

توفي أبو طاهر سليمان في (رمضان ٣٣٢هـ/ أيار ٩٤٤م) بسبب إصابته بالجدري، وقد ملك البحرين إحدى وثلاثين سنة تقريباً، واتُّهم بالمجوسية

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٢٩.

(٢) المصدر نفسه: جـ٧ ص٤٣.

(٣) ابن تغري بردي، م.س: جـ٣ ص٢٦٤.

(٤) البذرقة كلمة فارسية، معناها: الخفَّارة.

(٥) علم الدين، م.س: ص٢٦٠.

والزندقة[1]، ثم إنَّ تظاهره بالتشيع، وقوله برجعة المهدي المنتظر؛ كان نفاقاً لخدعة أتباعه، وكان قد دخل الكوفة أكثر من مرة ولم يزر قبر علي بن أبي طالب، واجتاز الحائر مدفن الإمام الحسين بن علي ولم يزره، والواضح أن القرامطة بعامة كانوا يمخرقون[2] بالمهدي، ويوهمون أنه صاحب المغرب، ويراسلون إسماعيل بن محمد صاحب المهدية المقيم بالقيروان[3]، ويدلُّ ذلك على أنهم كانوا ينافقون، وأنهم لم يُخلصوا لآل البيت مع ادِّعائهم النضال من أجلهم.

وذكر ابن تغري بردي حول وفاة أبي طاهر سليمان: «هلك الخبيث الطريد من رحمة الله، أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي الهجري القرمطي في شهر رمضان بالجدري، بعد أن رأى في نفسه العبر، وتقطَّعت أوصاله، وهو الذي قتل الحجيج واستباحهم غير مرَّة، وقلع الحجر الأسود»[4].

---

(١) الزنادقة: هم من يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإسلام، وبخاصة أولئك الذين يعتنقون مذهب الثنوية، وشملت في القرن الثاني للهجرة كل مسلم منشق أو ذي بدعة أو ملحد.

(٢) مخرق: موَّه، كذب، اختلق.

(٣) ابن الجوزي: **المنتظم**، م.س: جـ١٣ ص٢٨٣.

(٤) ابن تغري بردي، م. س: جـ٣ ص٢٨١.

في عهد أبي منصور أحمد بن الحسن الجنّابي

الصراع الداخلي على السلطة

حصل بعد وفاة أبي طاهر سليمان انشقاق داخل الحركة القرمطية أثَّر سلباً على تاريخها، فقد انقسمت أسرة أبي سعيد الحسن الجنّابي إلى قسمين متنافسين:

تمثل الأول بأبناء أبي طاهر سليمان بزعامة ابنه الأكبر سابور.

وتمثل الثاني بأبي المنصور أحمد بن أبي سعيد الحسن الجنّابي وأبنائه.

وتقاسم الطرفان ولاء مجلس العقدانية.

والراجح أن سعيد بن الحسن الجنّابي تولّى زمام الحكم في البحرين بعد وفاة أخيه أبي طاهر سليمان بانتظار صدور قرار الخليفة الفاطمي أبي طاهر إسماعيل المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٥٣م)، في الأمر، وكان مجلس العقدانية قد اقترح أن يتسلم الحكم سابور، الابن الأكبر لأبي طاهر سليمان عقب وفاة والده، لكن قرار الخليفة جاء مغايراً، وتضمَّن أن يؤول الحكم إلى أبي منصور أحمد بن الحسن الجنّابي وهو الابن الثالث للحسن في الترتيب، ويأتي بعد أبي طاهر سليمان، ويكون سابور ولي عهده[1].

عمد أبو منصور أحمد بعد صدور قرار الخليفة الفاطمي، إلى تجهيز جيش عهد بقيادته إلى ابنه الحسن الأعصم، اصطدم بأخيه سعيد وانتزع الحكم منه، وكان سعيد يجهد للاحتفاظ بالسلطة مع بعض أنصاره، وفي المقابل كان

---

(١) القلقشندي، أحمد بن علي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م: جـ٤ ص٢٧٣. اليافعي، أبو محمد اليمني المكي: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، دار الكتاب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م: جـ٢ ص٣١١. يذكر النويري أن أبا منصور أحمد توفي بالجدري مع أخيه أبي طاهر سليمان. نهاية الأرب في فنون الأدب جـ٢٥ ص١٨٣.

أبو منصور أحمد يناضل للحصول على السلطة، وقد أقرَّ المجلس العقداني بتولّيه شؤون الحكم بعد قرار الخليفة الفاطمي، ووطّد أبو منصور أحمد سلطانه، وعيَّن ابنه المذكور قائداً عاماً للجيوش القرمطية، فربح بذلك جولة الصراع على السلطة، وتوسَّع باتجاه عُمان وما جاورها.

وحاول سابور بعد أن شبَّ، أن يتآمر ضد المجلس العقداني وضد عمه أبي منصور أحمد، وقد عدَّه مغتصباً للسلطة، ورأى أنه صاحب الحقِّ الشرعي بعد وفاة والده، وأنه وليٌّ للعهد من بعده، لذلك تحالف مع الفاطميين الذين ازداد العداء بينهم كدولة توسعية وبين القرامطة كنظام ثوري يريد الاستمرار والبقاء والوقوف في وجههم.

وانتهز سابور فرصة غياب أعضاء المجلس العقداني والجيش القرمطي عن الأحساء، وانهماكهما بمحاربة الفاطميين في مصر، فانقضَّ على السلطة، واضطر الجيش القرمطي إلى فكِّ الحصار عن القاهرة والعودة إلى البحرين للمحافظة على نظام القرامطة الثوري، واستطاع سابور أن يُحقِّق انتصاراً جزئياً عندما قبض على عمِّه وسجنه، لكن أحد إخوته نجح في إخراجه من السجن، وتمكَّن الجيش القرمطي أن يقضي على مؤامرة سابور، ويحافظ على الهوية الطبقية للنظام، وقد تمَّ إعدام سابور في (رمضان ٣٥٨هـ/ آب ٩٦٩م) بعد أن اتُّهم بالخيانة، ونُفي إخوته وبعض أنصاره إلى جزيرة وال، إحدى جزر الخليج العربي[1].

ومنذ عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م)، أي بعد عامين من وفاة أبي طاهر سليمان، يسكت المؤرخون عن أخبار القرامطة سكوتاً تاماً باستثناء خبر إعادة الحجر الأسود إلى مكة في عام (٣٣٩هـ/ ٩٥١م) كما ذكرنا.

وفاة أبي منصور أحمد

توفي أبو منصور أحمد في عام (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) مسموماً على يد أنصار سابور، وتولّى ابنه أبو علي الحسن الأعصم مقاليد الحكم.

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٢٨٨.

الفَصْل السَّابع

العلاقات السياسية لقرامطة البحرين

في عهد الحسن الأعصم[1]

تمهيد

يُعدُّ الحسن الأعصم بن أحمد؛ من أبرز قادة القرامطة عسكرياً وسياسياً، فقد استلم قيادة الجيش القرمطي في عهد أبيه أحمد في عام (٣٥٣هـ/ ٩٦٤م) كما ذكرنا، واستطاع بذكائه ودهائه أن يُحدِّد بنجاح مسار علاقاته الخارجية مع الحمدانيين والبويهيين والعباسيين، بهدف التصدي للتوسع الفاطمي، وضرب الدولة الفاطمية التي شعر بخطرها على دولة القرامطة في البحرين، وعلى الرغم من معرفته بانتماء الفاطميين إلى الحركة الإسماعيلية فكرياً، وانتماء القرامطة للدعوة الإسماعيلية نفسها، إلا أنه فضَّل المحافظة على الدولة القرمطية المستقلَّة[2].

وعادت القوة المركزية للدولة القرمطية في عهده إلى سيرتها الأولى بعد أن تمكَّن من حسم الصراع الداخلي على السلطة لصالحه، وشهدت البلاد مرحلة من الاستقرار والتماسك الداخلي ساعداها على الاندفاع من جديد في أعمال الحرب والغزو، والتوجُّه لمعالجة الوضع الاقتصادي المتدهور[3].

العلاقة مع الحمدانيين

اتَّسمت علاقات قرامطة البحرين بالدولة الحمدانية في حلب في عهد سيف الدولة (٣٣٣ ـ ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٦٧م) بالجيدة، فقد طلب هؤلاء من الأمير

---

(١) الأعصم: من في ذراعه بياض وسائره أسود أو أحمر، وأُعطي الحسن بن أحمد هذا اللقب لبياض في طرف من أطرافه.

(٢) طراد، م.س: ص٢٧٣.

(٣) بزُّون، م.س: ص١١٩.

الحمداني كميات كبيرة من الحديد لصنع الأسلحة وغيرها، ولبّى الأمير طلبهم، وأرسل إليهم كمية ضخمة منه، ولكي يتمكَّن من تلبية طلبهم أمر بانتزاع أبواب الرقة الحديدية، بما في ذلك موازين البقالين والباعة، وقد نُقلت هذه الهدايا على الفرات حتى بلدة هيت، وحُملت منها إلى الصحراء[1].

وراسل القرامطة الحمدانيين وغيرهم من أُمراء النواحي، وربما أرسلوا قاضيهم ابن عرفة برسائلهم إلى بني حمدان، فعقد عليهم بيعتهم، وأخذ عليهم العهد بموالاتهم[2].

وأدَّى سيف الدولة الحمداني دوراً كبيراً في مساندة القرامطة، فكان يراسلهم ويصانعهم في أغلب الأحيان، ويقدِّم لهم الإمدادات، كما شجعهم على غزو بلاد الشام ضد الإخشيديين، أعدائه المقيمين على تخوم إمارته، ولهذا لم يتعرض هؤلاء لأملاك الإمارة الحمدانية في حلب خلال غزوهم لدمشق في عام (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م)، ودخولهم إليها[3].

العلاقة مع الفاطميين

- **دوافع التمدُّد الفاطمي باتجاه مصر**

شهدت مصر وبلاد الشام ثورات عاتية بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م)، فقد ثار والي الأشمونين[4] غلبون بن سعيد المغربي، كما ثار بعض رؤساء العشائر البدوية في بلاد الشام ضد حكم الإخشيديين، وازداد الوضع الداخلي خطورة حين وصلت الفوضى إلى مرحلة تعذَّر معها وجود والٍ أو أمير مدة شهر، وانقسم الجند المصري إلى طائفتين عندما استقلَّ كافور بالحكم على حساب الإخشيديين، الكافورية الموالية لكافور،

---

(١) الهمذاني، م.س: ص١٥٧.

(٢) ابن خرداذبة: **المسالك والممالك**، ليدن: ص٢٣.

(٣) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود: **تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: جـ١ ص٤٥١.

(٤) أشمون أو الأشمونين: مدينة قديمة وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل. الحموي، م.س: جـ١ ص٢٠٠.

والإخشيدية المساندة لأسرة الإخشيد، وقد أثّر هذا الانقسام على معنويات الجند، فانخفضت درجة الانضباط، وتراجعت القوة الميدانية للجيش الإخشيدي، واستمرت الحالة الداخلية السيئة بعد وفاة كافور في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، وأدَّت الحالة الاقتصادية دوراً آخر في تراجع قوة الإخشيديين بسبب الجفاف الذي استمر تسعة أعوام.

وثمة ظاهرة حقيقية، وهي تمكُّن الفاطميين من اختراق الجبهة الداخلية في مصر، واستقطاب بعض المصريين إلى الدعوة الفاطمية التي صادفت رواجاً في مصر، إلى الحدِّ الذي قسَّم المجتمع المصري والجيش إلى طائفتين متعارضتين في التوجه المذهبي، دفعت تلك الأوضاع السيئة أولي الرأي في مصر إلى الطلب من الخليفة الفاطمي المعزّ (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م) التدخل لإنقاذ البلاد من الفوضى التي دبَّت فيها، واستجاب المعز لهذا الطلب مدفوعاً بعوامل عدة، أهمها:

- الاستفادة من ثروتها ومواردها الاقتصادية.
- أهمية موقعها الجغرافي سياسياً وعسكرياً.
- قربها من بلاد الشام والحجاز.
- إن استيلاء الفاطميين على مصر من شأنه أن يُمهِّد لهم الطريق لبسط نفوذهم على الحواضر الإسلامية، مكة والمدينة، ودمشق وبغداد.
- انتشار الاضطرابات والفوضى في مصر إثر وفاة كافور الإخشيدي وعدم وجود شخصية قوية تخلفه.
- ضعف الخلافة العباسية وتراجع نفوذها في بلاد الشام ومصر.
- تبيَّن للمعز أن أوضاع دولته في شمالي أفريقيا ستبقى مزعزعة؛ لأن الناس في هذه البلاد كانوا يكرهون الفاطميين، وأن قبيلة كتامة لم تعد على وفائها الأول للبيت الفاطمي، وسكان المغرب الأوسط ساخطون على الأسرة الفاطمية التي لم يروا منها سوى الأذى والنهب، وكان على الدولة الفاطمية أن تخوض صراعاً مكلفاً في المغرب الأقصى مع دولة الخلافة الأموية القوية في الأندلس.

الواقع أن المعزَّ لم يقرِّر القيام بحملته على مصر إلا عندما ظهر في الأفق السياسي حادثان:

الأول: وفاة كافور الإخشيدي الذي كان يُشكّل عقبة في سبيل ذلك بفعل قوَّته.

الثاني: تأزُّم العلاقات بينه وبين قرامطة البحرين.

ففيما يتعلق بالحدث الأول، فقد شجَّعت وفاة كافور، المعز على غزو مصر، وبخاصة بعد حال الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي شهده هذا البلد.

وفيما يتعلق بالحادث الثاني، فقد ساءت علاقة المعزِّ بقرامطة البحرين بوصفه إمام الطائفة الإسماعيلية، ومنذ أن تولّى الإمامة ازداد تفوّق النزعة المناهضة لأصحاب أفريقيا بين القرامطة، وسعى أحمد بن الحسن الجنّابي إلى تمتين علاقاته ببني بويه وبني حمدان، مُظهراً بذلك انحراف الحركة القرمطية انحرافاً كلّيّاً عن الخطّ الفاطمي، وراح القرامطة يتصرفون بمعزل عن الإدارة المركزية في أفريقيا، وضد مصالح الفاطميين، ولا شك بأن المعز أراد السيطرة على القرامطة ليستعين بهم في تنفيذ مشاريعه الشرقية.

ففي عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) قام الحسن الأعصم بغارات على بلاد الشام، وعجز الإخشيديون عن صدِّه لانهماكهم بأوضاعهم الداخلية المضطربة، والتصدّي للضغط الفاطمي الواقع عليهم[1]، وتجدَّدت الغارات في عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) في عهد وصاية كافور، وكذلك في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) بعد وفاته حيث تغلّب القرامطة على الحسن بن عبد الله بن طغج صاحب بلاد الشام، من دون أن يرجعوا في ذلك إلى المعزِّ، ما يدل على أن هذه الجماعة كانت تعمل بشكل مستقل ولحسابها الخاص.

ومنذ ذلك التاريخ، أدرك المعزُّ استحالة الاعتماد على الأسرة القرمطية، وأن القرامطة أضحوا عقبة في طريق توسُّعه باتجاه الشرق، وخطراً يُهدِّد انتشار الدعوة الإسماعيلية في المشرق، وخشي إن هم تمركزوا في جنوبي بلاد الشام، فإنهم قد يتحولون إلى مصر، ويستولون عليها قبله.

(١) ابن تغري بردي، م.س: جـ٣ ص٣٢٦.

ولا شك بأن هذا التسرُّب القرمطي المحتمل باتجاه مصر عن طريق جنوبي بلاد الشام بعد وفاة كافور، قد دفع المعزَّ إلى الإسراع بالاستعداد للحرب ليسبقهم إلى الأراضي المصرية.

استيلاء الفاطميين على مصر

جهَّز المعز جيشاً كبيراً عهد بقيادته إلى جوهر الصقلي انطلق من إفريقيا يوم السبت في (١٤ ربيع الآخر ٣٥٨هـ/ ٧ آذار ٩٦٩م)، وتقدم ببطء إلى الاسكندرية، وسانده أسطول بحري، ووصل إلى حدود الدولة الإخشيدية بعد ثلاثة أشهر[١].

وعندما انتشر خبر هذا الزحف في الفسطاط، اضطرب الوضع، واستعدَّ أنصار الفاطميين لاستقبال ذلك القائد عبر نشر المعلومات التي وزَّعها عليهم الدعاة ليقيموا الدليل على خضوع المصريين الذي يعانون من الفوضى والجوع منذ عهد بعيد، ولما لم يصادف القائد الفاطمي أيَّة مقاومة تُذكر في الاسكندرية، أمر جنده بعدم التعرُّض للسكان، واستطاع بحنكته أن يستقطب أهل الاسكندرية، ويتألف قلوبهم بما أجزل لهم من المال.

أدرك المسؤولون في مصر وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات، أنه لا طاقة لهم بمقاومة الجيش الفاطمي الجرَّار، فجمع هذا الوزير وجوه القوم للتداول في الأمر، واتفقوا على تجنُّب اتخاذ أي موقف عدائي، والميل إلى التفاوض في شروط الاستسلام، وطلب الأمان لأرواح المصريين وأملاكهم، فشكَّلوا وفداً من أجل هذه الغاية برئاسة أحد الشيعة من الفرع الحسيني، هو أبو جعفر مسلم، خرج من الفسطاط يوم الاثنين (١٨ رجب/ ٦ حزيران)، واجتمع بجوهر الصقلي في تروجة القريبة من الاسكندرية، وجرت بين الطرفين مباحثات اتفقا بنتيجتها على كتاب الأمان الذي كتبه جوهر الصقلي وأعلنه للمصريين، ويُحدِّد مضمونه السياسة التي سينتهجها في مرحلة انتقالية ريثما يتدعَّم النظام الجديد، وتقوم على أربع دعائم:

الأولى: داخلية، تتمثل بتهيئة نفوس المصريين عبر الأمان الممنوح،

(١) عماد الدين، م.س: جـ٤ ـ ٦ ص١٣٩.

وتحقيق العدل، ونشر السلام والطمأنينة بينهم، وإعانة المظلوم.

الثانية: خارجية، تقضي بالتصدي لخطر القرامطة الذين غزوا بلاد الشام أكثر من مرة، ومنعوا الناس من أداء فريضة الحج، بالإضافة إلى مواجهة البيزنطيين الذين غزوا شمالي بلاد الشام والعراق، وتجنَّب الكشف عن مطامع مخدومه التوسعية.

الثالثة: دينية، فقد تعهَّد جوهر الصقلي بتحقيق تطلُّعات الفاطميين الدينية، واعترف في الوقت نفسه بالحرية الدينية للمصريين، غير أنه أشاد بالأئمة الشيعة وأنهم أحق بالخلافة من سواهم.

الرابعة: إدارية، تقضي بالقيام بإصلاح شامل في إدارة البلاد، والضرب على أيدي العابثين من قطّاع الطرق، وضبط السكَّة بعدم غشِّها، وغير ذلك من الشؤون الإدارية[١].

وما إن همَّ أعضاء الوفد بمغادرة المعسكر الفاطمي حتى علموا بخروج بعض عناصر الجيش الإخشيدي، وعزمهم على التصدّي للزحف الفاطمي، وقد عزَّ عليهم أن يستولي جوهر الصقلي على مصر فيزول نفوذهم، ولما كانت الجندية مصدر رزقهم ونفوذهم، عزموا على الوقوف في وجهه، فتصدَّى لهم الجيش الفاطمي، وتغلَّب عليهم، فانسحبوا إلى بلاد الشام[٢].

وعبر جوهر الصقلي مع جيشه على الجسر المُقام على نهر النيل من الجيزة إلى الفسطاط في (١١ شعبان/ أول تموز) وعسكر شمالي القطائع، ووضع أساس مدينة القاهرة[٣]، ولما كان يوم الجمعة (٢٠ شعبان/ ١٠ تموز) صلّى في الجامع العتيق صلاة الجمعة، وخطب هبة الله بن أحمد بالمصلّين، ولما بلغ الدعاء قطع الخطبة للعباسيين، وقرأ الدعاء من رقعة كان جوهر قد حرَّرها وأبرز فيها اسم المعزِّ، وتلقُّبه بأمير المؤمنين، وذكر أسلافه الأئمة، وأنزل أمر بني العباس عن السكة، والبنود، والرسوم، وأحلَّ اسم المعزِّ محل ذلك[٤].

(١) انظر نص الكتاب عند عماد الدين، م.س: ص١٤٦ ـ ١٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥٠ ـ ١٥٢. (٣) المصدر نفسه: ص٢٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ص١٥٢ ـ ١٥٥. المقريزي، م.س: جـ١ ص١١٤ ـ ١١٦.

التمدد الفاطمي باتجاه بلاد الشام

• **دوافع التمدُّد**

بعد أن استقر جوهر الصقلي في مصر، تطلَّع إلى التمدُّد باتجاه بلاد الشام للسيطرة عليها وتحقيق ضرورة دينية وسياسية وعسكرية.

فمن حيث الضرورة الدينية، قرَّر القائد الفاطمي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد الشام في خطوة تمهيدية للقضاء على الخلافة العباسية والسيطرة على العالم الإسلامي؛ وهو هدف فاطمي أسمى.

ومن حيث الضرورة السياسية، فقد خشي جوهر الصقلي من أن يُقدم العباسيون على الانتقام بسبب استيلائه على أخصب وأغنى ولايات الخلافة العباسية؛ وهي مصر، فأراد أن يجعل بلاد الشام حاجزاً بينه وبين تلك الخلافة، والمعلوم أن العباسيين والبويهيين استاؤوا من زوال نفوذهم من مصر، فساعدوا القرامطة واتفقوا معهم على طرد الفاطميين منها، يُضاف إلى ذلك أن بلاد الشام كانت تابعة للدولة الإخشيدية، ولما آلت مصر إلى الفاطميين، كان من الطبيعي أن يحتل هؤلاء البلاد التابعة لها.

ومن حيث الضرورة العسكرية، يبدو أن جوهراً الصقلي أراد تأمين حدود مصر من الشمال الشرقي واتخاذ بلاد الشام قاعدة انطلاق للقضاء على القرامطة الذين اجتاحوا هذه البلاد وبدؤوا يناوئون الفاطميين، وأخذوا يُهدِّدون مصر، بالإضافة إلى توجيه الحملات ضد العراق، والسيطرة على الحجاز والمناطق الجنوبية، ومنع البيزنطيين من التمدُّد باتجاه الجنوب.

استيلاء الفاطميين على بلاد الشام

جهَّز جوهر الصقلي جيشاً كثيفاً، وعيَّن على رأسه مساعده الكتامي جعفر ابن فلاح، وأرسله إلى بلاد الشام، فاستولى على الرملة[1] واصطدم بالجيش الإخشيدي ـ القرمطي الذي خرج من دمشق للتصدّي له، وذلك في (ذي الحجة ٣٥٨هـ/ تشرين الأول ٩٦٩م).

توغَّل القائد الفاطمي بعد انتصاره في عمق الأراضي الفلسطينية، فاستولى

(١) المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، م.س جـ١ ص١٢٠.

على طبرية من دون مقاومة، وواصل زحفه باتجاه دمشق، واستولى في طريقه على حوران والبثنية، وضرب قبائل المنطقة، ووصلت طلائع جيشه إلى غوطة دمشق، ثم وصل جيشه ونزل بظاهرها في (مستهل محرم ٣٥٩هـ/ ٤ تشرين الثاني ٩٧٠م)، فواجه مقاومة ضارية من قِبَل السكان والجنود الإخشيديين، وجرى قتال أمام أبواب المدينة، لكنه انتصر عليهم واضطروا إلى الاستسلام، ودخل جعفر بن فلاح المدينة يوم الجمعة (١٦ ذي الحجة/ ٢٠ تشرين الثاني)[1].

وأساء جعفر بن فلاح معاملة زعماء بلاد الشام، وبخاصة الدمشقيين منهم، الأمر الذي دفعهم إلى اللجوء إلى القرامطة، وأوغروا صدورهم ضد الفاطميين، كما التجأ من نجا من الجيش الإخشيدي إلى الحمدانيين في حلب والموصل، وأضحوا جميعاً خطراً يهدد جعفر بن فلاح في بلاد الشام[2].

ردُّ الفعل القرمطي

كان من الطبيعي أن يُثير نجاح الفاطميين في بلاد الشام ردود فعل القرامطة في البحرين، وتعود أسباب الحرب بين الطرفين إلى:

ـ تدخُّل المعزّ الفاطمي في شؤون القرامطة الداخلية، فقد استبدَّ الحسن الأعصم بزعامة القرامطة من دون العودة إلى الفاطميين، وكانت سياسة هؤلاء ترمي إلى تعيين رؤساء للقرامطة من بين الأشخاص الموالين لهم، فكتب المعزُّ إلى قائده جعفر بن فلاح من المغرب أن «اغلظ عليه (الحسن الأعصم)، ودُسَّ لشيعة أبي طاهر وبنيه أن الأمر لولده»، فاطَّلع الحسن على ذلك، فخلع طاعة المعزِّ في عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م)، وخطب للخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٧٤م)، ودخل في طاعته.

ـ فرار كثير من زعماء بلاد الشام إلى الحسن الأعصم، والتماس مساعدته، من بينهم: محمد بن عصودا، أحد منظِّمي حركة المقاومة في دمشق، وظالم ابن موهوب العقيلي، زعيم بني عقيل، وقد قام بدور مهم في حثِّ الحسن الأعصم على الاصطدام بالفاطميين.

(١) القريزي، م.س: جـ١ ص١٢٣.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص١٨١ ـ ١٨٢.

- تدخُّل العباسيين والبويهيين في النزاع، بعد أن عجزوا عن صدِّ الفاطميين عن غزو بلاد الشام، وأضحى صاحب أفريقيا يُهدِّد العاصمة العباسية أكثر فأكثر، الأمر الذي من شأنه أن يدفع القوى المتناحرة داخل دار الخلافة من بويهيين، وحمدانيين، وقرامطة، إلى التحالف ضد العدو المشترك.

- عدَّ القرامطة بلاد الشام مجالاً حيوياً لهم منذ القرن الرابع الهجري، وازداد تعلُّقهم بها بعد انتصارهم على الإخشيديين في معركتي طبرية ودمشق، وحصلوا منهم على جزية سنوية قدرها ثلاثمئة ألف دينار، لذلك نظروا إلى الفاطميين على أنهم دخلاء، واصطدمت مصالحهم مع مصالح هؤلاء في الشرق[١].

- أضحى القرامطة بعد استيلاء الفاطميين على مصر، عُرضة للاحتكاك بهم، وبخاصة أن المعز أعلن أنه سيجعل من بلاد الشام ممرّاً إلى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية، كما أن جوهراً الصقلي، قائد الجيش الفاطمي، رفض التعاون مع القرامطة؛ لأنه أراد بلاد الشام حصناً للدفاع عن الحدود الشمالية للدولة الفاطمية، للتصدّي لخطر البيزنطيين، وبالتالي فإن بلاد الشام التي يعدُّها القرامطة من إقطاعاتهم، أضحت جزءاً من الدولة الفاطمية، وأضحوا هم غرباء عنها[٢].

امتنع جعفر بن فلاح عن أداء الجزية المشار إليها إلى القرامطة[٣] الأمر الذي فجَّر الأوضاع بين الطرفين، إذ كان لهذه السياسة الأثر السيئ في نفس الحسن الأعصم الذي شعر بأنه حُرم من الأموال الطائلة التي كانت تدرُّها عليه وصايته على تلك البلاد، فنشبت الحرب بينهما، وكانت بلاد الشام مسرحاً لها.

القرامطة يستولون على بلاد الشام

انتهز الحسن الأعصم فرصة تدخُّل المعز في شؤونه الداخلية، حيث أثار أبناء أبي طاهر سليمان على الجماعة القرمطية الحاكمة، فطرد كل من اشتبه

(١) الصابئ: ص٢٢٦، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س.
(٢) علم الدين، م.س: ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٣) التميمي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد، المعروف بابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**: ص١.

في إخلاصه لسياسته من أبناء أبي سعيد وأنصارهم الذين يؤمنون بأحقيَّة الفاطميين، وأعدَّ المجتمع القرمطي لصراع عنيف مع هؤلاء.

وحتى يُقوِّي موقفه، استعان بقوى خارجية معروفة بعدائها لهم، منها الخلافة العباسية، فذهب إلى الكوفة، ووجَّه منها كتاباً إلى بغداد يعرض فيه التحالف ضد الفاطميين، ويطلب إمداده بالمال والرجال، على أن يولِّيه الخليفة العباسي بلاد الشام ومصر، ليُخرج المعزَّ منها، ويحكمها باسمه[١].

ويبدو أن الخليفة العباسي المطيع، على الرغم من توافق مصلحته مع مصلحة الحسن الأعصم، إلا أنه امتنع عن إجابة طلبه وقال: «كلهم قرامطة، وعلى دين واحد، فأما المصريين، يعني بني عبيد، فأماتوا السفن، وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء، يعني القرامطة، فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود»[٢]، والراجح أن الخليفة العباسي لم يمانع في إمداد الحسن الأعصم بالمال والسلاح، لكنه امتنع عن توليته بلاد الشام ومصر، بدليل أنه لم يعارض ما أقدم عليه عزُّ الدولة بختيار البويهي من إمداده بالمال[٣]، وأمر أمير الموصل ابن حمدان بإمداده بالمال أيضاً «وبمن عنده من الإخشيدية، الذين كانوا في مصر وفلسطين، وصاروا إليه لما انهزموا من المغاربة»[٤].

رحَّب الحمدانيون بهذا التحالف الجديد نظراً لصداقتهم القديمة مع القرامطة، وخشوا من نوايا الفاطميين واقترابهم من بلادهم، فأمدّوا الحسن الأعصم بالرجال، وسمحوا لجنودهم بالتطوع في جيشه، وشجعوا الكافورية والإخشيدية على الانضواء تحت لوائه[٥].

وهكذا تعاونت القوى في بلاد الشام على اختلاف انتماءاتها السياسية والمذهبية، وأضحى الحسن الأعصم من القوة ما مكَّنه من الاصطدام بالفاطميين في الدكة الواقعة على نهر يزيد قرب دمشق، والانتصار عليهم، وقُتل جعفر بن فلاح الذي اتصف بالتهور والاستخفاف، وذلك في

(١) الصابئ، م.س: جـ١ ص٢٢٦.
(٢) ابن تغري بردي، م.س: جـ٤ ص٧٤.
(٣) الصابئ، م.س: جـ١ ص٢٢٦.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المقريزي، م.س: جـ١ ص١٨٧.

(ذي القعدة ٣٦٠هـ/آب ٩٧١م)[١]، واستولى على دمشق، وأضحى شمالي بلاد الشام في قبضته، ثم تطلّع نحو الرملة للاستيلاء عليها، فيتم له بذلك الاستيلاء على كامل بلاد الشام.

احتوت الرملة على فلول الجيش الفاطمي بقيادة سعادة بن حيان، فانسحب أفراده منها بعد أن استولى الفزع عليهم والتجؤوا إلى ميناء يافا، وانضموا إلى وحدات الأسطول الفاطمي[٢].

وهكذا فشلت مساعي الفاطميين، للتسرب إلى قلب العالم الإسلامي الشرقي، وعادت بلاد الشام إلى الحكم القرمطي، بل العباسي، باستثناء يافا، وأضحى الطريق مفتوحاً أمام الحسن الأعصم للزحف إلى مصر، وسيتحوَّل الصراع الذي من المفروض أن يتَّسم بالطابع العباسي ـ الفاطمي، إلى مواجهة بين جوهر الصقلي والحسن الأعصم، الذي أضحى بفضل انتصاره في دمشق أشد مراساً.

موقف المعز من التطورات السلبية في بلاد الشام

كان المعزُّ يراقب، من عاصمته المنصورية في أفريقيا، تطور الأوضاع في بلاد الشام التي سارت حتى الآن في غير مصلحته، وخشي أن تؤول الإهانة، التي ألحقها القرامطة بجيوشه إلى المسِّ بكرامته بوصفه إمام الطائفة الإسماعيلية، لا سيما وقد أصبحوا يُشكِّلون عقبة في طريقه للوصول إلى بغداد، بالإضافة إلى تهديدهم لمصر، واعتقد بأن جوهراً الصقلي يستطيع بما توفر له من قوات، وبما اتصف به من الحذر، أن يتصدَّى لزحفهم، ومع ذلك، رأى أن خروجه من أفريقيا بات ضرورياً في ضوء التطورات العسكرية السلبية، وموقفه السياسي والمذهبي تجاه بني العباس، ليكون قريباً من الأحداث، ويُوجِّه السياسة الفاطمية

القرامطة يهاجمون مصر

في الوقت الذي كان فيه المعزُّ يستعد للخروج من أفريقيا، ويسعى إلى اختيار خليفة له في المغرب، كان جوهر الصقلي يتأهب لمواجهة القرامطة

---

(١) المقريزي، م.س: جـ١ ص١٨٧ ـ ١٨٨. الصابئ، م.س: جـ١ ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) الصابئ، المصدر نفسه. ابن القلانسي، م.س: ص٣ ـ ٤. عماد الدين: ص١٨٢.

الزاحفين إلى مصر، وبما أنه أشد حذراً من مساعده جعفر بن فلاح، وأكثر اطّلاعاً على أمور الحرب، بفضل ما اكتسبه من خبرات عسكرية، فقد اتَّبع خطة عسكرية تقضي بالتحصُّن داخل مدينة القاهرة، وشنِّ الحرب من داخل الخندق الذي حفره أمام الأسوار الشمالية والشرقية، معتقداً بأن وضع جنوده الكتاميين من أبناء الجبال سيكون أفضل أمام جنود العدو المتمرسين على التحرك والقتال في الصحراء[١].

رأى الحسن الأعصم، بعد أن دخلت قواته بلاد الشام وسيطرت عليها، أن ينتهج سياسة مرنة تنطوي على التودُّد واكتساب ولاء السكان، فأمَّن أهل دمشق، وأقام الدعوة في مساجدها للخليفة العباسي المطيع، وأمر بحذف اسم المعزِّ من الخطبة ولعنه، وقد لقي عمله هذا ترحيباً من أهل السُّنَّة، وبخاصة المتطرفين في عدائهم للشيعة[٢].

كان على الحسن الأعصم أن يتابع زحفه إلى مصر ليقضي على الحكم الفاطمي الذي لم يكن قد استقرَّ بعد، فترك قائده أبا المنجا، وحليفه ظالم ابن موهوب العقيلي، على حصار يافا، وسار باتجاه وادي النيل في (أواخر ٣٦٠هـ/خريف ٩٧١م)، مُعَزَّزاً بعناصر من القبائل العربية، فاجتاح مناطق وادي النيل السفلي، وسيطر على القلزم (السويس) في (ذي الحجة/تشرين الأول) ثم توجَّه شمالاً فوصل إلى الفرما، مفتاح الديار المصرية من جهة الشرق، واستولى عليها في (محرم ٣٦١هـ/تشرين الثاني ٩٧١م) تمهيداً لمهاجمة القاهرة من الجنوب والشرق[٣].

كان من أثر هذا الهجوم على مصر، أن نبذت بعض المدن طاعة الفاطميين، فثارت تنيس على واليها الفاطمي، ونادت بطاعة القرامطة[٤].

ولم تلبث القوات القرمطية، أن وصلت إلى عين شمس، وهدَّدت القاهرة، وذلك يوم الجمعة (غرة ربيع الأول ٣٦١هـ/ ٢٢ كانون الأول ٩٧١م)، وألقت

---

(١) الدشراوي، فرحات: **الخلافة الفاطمية بالمغرب**، ترجمة: حمادي الساحلي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م: ص٣٩٥.
(٢) ابن تغري بردي، م.س: جـ٤ ص٧٤. (٣) النويري، م.س: جـ٢٨ ص١٣٧.
(٤) المصدر نفسه.

منشورات في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط تحضُّ المصريين على الثورة على جوهر الصقلي.

تجاه هذا الخطر الذي وصل إلى أبواب القاهرة تصرَّف جوهر الصقلي على محورين:

الأول: عسكري، فدعا أنصاره إلى الاستبسال في الدفاع عن العاصمة، كما حثَّ المصريين على مساندته، وتحصَّن في الخندق الحائل دون دخول الغزاة إلى المدينة من الجهة الشرقية.

الثاني: دعائي، فأرسل جماعة اندمجوا في جند الحسن الأعصم، وتظاهروا بالسخط عليه وعلى الفاطميين، وبالرغبة الملحَّة في نقل الحكم من هؤلاء إلى القرامطة، ونجح أفراد الجماعة في إحداث انشقاق بين صفوفهم، فشاعت الفوضى في صفوف الجند، بدليل أنه في الوقت الذي كان يحارب فيه جوهراً على أبواب القاهرة، كان أنصاره من بني عقيل وبني طيء ينهبون أثقاله[1].

وجرى بين الطرفين قتال متكافئ طوال يوم السبت، ونشبت المعركة الحاسمة يوم الأحد أمام الخندق وانتهت بهزيمة القرامطة، فتقهقر الحسن الأعصم وانسحب إلى بلاد الشام، فنزل الرملة، وتوجَّه منها إلى يافا، وحاصرها قبل أن ينسحب مع جنده إلى الأحساء[2].

أعاد جوهر الصقلي بعد هذا الانتصار، سلطته على الديار المصرية، فأرسل فرقة عسكرية لقتال أهل تنيس، وأردفها بفرقة بحرية، سارت في النيل باتجاه الصعيد، والتحقت بالجنود القادمين من البرِّ لقمع ثورة عبد العزيز بن أهيج الكلابي الذي نبذ طاعة الفاطميين، وعهد إلى مساعده سعادة بن حيان بمهمة استرجاع الرملة، وتركيز حامية فيها[3]، وأبحرت وحدات الأسطول التي قدمت من أفريقيا بقيادة أمير البحر الحسن بن عمار لنجدة الجيش الفاطمي في مصر؛ إلى بلاد الشام لاستعادة يافا، إلا أنها فشلت في تحقيق مهمتها بعد أن ألحق بها الأسطول القرمطي الهزيمة[4].

(١) الصابئ، م.س: جـ١ ص٢٢٩. (٢) المصدر نفسه.
(٣) عماد الدين، م.س: ص١٨٤.
(٤) الصابئ، م.س: جـ١ ص٢٢٩. ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٣٠٠.

وعلى الرغم من إعادة بسط سلطته على مصر التي زعزعها الخطر القرمطي، فقد فشل جوهر الصقلي في استعادة بلاد الشام التي أضحت تحت سيطرة رؤساء القبائل العربية من بني عقيل وبني طيء.

تجدُّد النزاع بين القرامطة والفاطميين

لم يكن المعزُّ راضياً عن زعامة الحسن الأعصم للقرامطة، وبخاصة بعد تقرُّبه من العباسيين ووقوفه موقف العداء من الفاطميين، فراح يعمل على التخلُّص منه بإذكاء الثورة على حكمه في البحرين، إذ لم يكد يُعلن موقفه المعادي منه، حتى قام أعوان أبي طاهر سليمان بثورة كادت تطيح به لولا تدخُّل الخليفة العباسي المطيع، وخرج الثائرون من جزيرة أوال، فهاجموا الأحساء ونهبوها، وكان الحسن الأعصم آنذاك منهمكاً في مهاجمة مصر، فتدخَّل الخليفة العباسي، وكتب إليهم بالتزام الهدوء والطاعة، ومصالحة ابن عمِّهم، واستمرار الإقامة في جزيرة أوال، وبعث إليهم من أقام بينهم الصلح[1].

كان لهذه الثورة أثر مباشر على الوضع العسكري في مصر، حيث اضطر الحسن الأعصم إلى التوقف عن مهاجمة هذا البلد وعاد إلى الأحساء لإخماد الثورة، واستاء من هذا التدخل السافر في الشؤون الداخلية للقرامطة، فلعن الفاطميين على المنابر، وأنكر نسبهم إلى علي بن أبي طالب، ووصفهم بالنفعيين، همُّهم المُلك والسلطان، وأنهم يرجعون بجذورهم إلى ميمون القداح «هؤلاء من ولد القداح، كذابون، ممخرقون أعداء الإسلام، ونحن أعلم بهم، ومن عندنا خرج جدُّهم القداح»[2].

وبعد انتقال المعزِّ إلى مصر أخذ يوجِّه سياسته المناهضة للقرامطة حتى يتيسير له توطيد أركان دولته في مصر وبلاد الشام، ورأى بعد فشل جهوده في إحداث شقاق داخلي بين صفوفهم، أن ينتهج سياسة الترغيب والترهيب، فكتب كتاباً مسهباً إلى الحسن الأعصم يدعوه فيه إلى الدخول في طاعته،

(١) ابن خلدون، م.س: جـ٤ ص٩٠. (٢) ابن تغري بردي، م.س: جـ٤ ص٧٤.

ويوضّح له فيه أن المذهب واحد، وأنهم منهم استمدوا، وأنهم ساداتهم في هذا الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة[1].

يبدأ كتاب المعزّ بمقدمة طويلة حول طبيعة الأنبياء وطبيعة نوّابهم الأئمة: «لقد خلقنا الله أشباحاً قبل خلق العالم، وسلّحنا بالقوة، وأشياء العالم كافة، من الأفلاك السماوية وحتى أقصى ما يكون داخل الأنفس، هي لنا ومن أجلنا وتشير إلينا، فلم يبعث برسول، ولم يظهر وحي إلا وكان يُشير إلينا، نحن كلمات الله الأزليات، وأسماؤه التامّات، وأنواره الشعشعانيات، وأعلامه النيِّرات، ومصابيحه البيّنات، وبدائعه المنشآت، وآياته الباهرات، وأقداره النافذات، لا يخرج منّا أمر، ولا يخلوا منّا عصر».

وكان المعزُّ قد وصل إلى مصر على قدر مقدور، ووقت مذكور، «نحن لا نرفع قدماً ولا نضعه إلا بعلم موضوع، وحكم مجموع، وأجل معلوم، وأمر قد سبق، وقضاء قد تحقّق».

وتوجّه المعزُّ إلى الحسن الأعصم فنعته بالغادر الخائن، والناكث البائن من هدي آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، غير أن أمره لم يخفَ على المعزّ: «فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدِّك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولي بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال، ودان لهم كل أيد ووال، ولُقِّبوا بالسادة فسادوا، منحة منا واسماً من أسمائنا، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبني العباس أضداداً، فلم يلقهم جيش إلا كسروه، وألحاظنا ترمقهم، ونظرنا يلحقهم، كما قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله ترمقهم، إلى أن اختاره لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول،

(١) انظر نص الكتاب عند المقريزي، م.س: جـ١ ص١٨٩ ـ ٢٠١.

فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين إلى روْح وريحان وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب»، ويتابع المعزُّ متوجهاً إلى الحسن باللوم والتحذير والتهديد.

إن قراءة متأنية لمضمون الكتاب توضح لنا النقاط الآتية:

ـ يعرض الكتاب في مجمله بوضوح هدفه السياسي، فعقيدة القرامطة كانت تحت سيطرة المهدي الذي يحكم العالم، ووصف المعز نفسه وقدرته المطلقة وقدرة آبائه بألوان زاهية، وأشاد بأبي سعيد وأبي طاهر كمؤسسين لدولة القرامطة ولمركزها القوي، ولهذا السبب وجّه اللوم إلى الحسن الأعصم بسبب خيانته لمعتقد آبائه الذين يدينون بنجاحهم إلى أفضال الفاطميين عليهم حصراً، وأن عقاباً فظيعاً كان بانتظاره[1].

ـ محاولة المعز إثبات قِدَم العلاقة بين الفاطميين والقرامطة التي كانت تقوم على المودة، وتُشير إلى ما عُرف عن هؤلاء من حرص على التودُّد للفاطميين، وتؤكد أنهم أصل الإسماعيليين، والقرامطة فرع منهم، غير أن الحسن الأعصم خرج على هذه السياسة التقليدية التي سار عليها جدُّه أبو سعيد الحسن الجنَّابي وعمُّه أبو طاهر سليمان، ولو أن هذين الرجلين كانا فعلاً أتباعاً بمثل تلك الدرجة من الولاء للفاطميين، فلماذا كان المعزُّ يحاول إثبات ذلك بمثل تلك الكلمات العديدة الغامضة؟ وهو بالتأكيد لا يستطيع الافتراض بأن الحسن الأعصم لم يكن على علم بأفعالهما ولا بكتاباتهما وأشعارهما، وأن الأسئلة التي يطرحها هنا هي من قبيل البلاغة الكلامية وحسب، ثم إن الإشارة إلى أعمالهما تتضمَّن بوضوح أنها اشتملت على برهان جلي علىٰ ولاء أبي سعيد وأبي طاهر، لكن المؤرخين والمعادين الذين كانوا على معرفة جيدة بالشؤون الداخلية للقرامطة، لم يجدوا معلومات محسوسة يقدِّمونها بشأن هذا الموضوع[2].

ـ يبيِّن الكتاب مدى انتشار الدعوة الفاطمية في كثير من أرجاء العالم

(١) دفتري، فرهاد: **الإسماعيليون في العصر الوسيط**، ترجمة: سيف الدين القصير، دار المدني، دمشق، ط١، ١٩٩٩م: ص٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٦٨ ـ ٦٩.

الإسلامي، ويعيب عليه (الحسن الأعصم) انصرافه عنها، واستياءه (المعز) من إقامة الدعوة للعباسيين، مع ما أصاب دولتهم من الوهن، ولامه على غزوه بلاد الشام، وقتله جعفر بن فلاح وكثيراً من جنده، وعدَّد ما ارتكبه أثناء هجومه على هذه البلاد.

ـ إشادة المعزِّ بنفسه وبالفاطميين، وانتمائهم إلى الرسول عن طريق علي وفاطمة، وأنحى باللائمة على العباسيين الذين انضم إليهم الحسن الأعصم، وأكَّد أن الفاطميين سيرثونهم ويُحوِّلون العالم الإسلامي إلى عالم إسماعيلي.

ـ يُعدُّ الكتاب وثيقة:

أ ـ تاريخية، تصوِّر مراحل الحرب التي دارت بين الحسن الأعصم وأنصار المعزِّ.

ب ـ مذهبية، فقد ذكر فيها شيئاً غير قليل عن نظرية تقديس الأئمة، ووجود عنصر إلهي فيهم.

جـ ـ سياسية، بفعل أن المعزَّ نجح في استقطاب كثير من كبار القرامطة الساخطين على الحسن الأعصم، وأثبت لأهل السُّنَّة ارتباط القرامطة بالفاطميين مذهبياً على الأقل، وأن الحسن الأعصم على غير مذهبهم، وأنه يدين بالمذهب الإسماعيلي.

ـ يمتاز الكتاب بالشروط التي تدل على التحدي، وينطوي على الترغيب والتهديد، حين عرض المعز على الحسن الأعصم ثلاث خصال ليختار واحدة يعمل على تحقيقها، وهدَّده بسوء العاقبة:

الأولى: أن يفدي نفسه بجعفر بن فلاح، ويفدي من قتلهم من جند الفاطميين برجال من القرامطة.

الثانية: وكأنها على سبيل السخرية، فقد طلب منه أنه يردَّ جعفر بن فلاح ورجال الفاطميين، الذين قُتلوا على يديه أحياء.

الثالثة، أن يُقدِّم نفسه أسير حرب، يرى فيه رأيه، فيقتصُّ منه أو يمنُّ عليه أو يفتدي نفسه بمال كثير[1].

(١) حسن، إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: **عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب**، مكتبة النهضة العربية، القاهرة: ص١١٩ ـ ١٢٣.

ـ كان كتاب المعزِّ بعيد الأثر في المجتمع القرمطي، وبخاصة بين الجماعة المناهضة للحسن الأعصم، لكنه لم يوهن عزيمته، فلم يعدل عن سياسته، واختصر جوابه عليه بهذه الكلمات الموجزة: «وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقلَّ تحصيله، ونحن سائرون على إثره، والسلام»[1].

تجدُّد الهجوم القرمطي على مصر

وسرعان ما سار الحسن الأعصم من البحرين باتجاه بلاد الشام، ونزل في الرملة، ثم زحفت جنوده باتجاه مصر في عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، وتوغَّلوا في الأراضي المصرية، وبثّوا السرايا في البلاد، وانتشروا في كثير من النواحي المصرية، وأرسل الحسن الأعصم العمال إلى الصعيد لجباية الأموال[2].

انزعج المعزُّ من الانتشار القرمطي المعادي له، وساءه مشاركة الحسن الأعصم له في حكم مصر وإدارتها، وانتزاع جزء كبير من ماليتها حتى كاد ينتزع من قلوب أهلها احترامهم له ولدولته.

وتحصَّن الفاطميون وراء أسوار القاهرة، وعظم الأمر على المعزِّ، حيث لم ينفعه تهديد الحسن الأعصم وإرهابه له، ولم يجرؤ على الخروج مع عسكره للتصدي له، وكان الزعيم العربي حسان بن الجرَّاح الطائي قد انضم إلى الحسن الأعصم، واخترقت قواتهما السور الذي بناه جوهر الصقلي للدفاع عن القاهرة، ما زاد من قلق المعزِّ، ورأى بعد التشاور مع أركان حربه أن يُفرِّق بين الحليفين، فعمل على استقطاب العرب، فعرض على حسان بن الجرَّاح الطائي بأن يدفع له مبلغ مئة ألف دينار مقابل انسحابه من التحالف، ولما دارت عجلة الحرب بين الطرفين، انسحب هذا الأخير مع قواته، ما أدى إلى حرج موقف الحسن الأعصم، ورجحان كفَّة المعزِّ، وخشي الأول على نفسه، فارتد منهزماً إلى بلاد الشام، وأسر الفاطميون أكثر من ألف من القرامطة، وعاملوهم معاملة المرتدين عن مذهبهم الإسماعيلي[3].

استغل المعزُّ انتصاره للقضاء علىٰ الحسن الأعصم، فعهد إلى أبي محمود

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٣١٨.

(٢) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، م.س: جـ١ ص١٥٠.

(٣) ابن القلانسي، م.س: ص٦ ـ ٧.

إبراهيم بن جعفر بن فلاح بمطاردته، فلحق به حتى أذرعات في الأردن، فاضطر الزعيم القرمطي للعودة إلى البحرين تاركاً بلاد الشام في أيدي بعض الأمراء القرامطة وعلى رأسهم أبو المنجا في دمشق[١].

المعزُّ يستعيد دمشق

خطَّط المعزُّ بعد فشل الحسن الأعصم في الاستيلاء على القاهرة للمرة الثانية؛ للقضاء على ما للقرامطة من نفوذ في بلاد الشام واستخلاصها منهم، وتحقيقاً لهذه الغاية، التمس العون من قبائل طيء، وبظالم بن موهوب العقيلي الذي فترت علاقته بالحسن الأعصم، فقلَّده ولاية دمشق في (رمضان ٣٦٣هـ/ حزيران ٩٧٤م)[٢]، وكان يحقد على واليها القرمطي أبي المنجا، فسار إليها على رأس جيش من العرب، يساعده الفاطميون، ولم يستطع أبو المنجا أن يتصل بالقرامطة في البحرين للتنسيق معهم ولا بحلفائه العباسيين والبويهيين، ولا بالحمدانيين، فدخل ظالم دمشق، وقبض على الوالي القرمطي وسجنه هو وابنه ومن معهما من القرامطة، ثم سلَّمهم إلى القائد الفاطمي، ووطَّد سلطته فيها، فكان ذلك انتصاراً آخراً للمعزِّ[٣].

الاضطرابات في دمشق في ظل حكم المعز

يبدو أن النفوذ الفاطمي في دمشق لم يستقر تماماً في ظل ولاية ظالم ابن موهوب العقيلي، لذلك أرسل المعزُّ جيشاً من المغاربة بقيادة أبي محمود إبراهيم إلى دمشق ليعاونه على حفظ الأمن وإقرار السلام في ربوع بلاد الشام، ونشر النفوذ الفاطمي، والوقوف في وجه القرامطة إذا ما استأنفوا هجماتهم على دمشق، وكان المعزُّ ينوي إذا ما نجح قائده في مهمته أن يثب إلى العراق، ويتوسع في الشمال على حساب الحمدانيين والبيزنطيين.

لكن المغاربة ما لبثوا أن عبثوا بالبلاد، وضايقوا العباد، وقطعوا الطرق، واصطدموا بالدمشقيين الذي كانوا يحقدون عليهم وعلى الفاطميين لاختلافهم

(١) ابن ميسَّر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب: **أخبار مصر**، الجزء الثاني، باعتناء وهنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩م: ص٤٦.
(٢) ابن القلانسي، م.س: ص٥.
(٣) المصدر نفسه: ص١٠. ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٣٢٠.

عنهم في المذهب الديني، وأضحوا مصدر قلاقل، كما أصبح مركز الولاة محفوفاً بالمخاطر.

لم يتمكَّن أبو محمود إبراهيم من ضبط الأمور، واضطر ظالم بن موهوب للخروج بنفسه لوضع حدٍّ لتعدّيات المغاربة، إلا أنه انهزم أمامهم، ودخل هؤلاء دمشق وأشعلوا النار في أحيائها[١].

واضطر المعزُّ كي يتجنَّب تفاقم الوضع إلى عزل ظالم بن موهوب في (ربيع الآخر ٣٦٤هـ/ كانون الأول ٩٧٤م)، والتجأ هذا إلى بعلبك، وعيَّن جيش ابن الصمصامة خَلَفاً له، وكان هذا الوالي قد اشترك مع أبي محمود إبراهيم في إدارة شؤون دمشق.

وساد المدينة هدوء نسبي لم يستمر طويلاً بسبب تجدُّد الاشتباكات بين الدمشقيين والمغاربة، وحدثت اضطرابات خطيرة، وخُرِّبت المنازل، وأُغلقت الطرق، وتوقفت حركة البيع والشراء، وتفاقمت الحالة الاقتصادية، وحاول جيش بن الصمصامة عبثاً السيطرة على الموقف[٢].

وعندما وصلت أنباء الاضطرابات في دمشق إلى المعزِّ، أدرك أن هناك صعوبات تواجه حكمه في بلاد الشام، ولا بد أن يتدارك الموقف على وجه السرعة، فكلَّف ريان الخادم واليه على طرابلس الشام، بالذهاب إلى دمشق، ودراسة أوضاعها والوقوف على حقيقة الأمر فيها، ووضع حدٍّ للفتن، وعيَّنه والياً عليها، وعزل أبا محمود إبراهيم عنها، وعاد هذا إلى الرملة ثم أقام بطرابلس، واستطاع ريان الخادم أن يُهدِّئ الوضع الداخلي، ويحدَّ من اندفاع المغاربة[٣].

الصراع الفاطمي ـ التركي على دمشق

أدَّت الاضطرابات التي شهدتها مدينة دمشق إلى إضعاف النفوذ الفاطمي فيها، ومهَّدت لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين الشرابي التركي في

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٩ ـ ١٣. ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٢) المصدران نفساهما: ص١٩ ـ ٢٠. ص٣٢١.
(٣) المصدران نفساهما: ص٢٠. ص٣٢٢.

لعبة السيطرة عليها، وبذلك واجه الفاطميون عنصراً جديداً أدَّى دوراً مميزاً في مناهضتهم، وفي غمرة الصراع بين البويهيين (الديلم) والأتراك، تعرَّض أفتكين وأتباعه لهزيمة قاسية، واضطروا إلى مغادرة بغداد إلى بلاد الشام واستقروا فيها[1]، وساعدهم على ذلك ما سادها من اضطرابات وفوضى نتيجة الحروب بين الفاطميين والقرامطة من جهة والضغط البيزنطي من جهة أخرى.

استطاع أفتكين أن يستغل غضب السكان المحلّيين الذين التمسوا مساعدته، والصراع بين الفاطميين والبيزنطيين؛ فنشر نفوذه في دمشق بعد أن تغلّب على قوة فاطمية مشتركة بقيادة ظالم بن موهوب العقيلي والي بعلبك، وأبي محمود إبراهيم والي الرملة، ثم دخل دمشق في (شعبان ٣٦٤هـ/ نيسان ٩٧٥م)، فقطع الخطبة للمعزِّ الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١م)[2].

استغلَّ أفتكين انتصاره وراح يبسط نفوذه في بلاد الشام، فهاجم بعلبك واستولى عليها، واضطر ظالم بن موهوب العقيلي إلى التقهقر، إلا أنه تعرَّض لهجوم البيزنطيين الذين أغاروا على حمص وبعلبك في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) وعزموا على مهاجمة دمشق، وحتى يواجه هذا الخطر، حاول التقرُّب من المعزِّ، كما أدرك أن الخليفة الفاطمي لا بد أن يُقدم على استعادة نفوذه في بلاد الشام، فراسله على سبيل التمويه والانقياد له والطاعة لأوامره، ولكن الأمور لم تجرِ على نحو طيِّب بينهما، ورفض أفتكين دعوة المعزِّ للحضور إلى مصر ليعيده إلى ولايته ويحكمها باسمه[3] بعد أن اشتمَّ منها رائحة الخطر على حياته.

الواضح أن المعزَّ عجز عن وضع حدٍّ لخطر أفتكين والقرامطة، وتوفي في (١١ ربيع الآخر ٣٦٥هـ/ ١٨ كانون الأول ٩٧٥م) من دون أن يخضعهما، وخلفه ابنه أبو منصور نزار: العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م)[4].

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٢١ ـ ٢٢.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٣٣٣.
(٣) ابن القلانسي، م.س: ص٢٢ ـ ٢٤.
(٤) ابن خلكان، م.س: جـ٥ ص٢٢٨، ٣٧١ ـ ٣٧٢.

استمرار الصراع الفاطمي ـ التركي والقرمطي

استمر الصراع في عهد العزيز بين الفاطميين وكل من أفتكين التركي والحسن الأعصم، فقد التفت العزيز إلى بلاد الشام لاستردادها، فانتهج الخط السياسي أولاً، فكتب إلى أفتكين يستقطبه ويعده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق، فردَّ عليه ردّاً جافّاً: «هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً»[1].

استاء العزيز من هذا الردِّ، وحنق على أفتكين، واستشار وزيره يعقوب ابن كلِّس في الأمر، فأشار عليه أن يرسل جوهراً الصقلي على رأس جيش إلى دمشق لانتزاعها من يده[2].

خرج جوهر الصقلي من مصر في (رمضان ٣٦٥هـ/ أيار ٩٧٦م) متوجهاً إلى دمشق، واستولى في طريقه على الرملة، وفرَّ حكامها القرامطة إلى الأحساء، ولما علم أفتكين بزحف الجيش الفاطمي إلى دمشق، خشي من الأخطار التي قد تُحدق بأهلها، فأعرب لهم عن استعداده للرحيل عن المدينة، كي يُجنِّبهم شرَّ القتال، لكن أهل دمشق جدَّدوا ثقتهم به، وتمسَّكوا ببقائه بينهم، ووعدوه ببذل الأموال والأنفس، فقرَّر عندئذٍ البقاء في المدينة، واتخذ التدابير الدفاعية اللازمة للتصدي للجيش الفاطمي[3].

وكان العزيز قد حمَّل جوهراً الصقلي كتاب عفو وأمان لأفتكين، وخاتماً دستاً من ثيابه، فلما استولى على الرملة كتب إليه بالرفق والملاطفة، وأعلمه بقرار العفو، وأشار عليه بترك الفتنة والدخول في طاعة العزيز، فأجابه أفتكين بالشكر على حسن سعيه لدى العزيز، واعتذر برفض أهل دمشق عودة الحكم الفاطمي إلى مدينتهم، ما دفع جوهراً الصقلي إلى متابعة زحفه باتجاه دمشق للقضاء على حركته، وإعادة بسط السيطرة الفاطمية على المدينة، ولما وصل إليها في (أول ذي الحجة/ ٣١ تموز) ضرب عليها حصاراً مركَّزاً، وأبدى أفتكين شجاعة فائقة في التصدي له، ودارت بينهما معارك عديدة انتهت بهزيمة أفتكين، كما أن طول مدة الحصار الذي استمر خمسة أشهر، أدَّى إلى مضايقة

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٩ ـ ٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٠.

السكان، فأشاروا عليه أن يطلب المساعدة من الحسن الأعصم، زعيم القرامطة في البحرين، فوعده هذا بالمساعدة، وسار إليه من الأحساء مع عسكره[1].

أدرك جوهر الصقلي بعد أن علم بخروج الحسن الأعصم، أنه لا قِبَلَ له بمواجهة عدوَّين، فرأى أن يُنهي حصاره لدمشق ويرحل إلى الرملة، وبخاصة أن موارده قد نضبت، وهلك كثير من جنده، لذلك طلب الصلح من أفتكين مقابل الجلاء عن دمشق، فأجابه أفتكين إلى طلبه، فرفع جوهر الصقلي عندئذٍ الحصار عن المدينة في (٣ جمادى الأولى ٣٦٦هـ/ ٢٨ كانون الأول ٩٧٦م)، وغادر المنطقة إلى طبرية[2].

ووصل الحسن الأعصم في هذه الأثناء إلى دمشق، وانضم مع قواته إلى أفتكين، وتقرَّر تنفيذ عملية مطاردة للجيش الفاطمي، ولما علم جوهر الصقلي بذلك، سار إلى الرملة، وأرسل أثقاله إلى عسقلان، وكتب إلى العزيز يُعلمه بوضعه الحرج، ويطلب منه تعزيزات إضافية، غير أن التعزيزات العسكرية والتموينية لم تصل، وساء وضعه عندما منع أفتكين الماء عنه، فكتب إلى الوزير أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان، وأنه لا قِبَل له بمواجهة جيوش الحليفين، وطلب أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان، فأذن له، وتبعه الحليفان وحاصراه في تلك المدينة، فندرت المؤن، وعزَّت الأقوات، وارتفعت الأسعار، وأصاب السكان ضيق شديد، وكان الوقت شتاءً لا يسهل معه حمل المؤن في البحر، واشتدَّ الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار مُعزّي، فرأى جوهر الصقلي الذي اتصف بالبراعة السياسية، وبُعد النظر أن يتصرف بمعزل عن القاهرة حتى لا يقع فريسة في أيدي أعدائه، فعمل على فكِّ التحالف بين أفتكين والحسن الأعصم، فكتب إلى الأول يطلب المهادنة، وأبدى رغبته في مقابلته. رحَّب أفتكين بهذا اللقاء الذي تمَّ بينهما، وتمكَّن جوهر الصقلي من إقناع خصمه بالحل السياسي، وفضِّ تحالفه مع الحسن الأعصم، واتفق الرجلان على أن:

- يكون من عسقلان وما يليها من أعمال الشام لأفتكين.

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٣٠ ـ ٣١.
(٢) المصدر نفسه: ص٣١.

- تُقام الدعوة للعزيز في عسقلان.
- يعود خراج عسقلان لأفتكين[1].

الواقع أن جوهراً الصقلي لم يتراجع عن عزمه بمحاربة خصميه، وإنما هدف إلى كسب الوقت، وتحسين وضعه القتالي، واستغلال فرصة أخرى أكثر ملاءمة.

لم يكن الحسن الأعصم بغافل عن تلك الحقيقة، ولما أخبره أفتكين بما تمَّ بينه وبين جوهر الصقلي، خطَّأ رأيه وقال له: «... سيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا، ثم لا يكون بنا طاقة فيأخذنا»، ونصحه بنقض الاتفاق وشنِّ هجوم مشترك على جوهر الصقلي وقوّاته، لكن أفتكين رفض أن ينكث بيمينه ويغدر بما تعاهد عليه[2].

وفعلاً عاد جوهر الصقلي إلى القاهرة، وأوضح للعزيز حقيقة الوضع في بلاد الشام، وما أصاب سلطان الفاطميين من ضعف وانحلال، وأبلغه بأن أفتكين والحسن الأعصم سوف يهاجمان القاهرة، وأشار عليه الخروج بنفسه لاستعادة نفوذه على هذه البلاد، فأمر العزيز بتجهيز الجيش، وخرج على رأسه، وجعل جوهراً الصقلي على مقدمته[3].

بلغت أنباء خروج العزيز من مصر مسامع أفتكين والحسن الأعصم فتراجعا من عسقلان وعادا إلى الرملة استعداداً لمواجهته والتصدي له عند هذه المدينة، وعسكرا في المكان المعروف ببركة الخيزران، في حين عسكر الجيش الفاطمي بظاهر الرملة في المكان المعروف بقصر ابن السرح، على مقربة من جيش التحالف.

ودار قتال بين الطرفين على نهر الطواحين، واستبسل أفتكين في القتال ومعه الحسن الأعصم، وانتهت المعركة في (٢٢ محرم ٣٦٨هـ/ ٣٠ آب ٩٧٨م) بانتصار الجيش الفاطمي، وهرب أفتكين في جوِّ الهزيمة القاتم باتجاه

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٣١ ـ ٣٣. الأنطاكي، يحيى بن سعيد: **تاريخ الأنطاكي**، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تح: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، لبنان ـ طرابلس.
(٢) ابن القلانسي، م.س: ص٣٣.
(٣) المصدر نفسه: الأنطاكي، م.س: ص١٨١.

الساحل، لكن قُبض عليه وسيق إلى العزيز الذي عفا عنه، وولَّى الحسن الأعصم منهزماً إلى طبرية حيث لحق به رسول العزيز يدعوه إلى مقابلته، ووعده بالعفو عنه، فلم تلقَ هذه الدعوة قبولاً منه، وتابع طريقه إلى الأحساء بعد أن اتفق مع العزيز على أن:

- يؤدي إليه مبلغ ثلاثين ألف دينار كل سنة.
- يدخل في طاعته[١].

توفي الحسن الأعصم في الرملة يوم الأربعاء في (٢٣ رجب ٣٦٦هـ/ ١٠ آذار ٩٧٧م)[٢]، أو في الأحساء، فقد ذكر ابن الأثير: «أنه وصل منهزماً إلى طبرية، فأدركه رسول العزيز يدعوه إلى العود إليه ليُحسن إليه، ويفعل معه أكثر مما فعل مع أفتكين، فلم يرجع، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار، وجعلها له كل سنة، فكان يُرسلها إليه، وعاد إلى الأحساء»[٣].

نهاية الدولة القرمطية في البحرين

دخل القرامطة بعد وفاة الحسن الأعصم مرحلة النهاية، فقد دبَّ الانقسام في صفوفهم، كان من نتائجه تعديل نظام مجلس العقدانية وتحويله إلى نظام السادة، وأصبحت دفَّة الحكم منذئذٍ بين أيدي ستة زعماء يلقَّبون بالسادة، ويُنتخبون من بين أحفاد أبي سعيد الجنَّابي، وقد أوهن هذا التحول قيادتهم المركزية، كما أضعفت دولَتهم الحروبُ التي شنَّها أبو طاهر سليمان والحسن الأعصم خارج مركزها في البحرين، والتي كبَّدتهم أموالاً طائلة، فتراجعت مكانتهم وهيبتهم في نفوس أعدائهم، لكن ظلَّت لهم قوة مختزنة أفرغوها في الصدامات مع خصومهم الطامعين في الاستيلاء على أملاكهم.

ففي عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٧ - ٩٧٨م) قام القائد القرمطي أبو بكر بن شاهويه، وهو ممثل القرامطة في بغداد بالاستيلاء على الكوفة وسوادها لصالح عضد الدولة أبي شجاع خسرو البويهي[٤]، ويبدو أنهم لم يعودوا مكروهين خلال

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٣٤ - ٣٥. الأنطاكي، م.س: ص١٨١ - ١٨٢.
(٢) المقريزي: **المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها**، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س: جـ٢ ص٥٩٨.
(٣) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٣٣٧.
(٤) الهمذاني، م.س: ص٢٣٣.

تلك المدة، وتغيَّرت مواقف الناس تجاههم، إلى حدِّ أن أسواق الكوفة ظلّت مقفلة، ثلاثة أيام في العام المذكور حين وصل إليها نبأ وفاة أبي يوسف يعقوب[١]، وهذا دليل على تحالف القرامطة مع البويهيين.

توفي عضد الدولة البويهي في عام (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) وخلفه ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان، فساءت العلاقات بينه وبين القرامطة، وقام هؤلاء بمهاجمة بغداد في عام (٣٧٤هـ/ ٩٨٤م)، ولما اقتربت جيوشهم منها تمَّ استرضاؤهم بمختلف التنازلات[٢]، لكن الحرب اندلعت في السنة التالية بسبب قبض صمصام الدولة على ممثل القرامطة في بغداد أبي بكر بن شاهويه، فهاجم القائدان إسحاق وجعفر الكوفة ودخلاها في جوِّ الانتصار، وبثَّا أصحابهما، وجبيا المال[٣].

ووصل في غضون ذلك، أبو قيس الحسن بن المنذر إلى الجامَعيْن[٤]، وهو من زعمائهم، فأرسل صمصام الدولة العساكر ومعهم العرب، فعبروا الفرات إليه وقاتلوه، فانهزم عنهم، وأُسر مع جماعة من قادته حيث قُتلوا، لكن القرامطة لم ييأسوا وسيَّروا جيشاً آخر كثيف العدد، كثير العدَّة، فاصطدم بقوات صمصام الدولة بالجامَعيْن أيضاً، وأسفرت المعركة عن انتصار القوات البويهية[٥].

وما لبث الخلاف أن دبَّ بين القائدين إسحاق وجعفر بسبب الصراع على السلطة، فاستغل الأصفر بن أبي الحسن التغلبي شيخ قبائل المنتفق هذه الفرصة، وهاجم الأحساء في عام (٣٧٨هـ/ ٩٨٨م) وحاصرها، إلا أنه لم يتمكَّن من النيل منها، فغادرها وتوجَّه إلى القطيف، وسلب ما فيها من أموال وممتلكات القرامطة[٦].

تُعدُّ هذه الحملة تحولاً خطيراً في تاريخ القرامطة، كشفت عن ضعفهم، وأدَّت إلى استياء عام، ونَزْع السلطة من أيدي أحفاد أبي سعيد وتسليمها إلى

(١) الهمذاني، م.س: ص٢٣٦.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٤٠٩.
(٣) الجامَعيْن: مدينة بين بغداد والكوفة. الحموي، م.س: جـ٢ ص٩٦.
(٤) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٤٠٩.
(٥) المصدر نفسه: م.س: جـ٧ ص٤٢٣.
(٦) التاجر، محمد علي: **عقد اللآل في تاريخ أوال**، مخطوط ملحق بكتاب مي محمد الخليفة، **من سواد الكوفة إلى البحرين**، م.س: ص٣٤٦.

رجال آخرين، وظهور زعامات محلية، قامت باستلام السلطة في مناطقها.

وجدَّد الأصفر هجومه على الأحساء في عام (٣٩٨هـ/١٠٠٧ ـ ١٠٠٨م)، وانتزعها من أيدي القرامطة[1]، وخطب للخليفة العباسي الطائع، واستمرت سلطته حتى عام (٤٤٩هـ/١٠٥٧م)، عندما استقل أبو البهلول العوام ابن محمد بن يوسف الزجاج بجزيرة أوال، وكان ضامناً خراجها، وخطب لنفسه على منابرها، وطرد عمال القرامطة، فجهز هؤلاء جيشاً من قبيلة عبد القيس اصطدم به، غير أنه تغلَّب عليه[2]، ويدل ذلك على أن القرامطة وصلوا إلى درجة من الضعف عجزوا معها عن ردِّ الغارات على أملاكهم والتصدي للخارجين عليهم، فاستعانوا بالقبائل التي كانت تمثِّل القوة العسكرية لجيوشهم والتي راحت تتنافس فيما بينها، وهم في الواقع مرتزقة يعملون مع القوة المتغلِّبة مقابل الحصول على الغنائم.

تلا فقدان جزيرة أوال سقوط القطيف في يد يحيىٰ بن العياش، الذي انتزع جزيرة أوال من يد أبي البهلول، واستولى على البحرين في عام (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٧٦م)، ويختفي ذكر القرامطة مع دخول عبد الله بن علي ابن محمد بن إبراهيم العيوني إلى الأحساء والسيطرة عليها[3].

الواقع أن الدولة القرمطية في البحرين والأحساء والقطيف تلاشت تدريجاً حتى انتهت كدولة بعد سيطرة الأمراء المحلّيين عليها، وعلى رأسهم الأصفر التغلبي، وأبو البهلول، وابن العياش، وعبد الله العيوني، والمعروف أن الأخير التمس المساعدة من السلطان السلجوقي ملكشاه، فأمده بسبعة آلاف مقاتل ساعدوه في الاستيلاء على أملاك القرامطة، وإخراجهم من الأحساء ومن جميع بلاد البحرين[4].

---

(١) التاجر، م.س: ص٣٤٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) العصفور، الشيخ محمد علي: **منتخبات من كتاب تاريخ البحرين**، مخطوط ملحق بكتاب مي محمد الخليفة، **من سواد الكوفة إلى البحرين**، م.س: ص٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٦٠.

الفصل الثامن

قرامطة اليمن

تمهيد

غلبت الطبيعة الجبلية على أرض اليمن، ولهذا نادراً ما نعمت بالوحدة السياسية والاستقرار، نلاحظ ذلك من تاريخها في العصر الجاهلي، وشغلت قبل الإسلام حيّزاً مهماً في التاريخ وبخاصة بالنسبة للتجارة بين الشرق الأقصى وبعض أجزاء أفريقيا وبين الشرق الأدنى وأوروبا.

ودخل كثير من القبائل اليمنية في الإسلام وشاركت في الفتوح، لا سيما قبيلة همدان، وتأثرت اليمن بعد قيام الخلافة الأموية في عام (٤١هـ/ ٦٦١م) بالتحولات التي طرأت على طرق التجارة، والأوضاع الاقتصادية في العالم بسبب ما أفرزته الفتوح من أوضاع جديدة.

وعاشت اليمن على هامش الخلافة الأموية بوصفها من أطراف بلاد الإسلام وبعيدة عن مركز الخلافة، ولم يتغيَّر وضعها كثيراً في ظل الخلافة العباسية، لذلك توجَّهت أنظار بعض الأحزاب المعارضة إليها، ففي عهد يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٣هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م)، نُصح الحسين بن علي بن أبي طالب بالذهاب إلى اليمن، وبعدم الذهاب إلى الكوفة، وذلك بسبب طبيعتها الجبلية وحصانتها ومنعتها، ولأن قبائلها كانت من أنصار أبيه، وتوجَّهت أنظار أحزاب المعارضة إلى اليمن، فنشط الخوارج فيها منذ أواخر العهد الأموي، كما نشط فيها دعاة الشيعة أيام الخلافة العباسية.

وعُرِف أهل اليمن منذ تاريخ صدر الإسلام بحبِّهم لآل البيت النبوي، وبخاصة قبيلة همدان المشهورة بما كان لها من المشاركة بفعالية في معركة صفّين مع علي بن أبي طالب ضد معاوية بن أبي سفيان، ولم يزل رجالها يتقربون من علي بمناصرته ولزوم جماعته.

وأصاب اليمن رذاذ الفتنة إثر مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان ابن عفان، فتعصَّبت طائفة يمنية لعثمان، وراسلت معاوية بن أبي سفيان، فأرسل هذا بسر بن أرطاة العامري، فدخل اليمن واضطهد أنصار علي وشيعته، فانحازت همدان إلى جبل شبام همدان ومرمر، وتحصَّنت بهما.

وبرزت الحركات السياسية المذهبية المعارضة منذ مطلع القرن الثالث الهجري، وقد تطلَّعت إلى اليمن، فكانت الحركة الإسماعيلية من أوائل هذه الحركات، وقد رسمت خطة ترمي إلى إقامة دولة منفصلة عن دولة الخلافة العباسية في اليمن.

وظهر في اليمن رجال دعاة ذوو خبرة في العمل الدعوي مثل أحمد ابن عبد الله بن خليع في عدن لاعة الواقعة في الشمال الغربي من اليمن، وكان خبيراً برجال الشيعة ومن ينتمي إليهم، وكان مذهب الاثني عشري وغيره من المذاهب الشيعية الأخرى، في طور النمو والاكتمال، فكان ابن خليع يبث تعاليمه، ويُبشِّر باقتراب ظهور المهدي الذي سيظهر في العام الذي يدخل فيه منصور اليمن، وأخذ يُعدُّ عدَّته من سلاح ومال.

دور الستر والإعداد

قامت الدعوة الإسماعيلية في اليمن على أيدي داعيين هما: علي بن الفضل اليمني الجيشاني، والحسن بن فرج بن حوشب بن زادان (منصور اليمن).

كان علي بن الفضل أحد زعماء اليمن من الشيعة الاثني عشرية، وقد توجَّه في عام (٢٦٦هـ/ ٨٨٠م) إلى مكة لأداء فريضة الحج، وبعد فراغه من أداء هذه الفريضة زار قبر الرسول ﷺ ثم غادر الحجاز إلى العراق لزيارة قبر الحسين، فرأى عنده زائرين كُثر، فاجتهد بالبكاء والجزع ما لفت انتباه الإمام الإسماعيلي عبيد الله فتقرَّب منه، وتعرَّف عليه ثم استقطبه إلى دعوته[١].

والملاحظ أن تاريخ الحادثة يتوافق مع التاريخ المبكر للحركة القرمطية في سواد الكوفة، يضاف إلى ذلك، فقد وُصف بالقرمطة من جانب المصادر التي

(١) الخزرجي، علي بن الحسن: **العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك**، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س: جـ٢ ص٦١٥ ـ ٦١٦.

تحدثت عن النشاط الدعوي في الشمال الأفريقي وفي مناطق أخرى، لكن سمَّته نشاطاً إسماعيلياً، وميَّزته عن النشاط القرمطي. ونتيجة لذلك هل جرى تجنيد علي بن الفضل بن قِبَل الحركة القرمطية، وبخاصة أن تسمية القرامطة أُطلقت على حركة سواد الكوفة أولاً ثم عُمِّمت فيما بعد على كل من ارتبطت أصوله بها[١]؟ الواقع أن المصادر لا تشير إلى ذلك، بل ذكرت علي بن الفضل كأحد الدعاة الإسماعيليين المُكلَّف من قبل الإمام الإسماعيلي بنشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن، يضاف إلى ذلك، لم يطلق أصحاب هذه الحركة على أنفسهم اسماً محدداً، ما يدفعنا إلى القول بأن ما أُطلق على إسماعيلية المغرب يمكن أن يُطلق على إسماعيلية اليمن، وهو اسم الفاطميين، والمعروف أنهم كانوا يصدرون أعمالهم في بداية الأمر باسم الإمام وأمير المؤمنين، ويُقصد بهما الإمام الإسماعيلي.

ومهما يكن من أمر، توحي الإشارات الواردة في المصادر الإسماعيلية، والمناهضة لها، إلى أن ترتيباً سرّياً جرى لإرسال علي بن الفضل من اليمن إلى العراق لمقابلة الإمام الإسماعيلي وتلقّي التعليمات منه[٢]، وذلك في عام (٢٦٦هـ/ ٨٨٠م)، وجمع الإمام بينه وبين الداعي الحسن بن فرج ابن حوشب بن زادان المعروف بمنصور اليمن، وهو كوفي، وزوَّدهما بالتعليمات اللازمة بعد أن نالا قسطاً من الإعداد الذي استمر مدة عامين، وأرسلهما إلى اليمن.

غادر الداعيان الإسماعيليان الكوفة في (أواخر ٢٦٧هـ/ أواسط ٨٨١م)، وتوجها إلى مكة، فأديا فريضة الحج، ثم غادرا بلاد الحجاز متوجهين إلى اليمن، وبلغا غلافقة[٣] في (مستهل عام ٢٦٨هـ/ آب ٨٨١م) ثم افترقا بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ليتعرف أحواله.

(١) زكار، م.س: جـ١ ص١٤٣.

(٢) الحمادي، محمد بن مالك بن أبي الفضائل اليماني: **كشف أسرار الباطنية**: جـ٢ ص٣٥٩ ـ ٣٦٠، تحقيق: سهيل زكار، **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س.

(٣) غلافقة: بلد على ساحل بحر اليمن (البحر الأحمر) مقابل زبيد، وهي مرسى زبيد بينهما خمسة عشر ميلاً. الحموي، م.س: جـ٤ ص٢٠٨.

علي بن الفضل: استقر علي بن الفضل في الجنوب الشرقي من اليمن وفقاً لتعليمات الإمام، فقصد أولاً بلد يافع، وأخذ يتعبَّد في الأودية والشعاب، فاستقطب أهل البلاد، فطلبوا منه أن يستقر في جبلهم، فأجابهم على شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فسمعوا له وأطاعوه، وقدَّموا لهم زكاة أموالهم، وأخذ عليهم العهود بالسمع والطاعة، وأمرهم ببناء حصن في ناحية السرو لاتخاذه قاعدة، ففعلوا[١]، وقادهم للإغارة على أطراف البلاد بهدف السلب والنهب، وأوضح لهم أن ذلك جهاد في سبيل الله، ثم هاجم أبا العلاء حاكم لحج أبين، فاصطدم به، وتغلَّب عليه، وفرَّ أبو العلاء إلى صَهيب[٢] مع أتباعه، ففاجأهم وقضى عليهم جميعاً، واستباح أموالهم وممتلكاتهم، فذاع صيته واشتهر أمره، وهاجم المذيخرة[٣] في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م) فاصطدم بصاحبها جعفر بن أحمد المناخي في (رمضان/آب) إلا أنه خسر المعركة وعاد إلى بلد يافع، فأعاد تنظيم صفوف قواته، وهاجم المدينة في العام التالي ودخلها، واستولى على حصن التعكر[٤]، ففرَّ جعفر بن أحمد المناخي إلى القرتب في وادي زبيد، فأمدَّه صاحب زبيد بجيش كثيف، فزحف على رأسه باتجاه المذيخرة لاستعادتها، فاصطدم به علي بن الفضل في معركة ضارية، قُتل فيها جعفر بن إبراهيم وابن عمه أبو الفتوح، وحُملت رؤوسهم إلى المذيخرة، وتمَّ لعلي بن الفضل الاستيلاء على بلاد المناخي، واستقر بها، وما زال يواصل انتصاراته حتى دخلت قبيلة مذحج وغيرها في طاعته، ثم هاجم صنعاء في (محرم ٢٩٣هـ/ تشرين الثاني ٩٠٥م)، فتصدَّى له أسعد بن يعفر خارجها، لكنه لم يتمكَّن من التغلُّب عليه، وعاد إلى صنعاء للتحصُّن بها، فلحقه علي بن الفضل، وتمكَّن من

(١) الحمادي اليماني، م.س: جـ٢ ص٣٦٦.

(٢) صَهيب: بلدة في الجنوب الشرقي من الضالع.

(٣) المذيخرة: اسم قلعة حصينة في رأس جبل صَبِر، وهي قريبة من عدن. الحموي، م.س: جـ٥ ص٩٠.

(٤) التَعَكر: قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر، مطلَّة على ذي جبْلة. المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٤.

هزيمته، ودخل المدينة واستباحها، وخرج ابن يعفر منها هارباً إلى الجوف[١].

أقام علي بن الفضل خمسة عشر يوماً في صنعاء ينهب ويسلب، ثم خرج منها يريد قبيلة قدم الضاربة في شرقي حجة، فقاتلها خمسين يوماً ولم يظفر بها، ثم سار باتجاه الغرب، فاستباحه ونهبه وسبى النساء وأخذ الأموال[٢].

وسار علي بن الفضل في عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) باتجاه تهامة، فبعث الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابنه أبا القاسم للتصدي له، غير أنه انهزم أمامه، ودخل علي بن الفضل الكدرا[٣] واستباحها[٤].

الحسن بن فرج بن حوشب: سار الحسن بن فرج بن حوشب الذي اشتهر بابن حوشب ومنصور اليمن، إلى عدن لاعة وفقاً لتعليمات الإمام الإسماعيلي، فانتهى به السير إلى عدن أبين، فوجد هناك رجالاً على مذهبه دلُّوه على عدن لاعة، فسار إليها ووجد بها أنصاره، فأكرموا وفادته، وتزوَّج ابنة أحمد بن عبد الله الخليع، الداعي قبله، وأعطاه ما بحوزته من مال وسلاح، فأظهر الدعوة، وراح ينشر أفكاره، وسكن في جبل مسور بعد أن استولى عليه، كما استولى على كوكبان وما بينهما من البلاد، ومنها شبام، فسيطر بذلك على مخاليف الغرب، وعيَّن الولاة على الأقاليم التي سيطر عليها، وقمع كل المؤامرات التي تعرَّض لها، والتفَّت حوله جماعة من همدان، فاستفحل أمره، وعهد إلى الثقات العدول من أتباعه بجمع الزكاة عن أموالهم وفقاً للشريعة الإسلامية[٥]، وكتب ابن حوشب إلى عبيد الله بخبر نجاحه، ودخول الكثير من مخاليف اليمن في الدعوة الإسماعيلية، وذلك في غضون ثلاث سنوات من بسط نفوذه على رقعة واسعة من اليمن.

(١) الحمادي اليماني: ص٢٨. العلوي، علي بن محمد بن عبيد الله العباسي: **سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين**، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س: جـ١ ص٢٥٣. الخزرجي، م.س: جـ٢ ص٦٢٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكدرا: اسم مدينة في اليمن على وادي سهام اختطها حسين بن سلامة، وهي أمه. الحموي، م.س: جـ٤ ص٤٤١.

(٤) العلوي، م.س: جـ١ ص٢٥٤. الخزرجي، م.س: جـ٢ ص٦٢٣.

(٥) الحمادي اليماني، م.س: جـ٢ ص٣٦١ ـ ٣٦٢.

وبعد أن استقرَّ، وتمكَّن في الأرض، ولم يعد يخشى القوى المحلّية وبخاصة بعد مقتل محمد بن يعفر، واختلاف أتباعه فيما بينهم، طلب من أنصاره أن يبنوا له حصناً يدع فيه الأموال التي جمعها، ويتخذه ملاذاً يعتصم به إذا هاجمه عدو، وقاعدة لشنِّ الهجمات ضد أعدائه، فبنوا له موضعاً يُقال له عثر محرم، وهو جبل تحت مسور، فأقام بالحصن مع أتباعه وأسرهم[1].

أسباب نجاح الداعيين

لم يحمل أي من الداعيين، علي بن الفضل وابن حوشب، أي برامج اقتصادية واجتماعية من حيث الواقع النظري والتطبيق العملي، فما هو سرُّ الاستجابة الواسعة التي لاقاها كل منهما في اليمن؟

يبدو أن العصبية أدَّت دوراً بارزاً في ذلك، وهذا واضح من خلال الشعر المنسوب إلى علي بن الفضل[2] حتى كأننا أمام ردِّ فعل يماني جديد، فقد ضاق اليمانيون دوماً بالزعامات العدنانية المتمثلة بولاية قريش، فلا غرابة إن رأينا التمرد على الإمامة قد أخذ شكل ردِّ فعل ضد هذه الولاية، يضاف إلى ذلك استعمال القسوة ضد الأعداء والإفراط في القتل؛ ما أرهب اليمنيين.

انشقاق علي بن الفضل

تزامن ظهور الطور القرمطي الجديد في اليمن مع ما كان يدور في أوساط قيادة الحركة الإسماعيلية في سلمية من خلاف حول إمكان إظهار الباطن أو الاستمرار في السير على ما هي عليه، ويبدو أن هذه القيادة التي بسطت نفوذها على المغرب في شمالي أفريقيا تحت ستار الزهد والتنسُّك، لم يكن بوسعها أن تُظهر ما تبطن من أفكار، ولهذا أعلن علي بن الفضل عدم رضاه بما يقوم به الإمام، وهو الذي أراد إظهار تعاليم الحركة الإسماعيلية الباطنية، فخرج على الإمامة مقتدياً بحمدان بن الأشعث قرمط وبأبي سعيد الجنابي مستغلاً طموحه الشخصي، والظروف التي ساعدته على النصر على القوى الموجودة في اليمن، وكان طامعاً في أن يكون هو وابن حوشب يداً واحدة في

(١) الحمادي اليماني، م.س: جـ٢ ص٣٦٣. الخزرجي: جـ٢ ص٦٢٨.

(٢) انظر: الخزرجي: المصدر نفسه: ص٦٢٢.

هذا التوجه، ولكن الأخير كان أكثر التزاماً بالخطِّ الذي تسير عليه القيادة الإسماعيلية، وقد أُطلق اسم القرامطة، منذ ذلك الحين عليه وعلى أتباعه، فهل كل من يخرج على الإمامة الإسماعيلية يوصف بالقرمطة؟

ومن أبرز ما حدث في هذا الطور، ما أثارته المصادر غير الإسماعيلية صراحة حول اتِّهام علي بن الفضل بثلاث تُهم خطيرة هي: ادعاء النبوة، وإسقاط التكاليف الشرعية أو تعديلها، واستباحة المحرَّمات، ونشير في هذا المقام إلى ما قاله علي بن الفضل لأتباعه عندما أعلن انشقاقه: «أنا الإمام المهدي الذي كنت دعوتكم إليه، فاحلقوا رؤوسكم، فحلق منهم حوالي مئة ألف نفس يظنون أن ذلك شيء من الدين، وأباح لهم ما حُرِّم عليهم، وقال: إنما الجنة التي ذكرها الله في كتابه، هي الدخول في اللذات المكتومات عن هذا الخلق المنكود، ولهذا سُميت الجنُّ جنّاً؛ لاستتارهم عن أعين الناس، وقد أبحت لكم إظهارها، فصدَّقوه، وانتهكوا المحارم، ونسخ لهم الشرائع، وادعى بعد ذلك أنه نبي نسخ الله تعالى به نبوة محمد ﷺ بتحليل ما حرَّم الله عليه، وتحريم ما أحلَّ الله له، وقال: إني بُعثت بالراحة السمحة، والاستباحة المحضة، ويعني بالراحة ترك العبادات، وبالاستباحة ترك المحظورات، فتبعه خلق كثير، وأمر جواريه أن يضربن بالدفوف على المنبر ويغنين بشعر قاله»[1].

وأظهر علي بن الفضل المجوسية، وأمر أتباعه بنكاح الأمهات والأخوات، وشرب الخمر، وحرَّم جميع الحلال، وأحلَّ جميع الحرام، وكفر بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله ﷻ، وتسمّى برب العالمين، وأمر من كان معه أن يسلموا الأموال والحرم، ويُخرجوا إليه من جمع ما في أيديهم[2].

والملفت في تلك التهم أن المذهب الإسماعيلي قائم على عقيدة فلسفية تعتمد الباطن على الظاهر، وتعدُّ الباطن هو الحقيقة، وهو ما تحيا به الخاصة، والظاهر هو الشريعة، وهو ما تسير عليه العامة، وأنه لا ظاهر إلا وله باطن، من هنا فإن تأويلهم الباطني لكل مبادئ الشريعة الإسلامية جعلهم

(١) انظر: زكار، م.س: جـ١ ص٤٤ ـ ١٤٥. وانظر: قصيدة له عند اللاذقاني، محي الدين، **ثلاثية الحلم القرمطي**، اللاذقية، ١٩٨٧م: ص٤٧.

(٢) العلوي، م.س: ٢٥٨.

يخرجون بعقيدة خاصة بهم تشمل: الألوهية، والتوحيد، والوحي، والنبوة، والرسالة، والإمامة، وعصمة الأئمة، واليوم الآخر، والبعث، والحساب، والجنة، والنار، ونظرتهم إلى شيوع المال والنساء، وهي عقيدة تعطِّل الفرائض والسنن، وتجعل معتنقيها خارجين عن الدين الحنيف، وهي عقيدة إلحادية.

نهاية علي بن الفضل

أقام علي بن الفضل لنفسه ملكاً واسعاً في ربوع اليمن حكمه بالقوة والعنف، مستقلاً عن الفاطميين، واتخذ المذيخرة عاصمة لملكه في عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م)، وتوفي مسموماً على يد رجل عبَّر عن اسمه بالشريف، وهو رجل غريب قدم من بغداد، وقيل من الحجاز، وكان جرَّاحاً ماهراً، اتصل بأسعد بن أبي يعفر الحوالي، فرأى من خوفه وقلقه من علي بن الفضل ما دفعه إلى المغامرة بنفسه، والموت في سبيل الله، وإنقاذ المسلمين من طغيانه وإلحاده عبر اغتياله، ولما عرض فكرته على أسعد اليعفري، وعده المشاطرة فيما يملك إن هو نجح في ذلك؛ فرحل الشريف إلى المذيخرة واختلط برجال الدولة، فوضع لهم الأشربة، وركَّب الأدوية، ووصف لهم العقاقير ونحوها، حتى وثقوا به، ونال شهرة عندهم، ورُفع خبره إلى علي بن الفضل، وكان قد اضطر إلى الفصد، فطلبه ليقوم بهذه العملية، فاستغل هذه الفرصة، ودسَّ له السمَّ في مشرطه، وما إن انتهى من مهمته حتى أدرك علي بن الفضل سرَّ عمله، وشعر بالسمِّ يجري في جسمه، فأمر بالقبض عليه، وكان قد غادر المدينة، فطاردته سرية قرمطية وأدركته في وادي السحول، وهي قرية باليمن، ولما حاول أفراد السرية القبض عليه، دافع عن نفسه حتى قُتل، وتوفي علي ابن الفضل في (١٥ ربيع الآخر ٣٠٣هـ/ ٢٨ تشرين الأول ٩١٥م) متأثراً بالسمِّ، ودُفن في المذيخرة[1].

انعكاسات وفاة علي بن الفضل

خلف علي بن الفضل ابنه الفأفأ، فأساء السيرة في أصحاب والده، فاضطهدهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، ولما علم أسعد اليعفري بذلك نهض من

(١) الخزرجي، م.س: جـ٢ ص٦٢٥ ـ ٦٢٦. الحمادي اليماني، م.س: جـ٢ ص٣٧٦ ـ ٣٧٩.

صنعاء، فجمع الجموع لاستئصال شأفة القرامطة، وقطع دابرهم، فزحف على رأس الجيش لحربهم، فدخل التعكر، وهو من أمنع حصونهم، ثم تقدم إلى جبل التومان في الجنوب الشرقي من جبل المذيخرة، فوافته القبائل اليمنية من كل حدب وصوب، وانضمت إلى قوات جيشه، فترأس الجميع وأغار على مخلاف جعفر، وهاجم الحصون، وتغلَّب على الفِرق القرمطية التي كانت تخرج من المذيخرة تباعاً، فوهنت قوة القرامطة، وخارت عزائمهم، وكان أسعد اليعفري يُشدِّد عليهم الحصار، ويبالغ في التضييق عليهم حتى عجزوا عن المقاومة، ما أتاح له دخول المذيخرة بالغلبة، وذلك يوم الخميس (٢٣ رجب ٣٠٤هـ/ ٢٠ كانون الثاني ٩١٧م)، فنهبها، وهدمها، وسبى جميع أهلها، وقتل الفأفأ بن علي بن الفضل، وجميع من ظفر به من خواصه وأهله ومن دخل في مذهبه، وأرسل رؤوسهم إلى بغداد، ثم عاد إلى صنعاء، وملك قسماً كبيراً من البلاد، وزالت محاولة القرامطة إقامة كيان لهم في اليمن، واتفق مع الأمير إبراهيم بن زياد في تهامة وزبيد، والإمام الزيدي الناصر أحمد بن يحيى الإمام الهادي صاحب صعدة؛ على التعاون في ملاحقة فلولهم أينما وُجِدوا في اليمن[1].

وفاة الحسن بن فرج بن حوشب وانعكاساته

توفي ابن حوشب (منصور اليمن) في عام (٣٠٢هـ/ ٩١٤ ـ ٩١٥م) وكان قد أوصى قبل وفاته إلى ابنه أبو الحسن المنصور وإلى رجل من أصحابه يقال له عبد الله بن عباس الشاوري، وأمرهما بالمحافظة على مذهبه، وأن لا يقطعا أمراً من دون عبيد الله المهدي، كما أمرهما بمراسلته، فإذا ورد أمره بولاية أحدهما، سمع الآخر وأطاع، فكتب الشاوري إلى المهدي في أفريقيا يُعلمه بموت ابن حوشب ويطلب أن يولّيه مكانه ويعزل أولاد ابن حوشب، وأرسل إليه الهدايا، وذهب أبو الحسن المنصور إلى أفريقيا واجتمع بعبيد الله المهدي، وطلب منه الولاية لنفسه ولا ينتزع الولاية من أولاد ابن حوشب.

اختار المهدي، الشاوري خلفاً لابن حوشب، وعاد أبو الحسن المنصور

(١) الخزرجي، م.س: جـ٢ ص٦٢٦ ـ ٦٢٧. الحمادي اليماني، م.س: جـ٢ ص٣٧٧.

خائباً، وعندما وصل كتاب الولاية أقدم الشاوري على عزل أولاد ابن حوشب من المناصب كافة، ما دفع أبو الحسن المنصور إلى التخلص منه على الرغم من معارضة إخوته، لا سيما أخوه جعفر، وكان الشاوري لا يحجب أحداً من أولاد ابن حوشب، فاستغل أبو الحسن المنصور هذه الفرصة، ودخل عليه يوماً فلم يجد عنده أحداً، فقتله واستولى على أملاك أبيه، ولما استوثق الأمر له، جمع رعاياه وأشهدهم على نفسه أنه قد خرج من مذهب القرامطة إلى مذهب أهل السُّنَّة، فأحبه الناس، ودانوا له، وطارد القرامطة في آفاق البلاد، وشرَّدهم في خطوة انتقامية.

وخرج أبو الحسن المنصور يوماً إلى عثر مكرم، ويحكمها والٍ من قِبله يُسمى ابن أبي العرجا، واستخلف على مسور، إبراهيم بن عبد الحميد السباعي، فلما دخل المدينة وثب عليه الوالي وقتله واستولى على الحكم، ولما علم إبراهيم بن عبد الحميد بالحادثة لزم مسوراً وادعى الأمر لنفسه، وأخرج أولاد ابن حوشب وحريمه من المدينة إلى جبل ذي عسب، فوثب عليهم المسلَّحون في غربي اليمن وقتلوهم، وسبوا حريمهم، ولم يُبقوا منهم أحداً، واقتسم ابن أبي العرجاء وإبراهيم بن عبد الحميد أملاكهم، وخطب الأخير للخليفة العباسي، وانضوى تحت لواء إبراهيم بن زياد صاحب زبيد، ودخل في طاعته، وطلب منه أن يُرسل إليه رجلاً من قِبله، فأرسل بن زياد رجلاً يُدعى السراج، وأوصاه بقتله، فاستقبله إبراهيم وأكرمه، فدسَّ عليه السراج مَن قتله، ولما تمَّ الأمر قبض إبراهيم بن عبد الحميد علىٰ السراج، فحلق رأسه ولحيته ونفاه، وتتبَّع القرامطة بالقتل والسبي حتى أفناهم ولم يبقَ منهم إلا طائفة قليلة العدد بناحية مسور، وكان سليمان بن عبد الله الزوامي آخر داعٍ قرمطي، وهو رجل من حِمير[1].

وهكذا طُويت هذه الصفحة من تاريخ القراطة في اليمن من دون أن تترك أثراً له صفة الديمومة الإيجابية النافعة أو المهمة، وكانت محاولة فاشلة لإقامة كيان قرمطي مستقل.

(١) انظر: فيما يتعلق بنهاية ابن حوشب وأولاده وكيانهم: الحمادي اليماني، م.س: جـ٢ ص٣٧٩ - ٣٨٢. الخزرجي، م.س: جـ٢ ص٦٢٧ - ٦٢٩.

الفصل التاسع

النظم السياسية والاقتصادية للقرامطة

النظام السياسي

لا يمكن الحديث عن نظام سياسي مكتمل ومتميز نسبياً لدى قرامطة السواد وقرامطة الشام (البادية)، على عكس قرامطة البحرين، فقد كرَّس أبو سعيد الجنَّابي خلال مدة حكمه نظاماً سياسياً وراثياً عبر سيطرة أبنائه من بعده كأسرة حاكمة، واستطاع تسخير الدعوة القرمطية في قيام دولة وراثية، فاستمر أبناؤه في الحكم، وانتهت هذه الدولة بانتهاء حكمهم.

والواضح أن النظام السياسي لقرامطة البحرين كان يتأسس بالقدر الذي كانت فيه القبلية تتيح له ذلك[1]، غير أن الحقيقة، أنا أبا سعيد الجنَّابي، كان حاكماً مطلق الصلاحية، قبض بكلتا يديه على السلطات جميعها، ولم يلتزم تجاه رعيته إلا بأمر واحد، هو التشاور مع آل سنبر الذين نصروه، واتخذ منهم الوزراء.

وقد تكرَّست علاقة سياسية مُحدَّدة بين الأسرتين، شكَّلت أساس البناء السياسي للدولة، وأساس تكوين السلطات فيها، فكانت أسرة الجنَّابي، أسرة السادة أو السادات، وأسرة سنبر، أسرة الشائرة أو الوزراء[2].

وعندما توفي أبو سعيد الجنَّابي، اعترف آل سنبر وأهل البلاد بأحقية أبنائه في وراثته وسلَّموا الحكم إليهم، وقد يختلف من يستحق أن يحكم من الأخوة أو أبناء العم فيما بعد، إنما بات حق الأسرة محسوماً، وكان يجري نقاش داخل الأسرة حول مسألة السلطة بالارتكاز على الوراثة أو على الوراثة مع الوصية أو الوراثة مع الكفاءة الشخصية.

وينعكس هذا النقاش في روايات المؤرخين حول خلافة أبي سعيد الجنَّابي،

(١) بزّون، م.س: ص٢١٠.

(٢) المرجع نفسه: ص٢١٠ - ٢١١.

ففي رواية: «وكان أبو سعيد الجنَّابي قد عهد لابنه الأكبر، سعيد، فعجز عن القيام بالأمر، فغلبه أبو طاهر سليمان...»[1]، وتؤكد رواية أخرى وجود وصية لأبي سعيد قبل وفاته عندما جمع وجوه دولته وأوصى إن حدث به موت يكون القيِّم بالأمر ابنه سعيد، فإذا كبر أبو طاهر سليمان، وكان أصغر من أخيه سعيد، كان هو المدبر، فلما قُتل كان الأمر على ذلك[2].

وتحوَّل النظام السياسي المطلق إلى حكم جماعي في عهد أبي طاهر سليمان، وقد تولى السلطة مجلس حاكم، يُطلق عليه اسم مجلس العقدانية[3]، أو مجلس أهل الحل والعقد، أو مجلس أهل العقيدة، ويستند هذا التحول إلى روايتين:

الأولى: رواية ناصر خسرو، وجاء فيها قول أبي سعيد الجنَّابي قبل وفاته: «يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من أبنائي يحكمون الناس بالعدل والقسطاس، ولا يختلفون فيما بينهم حتى أعود»[4]، والمعروف أن هذا الرحالة الإيراني توجَّه إلى الأحساء وزار عاصمة القرامطة في عام (٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م)، وقدّم لنا وصفاً لمشاهداته فيها.

الثانية: رواية مسكويه، وجاء فيها: «وكان أبو طاهر له أخوان، أبو القاسم سعيد بن الحسن وأبو العباس الفضل بن الحسن، ولهم أخ آخر لا يدخل معهم في أمورهم يُقال له أبو يعقوب إسحاق، وأمرُ الثلاثة واحد، وكلمتهم واحدة، لا يختلفون، فكانوا إذا أرادوا عقد أمر أو ورد عليهم أمر، ركبوا وأصحروا واتفقوا على ما يعملون، ولا يُطلعون أحداً على أمرهم، فإذا انصرفوا، أمضوا ما اتفقوا عليه»[5]، وتوحي هذه الرواية أن ثلاثة من أبناء أبي سعيد الجنَّابي قد حكموا معاً.

وتتعارض الروايتان مع الحقائق التاريخية من أن سعيداً قد غُلب على أمره،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٦ ص٦٣٠. الصابئ، م.س: جـ١ ص٢١١.
(٢) المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س: جـ٢ ص٥٤٦.
(٣) ابن خلدون، م.س: جـ٤ ص٨٨.
(٤) **سفرنامة**، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: **الجامع في أخبار القرامطة**، م.س: جـ١ ص٣٣٣.
(٥) تجارب الأمم، م.س: جـ٦ ص٥٦ ـ ٥٧.

وأن أخاه أبو طاهر سليمان تسلَّم الحكم منفرداً، ويبدو أن ناصر خسرو قد استوحى في روايته نوع العلاقات التي شاهدها في زمن زيارته للبحرين، ولم يكن أبناء أبا سعيد الجنَّابي هم حكام القرامطة آنذاك، بل قام بهذا الدور، القبائل المتحالفة مع القرامطة، والمعروف أن آخر حاكم قرمطي من أولاد أبي سعيد الجنَّابي هو أبو يوسف يعقوب الذي توفي عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٨م).

ويبدو أن ما ذكره مسكويه من نظام الشورى فيما يختص باتخاذ قرار الحرب والسلم، أوضحه ابن حوقل النصيبي بقوله: «وكان من رسومهم أن تقع شوراهم بالجرعاء فيمن يخرجونه... فإن اتفق رأيهم على خروجهم بأجمعهم لم يتخلَّفوا، ونفذوا، وتركوا في البلد أوثقهم وأشفَّهم منزلة عندهم...»[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الحكم المطلق استمر مطبَّقاً كما كان في عهد أبي سعيد الجنَّابي، ويغلب عليه الطابع العسكري، ولم يلتزم الحاكم إلا بأمر واحد هو ما يُقرِّره مجلس الشورى بشأن الحرب والسلم.

ويمكن تحديد التراتبية في السلطة في عهد أبي سعيد الجنَّابي على النحو الآتي:

- السلطان أو الأمير الحاكم.
- إخوة أبي طاهر سليمان، وقد حملوا لقب السادة تمييزاً لهم عن المقرَّبين، بكونهم ينتمون إلى الأسرة الحاكمة.
- الوزراء، الشائرة، وهي مرتبة اختصَّ بها غالباً آل سنبر.

وتحوَّل النظام الفردي بعد وفاة أبي يوسف يعقوب ابن أبي سعيد الجنَّابي، وإبعاد أولاد منصور بن أحمد عن الحكم في عام (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)[2]؛ إلى نظام جماعي يقوم على وفاق بين فروع الأسرة الحاكمة، والتوازن في السلطات والصلاحيات بين سادة القوم ووجوههم، وأن ستة من السادة قاموا بهذه المهمة، ودُعي مجلسهم بمجلس السادة[3].

وتتمثل خصائص هذا المجلس، بالآتي:

- إن جميع أعضائه هم من أسرة أبي سعيد الجنَّابي.

(١) النصيبي، ابن حوقل: **صورة الأرض**، بيروت ـ لندن، ١٩٦٧م: ص٢٦.
(٢) ابن تغري بردي، م.س: جـ٤ ص١٢٩. (٣) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٤٠٩.

ـ غياب سلطة الفرد، إذ لم يُعرف خلال هذه المرحلة أمير أو سلطان حكم بمفرده، بل يؤكد الرواة وجود ستة سلاطين يتمتعون بالصلاحيات نفسها، باستثناء من توكل إليه مهمة من قِبل الجماعة، وتردَّد اسم إسحاق واسم جعفر الهجريان من ضمن الستة الذين تلقَّبوا بالسادة[١]، ويلاحظ أن النظام السياسي استمر تأليفه كما كان الحال في عهد أبي سعيد الجنَّابي من مرتبتين: الأمراء والوزراء، أو السادات والشائرة، أما التغيير الذي حصل في مرتبة الرئاسة فهو أنها أضحت مُكوَّنة من ستة أعضاء متساوين، وكذلك مرتبة الوزراء[٢].

ـ خاصية الشورى التي ترتبط بالضرورة بالقيادة الجماعية، فكان هؤلاء الأعضاء يتشاورون فيما بينهم، ويختارون من يُكلَّف منهم بمهمة مُحدَّدة، مثل قيادة حملة عسكرية وغيرها، وكانوا يخوضون جميعاً المعارك، ويُخلِّفون من يثقون به لإدارة الدولة والدفاع عنها أثناء غيابهم.

الواقع أن هذا النوع من الحكم لا يمكن أن يأتي إلا مطابقاً لحدود الحركة التي أوجدته وعلى مقاسها، فلم يتجاوز الظروف التاريخية المحدَّدة، وتكوَّن من اجتماع نخب الأسرة الحاكمة وتوابعها، ورؤساء فروعها الفاعلين.

وقد تمكَّن القرامطة بفضل هذا النظام من المحافظة على تماسكهم، ورأب تصدُّعهم، والظهور بمظهر القوي الذي لا يُقهر بسهولة، لكن هذا النظام وُجد في مرحلة ضعف وتفكُّك القرامطة من جهة، ومحاولة لتجاوزها من جهة أخرى، إلا أنه لم يتمكَّن من أن يكون أكثر من صحوة الموت في تاريخ الحركة القرمطية في البحرين[٣].

النظام الاقتصادي

قرامطة سواد الكوفة: لا يمكن الحديث عن نظام اقتصادي مكتمل ومتميز نسبياً لدى قرامطة السواد وقرامطة الشام (البادية) على عكس قرامطة البحرين، وقد أدَّت مجمل التطورات السياسية والعسكرية في العصر الأموي وفي العصر العباسي الأول، إلى تفاقم حدَّة استغلال الفئات الدنيا، وتصدُّع النظام

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٤٠٩. (٢) بزُّون، م.س: ص٢٢٢.
(٣) المرجع نفسه: ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

الاجتماعي تبعاً لذلك، فقد عملت الفئة «الارستقراطية» الحاكمة والمالكة إلى انتهاج سياسة التمييز بين القبائل والشعوب في الحقوق والواجبات، أو إذكاء روح التفاوت الاجتماعي، واضطهاد الفئات المستضعفة، وعجزت فئة الفلاحين وحلفائها من الفقراء عن بلورة نظرية سياسية ـ اجتماعية مستقلة تواجه بها سلوك الفئة «الأرستقراطية» بالإضافة إلى نهج اقتصادي بديل، وأدّى هذا العجز بالحركة القرمطية التي قامت في سواد الكوفة إلى ملء الفراغ، فعملت على بناء مجتمع جديد خالٍ من التفاوت الاجتماعي.

قام حمدان بن الأشعث قرمط بهذا العمل التغييري، فعندما قوي أمره، وزاد طمعه، أخذ في جمع المال من قومه، واتَّبع التدرج في إجراءاته الاجتماعية ـ الاقتصادية، من الفطرة إلى الهجرة، إلى البلغة، فالخمس وصولاً إلى الألفة، وكان يستشهد بآية قرآنية أو أكثر، يُوثِّق بها إجراءه هذا، فقد تلا قوله ﷺ في خطوة الهجرة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة/١٠٣]، «فدفعوا له، وتعاونوا عليه، فمن كان فقيراً أسعفوه»[١]، فتركهم مدة ثم فرض عليهم البلغة مستشهداً بقوله ﷺ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة/١١١]، وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين المذكورين في قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة/١٠، ١١].

ولجأ حمدان بن الأشعث قرمط إلى أسلوب ذكي في جمع البلغة، «فصنع طعاماً طيّباً حلواً لذيذاً، وجعله على قدر البنادق، يُطعم كل من أدَّى إليه سبعة دنانير، وزعم أنه طعام أهل الجنَّة نزل إلى الإمام، فكان ينفذ إلى كل داعٍ منها مئة بلغة، ويطالبه بسبعمئة دينار، لكل واحد منها سبعة دنانير»[٢].

وعندما تمكَّن من الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون مستنداً على قوله ﷺ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال/٤١]، فقاموا جميعاً وأدوا ذلك إليه، فكانت المرأة تُخرج خمس ما تغزل والرجل يُخرج خمس ما يكسبه[٣].

(١) المقريزي، م.س: جـ١ ص١٥٦. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص١٥٧.

ولما تمَّ له ذلك فرض عليهم الألفة مستنداً على قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران/ ١٠٣]، ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال/ ٦٣].

وتُعدُّ خطوة الألفة من وجهة نظر حمدان بن الأشعث قرمط، قمة الإجراءات المؤدية إلى مجتمع نموذجي لا استغلال فيه ولا انقسام ولا ظلم، ويقوم هذا النظام على جمع أموال الأتباع، ووضعها في مكان واحد «وأن يكونوا فيه أسرة واحدة لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه، وأنه عرَّفهم أنهم لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم؛ لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم، وقال: هذه محنتكم التي امتُحنتم بها ليعلم كيف تعلمون»[1].

ويبدو أن القرامطة تخلّوا عن أموالهم ومواشيهم وحليّ نسائهم ومتاعهم، وجمعوها في مكان واحد في أيدي قرمط ثم في أيدي دعاة القرى، من أجل النهوض بالحركة فقط.

الواضح أن نظام الألفة يقوم على مبدأين:

الأول: جمع أموال الجماعة في مكان واحد.

الثاني: الوعد بمنح الأرض كلها للقرامطة.

على أن يتساووا في الملك الذي يملكون.

الراجح أن حمدان بن الأشعث قرمط أراد أن يربط بين هذا النظام وبين ما ورد في القرآن الكريم من الآيات المذكورة، ليقول أن نظام الألفة الذي سعى إليه الرسول ﷺ، وأراده الله ﷻ، هو نفسه الذي يدعو إليه.

ووصف المقريزي العلاقات الألفوية الأولى التي طُبِّقت في السواد وكيفية تنظيمها فقال: «إن قرمط أقام في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها يجمع عنده أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره، وكان يكسو عاريهم، ويُنفق على سائرهم ما يكفيهم، ولا يدع فقيراً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والكسب بجهده، ليكون له الفضل في

(١) المقريزي، م.س: جـ١ ص١٥٧.

رقبته، وجمعت المرأة كسبها من مغزلها، والصبي أجرة نظارته للطير، وأتوه، فلم يمتلك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه»[1].

نستنتج من وصف المقريزي ما يأتي:

- القرية هي الوحدة الألفوية الأساس، كما هي الوحدة الأساس في الدعوة.
- المختار هو ممثل الحركة وزعيم القرية في الوقت نفسه، وهو أهم ثقاتها، ويجمع بصفته المزدوجة هذه الأموال عنده، ويُشرف على إنفاقها.
- تقتصر نفقات الألفة، على مساعدة الفقراء والمعوزين والضعفاء، وتلبية حاجاتهم المُلحَّة.

ويبدو أن أتباعه بعامة، كانوا يعيشون حياة تقشُّف من أجل نصرة الدعوة وتأمين نجاحها في تحقيق أهدافها، وتتحدَّد قيمة الفرد المعنوية بمقدار ما يعمل ويكسب ويجتهد، خدمة للثورة وقيام نظام جديد[2].

ولا تشير رواية المقريزي إلى أن قرامطة السواد قد ألغوا الملكية الخاصة للأرض، أو أنهم نادوا بملكية جماعية بديلاً عنها، على الرغم من أن الحسين الأهوازي أطلق شعاراً بتمليك أهل القرية أملاك أصحابهم، والمعروف أنه كان يُعبِّر عن رأي فلاحي السواد كفئة مستضعفة، برفض الانقسام الاجتماعي والمناداة بإباحة أملاك الملَّاكين للفلاحين، أي إنكار حق كبار الملَّاك بامتلاك رقاب الأرض، والسيطرة على ثمرات جهود الفلاحين، بالإضافة إلى السماح لهم بالسيطرة على الأرض واحتلالها، ورفض الملكية هنا ليس إلا رفضاً لملكية الفئة المستغلَّة، وليس رفضاً للملكية الخاصة[3].

يتحدث بعض المؤرخين عن نظام شيوعية القرامطة، شيوعية النساء والمال، فإذا هو أول نظام شيوعي في التاريخ الإسلامي، وقد باتت كلمة شيوعية أو اشتراكية متداولة في كثير من التحليلات لنظام الألفة في السواد.

يتحدث بندلي جوزي عن حركة القرامطة كحركة شيوعية، ويصف برنامجها بأنه برنامج اشتراكي[4].

(١) **اتعاظ الحنفا**، م.س: جـ١ ص١٥٧.
(٢) بزُّون، م.س: ص١٩٢.
(٣) المرجع نفسه: ص١٩٣.
(٤) جوزي، بندلي **الحركات الفكرية في الإسلام**، دار الروائع، بيروت: ص١٦٦.

ويصف دي خويه دعوة حمدان بن الأشعث قرمط بالشيوعية[١].

ويذكر مصطفى غالب اشتراكية القرامطة بأنها اشتراكية مدروسة وممحَّصة على ضوء الواقع السياسي والاجتماعي الديني[٢].

ويرى عارف تامر أن الحركة القرمطية قامت على دعائم من الاشتراكية الثورية الصحيحة، بدليل النظرية الاشتراكية التطبيقية التي أتى بها دعاة سواد الكوفة والبحرين، وقد أخذ حمدان بن الأشعث قرمط الاشتراكية عن الإسماعيلية، في سلمية، وأخذها هؤلاء عن الفلسفة اليونانية وبخاصة كتاب الجمهورية لأفلاطون[٣].

ويبدو أن تلك الآراء نتجت عن تحليلات متسرِّعة، لقد قامت الحركة القرمطية في السواد على أكتاف الفئات العاملة والمسحوقة، والتي تحدَّرت من الفقراء والمحرومين وعامة الناس، فهي إذاً، تعبير عملي عن طموحات هؤلاء للوصول إلى حياة جديدة ينتفي فيها الاضطهاد والظلم، والاستغلال، والقهر، وتتحقَّق المساواة والسعادة والاستقرار، لذلك، استجابوا لدعوة القرامطة.

إن قيمة الحركة القرمطية، تتوضَّح من خلال دورها التاريخي في الحدِّ من استبداد الإقطاعية المشرقية التي كانت تمارسه على الفلاحين.

قرامطة البحرين: لم يُعرف عن قرامطة البحرين أنهم وضعوا برنامجاً اقتصادياً متطوراً؛ إنما طبَّقوا نظام رأسمالية الدولة، دولة المحاربين العقائديين، وقد تأثروا بالنظم الفارسية بوصفها قامت في منطقة خضعت باستمرار للتأثير الفارسي، لا سيما الساساني، وعلى هذا فإن نظام دولة القرامطة في البحرين لم يكن سوى نظاماً متطوراً عن النظام الإقطاعي الساساني الذي اشتهر بنظام إقطاعات الفرسان[٤].

ولم تكن مسألة الأرض أساسية بالنسبة لقرامطة البحرين، في بداية حياتهم السياسية على الأقل، كما كانت بالنسبة لقرامطة السواد، ونستنتج أصول

(١) **القرامطة، نشأتهم دولتهم وعلاقتهم بالفاطميين**، م.س: ص١٢٦.
(٢) **القرامطة**، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٣٦.
(٣) **القرامطة، أصلهم نشأتهم تاريخهم وحروبهم**، م.س. ص٧٩ ـ ٨١.
(٤) زكار، م.س: جـ١ ص١٥٠.

نظامهم الاقتصادي من كتابات الرحالة الذين وصفوا أوضاع البحرين وصفاً عاماً في ظل الحكم القرمطي، فقد تقاسم أبناء أبي سعيد الجنَّابي وأبناء آل سنبر، السلطة ومغانمها، «... وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد، ثم نظر وعدل، غير أن الجامع معطَّل، وبالقرب خزانة المهدي، وخزائن أُخر لهم أيضاً، فبعض الأموال بتلك، وبقيَّته في خزائنهم، وكذلك أوال وسائر المدن، أو قريبات من البحر»[١]، «وبها أموال وعشور ووجوه ومرافق وقوانين ومراصد، وضروب مرسومة من الكلف إلى ما يصل إليهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة بعد إقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل لأتباعهم المعروفين بالمؤمنين، ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار، وما عدا ذلك من المال والأمر والنهي، والحل والعقد، وما كان يصل إليهم من طريق مكة ومال عُمان، وما وصل إليهم من الرملة والشام فمتساوٍ...»[٢]، وذكر ناصر خسرو: «وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون ألف زنجي، وحبشي، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين، وهم لا يأخذون عشوراً من الرعيَّة، وإذا افتقر إنسان أو استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله، وإذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات، ويردُّ (إلى الحكام) ما أخذ حين يشاء، وإذا تخرَّب بيت أو طاحون أحد الملَّاك ولم تكن لديه القدرة على الإصلاح، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا إليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون ولا يطلبون من المالك شيئاً، وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان تطحن الحبوب للرعية مجاناً، ويدفع فيها السلطان نفقات إصلاحها وأجور الطحانين... والبيع والشراء والعطاء والأخذ، يتم هناك بواسطة رصاص في زنابيل[٣] يزن كل منها ستة آلاف درهم، فيدفع الثمن عدداً من الزنابيل، وهذه العملة لا تسري في الخارج، وينسجون هناك فوطاً جميلة ويُصدِّرونها للبصرة وغيرها...»[٤]، «والبحرين مدينة كبيرة أيضاً بها نخل كثير، ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ، ولسلاطين الحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه»[٥]،

(١) المقدسي، محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، ١٩٠٦م: ص٩٣ ـ ٩٤.
(٢) ابن حوقل، م.س: ص٣٣ ـ ٣٤.
(٣) زنابيل: أوعية.
(٤) **سفرنامه**، م.س: جـ١ ص٣٣٣ ـ ٣٣٤.
(٥) المصدر نفسه: ص٣٣٥.

واستناداً لرواية ناصر خسرو يمكن القول أن هذه الملكية توزَّعت بين سلاطين البحرين، أبناء أبي سعيد الجنَّابي وآل سنبر، وطبقة من الملّاكين الذين ذكر أنهم يمتلكون مطاحن خاصة بهم.

ويتضح من رواية المقدسي أن السلاطين كانوا يملكون أجزاء واسعة من البحرين وجزرها، ومدنها القريبة منه، ولا يعني ذلك أن أبا سعيد أو أبناءه قد ألغوا الملكية الخاصة لطبقة الملّاكين.

وتُثبت رواية ناصر خسرو أن الملكية الخاصة قد حظيت برعاية الدولة ودعمها، لذلك لا مبرر للاعتقاد بأن ملكية السادة السلاطين هي ملكية عامة تشمل جميع الأراضي، كما لا يمكن وصفها بأنها شكل من أشكال الاشتراكية المتمركزة في يد الدولة، بدليل وجود خزائن خاصة بالسادة إلى جانب خزانة المهدي، وتوزيع الغنائم والواردات[1].

وتربَّعت فئة السلاطين والشائرة على رأس المجتمع مقابل فئة العبيد الكثيرة العدد، «ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي»، كانوا يعملون في الزراعة، في حين كانت الفئات الأخرى في المجتمع تمارس أعمالاً أخرى، فالقبائل العربية كانت تمارس أعمال الحرب، وتعتني بقايا الفرس والطوائف الأخرى بالتجارة والحِرف والصيد، ويبدو أن امتناع عناصر المجتمع القرمطي عن ممارسة العمل الزراعي، سببه أن هذه الحرفة هي خاصة بالعبيد، ويعني ذلك أن شكل الإنتاج القائم على العبودية كان الأساس في الزراعة، مع احتمال وجود ملكيات صغيرة، ويتناقض استخدام العبيد مع المبادئ التي نادى بها أبو سعيد الجنّابي.

وعلى الرغم من الخصوبة النسبية للأراضي الزراعية، واستخدام العدد الكبير من العبيد في الزراعة؛ يبقى دخل الدولة من الإنتاج الزراعي قليلاً بالمقارنة مع المداخيل الأخرى، فضريبة عقارات البحرين من ثمار الحقول والبساتين تصل إلى ثلاثين ألف دينار سنوياً، وهذه نسبة منخفضة بالمقارنة مع أرقام العائدات والمداخيل التي تجبى من مصادر متعددة أخرى مثل: عائدات قوافل الحجاج، رسوم مرور السفن التي تُبحر في الخليج العربي، الضرائب

---

(١) بزُّون، م.س: ص٢٠٢.

السنوية الآتية من عُمان، غنائم الحرب، عائدات الجزية المفروضة على البدو، حصَّة الحكام من صيد اللؤلؤ[1]، إذ إن مجموع تلك العائدات بعد اقتطاع خمس الإمام منها، كانت تُقدَّر بمليون ومئتي ألف دينار[2]؛ أي أن مجموع العائدات يُقدَّر بمليون وخمسمئة ألف دينار، ما يعني أن نسبة واردات الدولة من الزراعة لم تكن أكثر من ٢٪ من مجموع وارداتها[3]، وهو ما يُفسِّر سعي القرامطة نحو الغزو بوصفه مورداً أساساً للبلاد والقبائل المحاربة، والطبقة الحاكمة، ولا تذكر روايات المصادر شيئاً عن علاقة العبيد بأسيادهم والفئات الاجتماعية الأخرى.

ولا يقتصر النظام الاجتماعي القرمطي في البحرين على انقسامه إلى سادة وعبيد، بل ينقسم الأحرار أيضاً انقساماً فئوياً يتقاطع أحياناً مع الانقسامات الاجتماعية الأخرى، ما يؤدي إلى ظهور الفئات والمراتب الاجتماعية التالية:

- السادة السلاطين.
- الشائرة.
- التجار.
- الصنَّاع.
- صغار الفلاحين من العوام الفقراء.

ويعكس هذا التفاوت في توزيع المداخيل، انقساماً اجتماعياً.

ولا يمكن الحديث عن توزيع عادل للمداخيل في البحرين إلا في حال حصول كل فرد على نصيب يوازي مرتبته الاجتماعية أو قُربه أو بُعده عن السلطة السياسية الحاكمة أو نفوذه الخاص، وتتمثَّل قاعدة التوزيع بالآتي:

- الخمس لخزانة المهدي.
- ثلاثة أخماس للبوسعيديين.
- خمس واحد للسنابرة.

أما نصيب المراتب الأخرى، فكان يصل إليها على شكل مساعدات وخدمات تقدِّمها الدولة مثل: دعم الصناعة، مساعدة الفلاحين والملّاحين،

---

(١) دي خويه، م.س: ص١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) بزُّون، م.س: ص٢٠٤.

واستناداً إلى المقومات الاقتصادية لنظام القرامطة في البحرين لا يمكننا القول بأن هناك مؤسسات شيوعية[1]، أو نوعاً من قطاع عام اشتراكي.

وسعى القرامطة في البحرين إلى تحقيق الاستقلال الاقتصادي عبر الاكتفاء الذاتي، ويظهر هذا السعي في تطوير الصناعة والزراعة، وفي الاستقلال النقدي باستعمال الرصاص في عمليات البيع والشراء والعطاء، فيوضع الرصاص في زنابيل يزن كل منها ستة آلاف درهم، فيدفع الثمن عدداً من الزنابيل كما ذكرنا، ولا تسرى هذه العملة في الخارج، ما ساعد على حفظ الثروة الخاصة بالبلاد ومنع انتقالها إلى الخارج، وأدى ذلك إلى حصر التجارة الخارجية بأيدي من يملكون الدنانير المتداولة في الدولة العباسية، ولا يوصف ذلك بالتأميم، إذ لا يزيد على كونه سيطرة مركزية لطبقة الحكام وأصحاب الحظوة عندهم[2].

لم تقتصر هذه المركزية على التجارة الخارجية، بل دخلت في تنظيم الرعي والمال والتربية، فمنذ عهد أبي سعيد الجنَّابي، وقبل أن يُسيطر على هجر ويستكمل بناء الدولة «قبض كل مال في البلد، والثمار، والحنطة، والشعير، وأقام رعاة للإبل والغنم، ومعهم قوم لحفظها، والتنقُّل معها على نوب معروفة، وأجرى على أصحابه جرايات، فلم يكن يصل لأحد غير ما يطعمه»[3].

واتخذ أبو سعيد الجنَّابي بعض الاجراءات الاقتصادية مثل: تشجيع الحرفيين عبر منحهم الرساميل والمواد الأولية والحوانيت، وإصلاح الأراضي الزراعية، وأصول النخل، وانتهت بعض هذه التدابير بانتهاء عهده، بسبب التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الدولة القرمطية.

أدَّت تلك المركزية الاقتصادية والسياسية، دوراً مهماً في بروز الفئة الحاكمة وتمايزها الشديد، فشكَّلت بذلك أسلوب تحوُّل جذري في اتجاه المجتمع الفئوي[4].

---

(١) دي خويه، م.س: ص١٢٧.
(٢) بزُّون، م.س: ص٢٠٧.
(٣) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٥٤٣.
(٤) بزُّون، م.س: ص٢١٠، ويستعمل كلمة الطبقي بدل الفئوي.



البَابُ الثَالِث

حركة الحشاشين

الفَصْلُ العَاشِر

نشأة حركة الحشاشين وتطورها حتى آخر عهد الحسن بن الصباح

تمهيد

عندما ظهرت حركة الحشاشين[1] على مسرح التاريخ في المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، كانت الدولة العباسية مفكَّكة تتنازعها الدويلات السلطانية، فقد استقر الفاطميون في مصر بعد شمالي إفريقيا، وقد توطدت أقدامهم، وتوسعوا باتجاه الشرق للقضاء على الخلافة العباسية ووراثتها، وكانت بلاد فارس[2]، وما وراء النهر وما يليهما

(١) أطلق المؤرخون على هذه الحركة تسميات عدة منها:
- الحشيشية أو الحشاشين، وجاءت هذه التسمية إما نتيجة استعمال هؤلاء الحشيش الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها لصنع الأدوية، وإما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدِّر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجِّهه لتنفيذ مهمة ما، وهو الأرجح، ونحن نعلم من مؤرخي الحروب الصليبية أن جماعة الحشاشين استعملت الحشيش استثارة للقتل، واحتقاراً للموت في سبيل أهدافهم السياسية، ومن ثَمَّ انتقل الاسم حشاشون وهو أصل لكلمة «Assasin» إلى لغات جنوبي أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبية لا صلة لها باللفظ العربي الأصلي.
- السبعية: لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الاثني عشرية.
- الباطنية: لأنهم يقولون إن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة، كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بالملاحدة أو النزارية؛ لأنهم يعترفون بإمامة نزار بن المستنصر الفاطمي، وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإني اعتمدت لفظة الحشيشية؛ لأنها المتداولة.

(٢) كان في إيران ولاية تُدعى فارس، غير أنها لكونها مسقط رأس الأسرة الهخامنشية التي حكمت إيران قبل الميلاد بستة قرون، والأسرة الساسانية التي حكمت إيران منذ القرن الثالث الميلادي، وقد رفعتا اسم إيران عالياً في الشرق والغرب، فقد انتشر هذا اللفظ الخاص =

إلى الشرق وإلى الجنوب، خاضعة للأتراك السلاجقة، ووقع شمالي بلاد الشام وأعالي العراق في أيدي زعماء عرب نجح بعضهم في تأسيس إمارات وراثية، وتفشَّت الفوضى السياسية والعسكرية في كل مكان، واتَّسم روح العصر بالصراع السنّي ـ الشيعي الذي ساد في ذلك الوقت، وخُيِّل للناس أن العالم الإسلامي يتعرَّض لانتكاسة خطيرة؛ لا سيما إثر الغزو الصليبي الغربي ثم المغولي الشرقي.

انقسام الدعوة الإسماعيلية

تعرَّضت الدعوة الإسماعيلية لخضَّة سياسية ومذهبية حادَّة بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) نتجت عن تدخُّل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، وأدَّت إلى انقسامها إلى قسمين كان له آثار جسيمة سواء في مصر أو في خارجها.

خلَّف المستنصر أولاداً عدة منهم نزار، وهو الابن الأكبر، ومحمد وعبد الله وإسماعيل والمحسن والحسن وحيدرة وأحمد وهو الأصغر، فتوفي بعضهم في حياته، وذكرت روايات المصادر بعد وفاة المستنصر أسماء: نزار وعبد الله وإسماعيل وأحمد، وكانوا لا يزالون على قيد الحياة[1].

واستناداً للنظرية الإسماعيلية بانتقال الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر؛ فإن نزاراً هو صاحب الحقِّ الشرعي في خلافة والده في منصب الإمامة، وعلى الرغم من أن المستنصر أبدىٰ رأيه في النص على خَلَفِه، وقد رشَّح نزاراً ليخلفه، إلا أنه لم تُجرَ أي احتفالات لتنصيبه ولياً للعهد، بل سكَّ اسمه على العملة، وربما أشار إلى خاصَّته بولايته[2].

الواقع أن المستنصر أراد قبل وفاته أخذ البيعة لابنه نزار على رجال

= وأطلق على العام، وشمل الشعب كله والمملكة بأسرها، وهي التي نسميها فارس، وظلَّت هذه اللفظة مستعملة في مختلف الدوائر المحلية والعالمية حتى عام ١٩٣٥ عندما عمَّم الشاه رضا بهلوي اسم إيران تأكيداً للفكر القومي.

(١) المقريزي، م.س: جـ٣ ص١١.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م: جـ٤ ص٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

الدولة، فتقاعس الوزير الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات، لكراهيته لنزار[1]، وتجاهل هذا الوزير التقليد وذاك الترشيح، فأبعد نزاراً عن الحكم، وأجلس أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد على سدَّة الحكم ولقَّبه بالمستعلي بالله، وذلك يوم الخميس (١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٠٩٤م)[2].

ويبدو أن ثلاثة أسباب دفعت الوزير الأفضل إلى هذا التصرف:

الأول: صغر سنِّ المستعلي بالمقارنة مع سنِّ نزار، فقد كان عمر الأول عشرين عاماً، وعمر الثاني خمسين عاماً، ما يُتيح له التحكم به إذا ما ولّاه الإمامة، ويُصبح له مطلق التصرف في شؤون الدولة.

الثاني: الترابط العائلي، فقد كان المستعلي زوج أخته ست الملك ابنة بدر الجمالي[3].

الثالث: الغيرة، فقد كان الوزير الأفضل يغار من نزار، لذلك وقف موقف العداء منه، وكان يُقلِّل من قدره، ولا يُقرِّب أحداً من غلمانه وحاشيته، بل عرَّضهم للأذى، وحذَّر رجال الدولة من قبول مبايعته، وخوَّفهم منه[4].

ويذكر المؤرخون حادثة وقعت بين نزار والوزير الأفضل، فقد دخل الثاني مرة من أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة، فلما رآه نزار قال له: «اِنزل يا أرمني، يا نجس» فحقد الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما للآخر[5]، وأدرك الأفضل أن لا حكم له في مصر مع وجود نزار، وأنه سوف يُقصيه عن الوزارة إذا تولّى العرش، وبخاصة أنه كان على علاقة طيّبة مع محمد بن مصال اللكّي، وقد وعده بتوليته الوزارة وقيادة الجيش إذا تولى الحكم[6].

انتهز الوزير الأفضل فرصة وفاة المستنصر، وأشار على الأمراء بتولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد، واختاره دون بقية إخوته، وتبعاً لما ذكره المؤرخون فإن المستنصر نعت ابنه أحمد عندما عقد نكاحه على ابنة بدر

(١) ابن ميسر، م.س: ص٣٥.

(٢) المقريزي، م.س: جـ٣ ص١١.

(٣) المصدر نفسه ص٨٥.

(٤) ابن ميسر، م.س: ص٣٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

الجمالي بـ «ولي عهد المؤمنين»، وكتب ذلك في كتاب الصداق، وعلَّم عليه بخطِّه[(١)].

واستدعى الوزير الأفضل أولاد المستنصر، وأخبرهم بوفاة أبيهم وضرورة حضورهم، فلما حضروا وأبصروا أخاهم الأصغر جالساً بزيِّ الخلافة، امتعضوا وأنكروا ذلك، فقال لهم الوزير الأفضل: «تقدَّموا قبِّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي وبايعوه، فهو الذي نصَّ عليه الإمام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده»، فامتنعوا عن ذلك، وقال كل واحد منهم إن والده وعده بالخلافة.

فقال نزار: «لو قُطِّعتُ ما بايعت من هو أصغر سناً مني، وخطُّ والدي عندي بأنِّي ولي عهده، وأنا أُحضره»، وخرج مسرعاً ليحضر الخطَّ، فمضى لا يدري أحد به، وتوجَّه إلى الاسكندرية[(٢)]، والواضح أن ذلك كان حجة منه لكي يتخلَّص من الموقف الحرج، وأيَّده بعض رجال الدولة بمن فيهم أحد غلمان بدر الجمالي.

ولما علم الوزير الأفضل بفرار نزار قبض فوراً على أخويه عبد الله وإسماعيل وسجنهما في المسجد بالقصر، وجعل مع كل واحد منهما عشرة رجال للمحافظة عليه، وأُقيمت مراسم البيعة الرسمية للمستعلي، فجلس على سرير الملك في الإيوان الكبير ومعه الوزير الأفضل، وحضر قاضي القضاة علي بن نافع الكحال، وشهود القاهرة ومصر، وأخذوا البيعة على مقدَّمي الدولة ورجالها، ثم أحضر الوزير الأفضل كلّاً من عبد الله وإسماعيل، فدخلا على المستعلي وقبَّلا الأرض بين يديه وسلَّما عليه بالإمامة، واستوفى القاضي عليهما أيمان البيعة، وأنفذ الوزير الأفضل قوة عسكرية للقبض على نزار، غير أن الجنود فشلوا في اللحاق به وتتبُّع أثره والعثور عليه[(٣)].

---

(١) يميِّز الفاطميون بين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين، وتبرز الصفة الأولى على أنها تدل على الإيمان في حين تدل الثانية على الإسلام، وأن الإيمان هو المعوَّل عليه في العقيدة الإسماعيلية لما فيه من إقرار بحق الأئمة الفاطميين، بالإضافة إلى الإقرار بعقيدة الإسلام إذ إن ولاية عهد المؤمنين تتضمَّن ولاية عهد المسلمين؛ لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس.

(٢) ابن ميسر، م.س: ص٣٥. (٣) المصدر نفسه.

نتائج انقسام الدعوة الإسماعيلية

أدَّى إقصاء نزار عن الإمامة، على الرغم من أحقيته بها، إلى نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية، ويُعدُّ إبعاده وتولية المستعلي انقلاباً مذهبياً وسياسياً واضحاً قام به الوزير الأفضل ليحافظ على مكتسباته وسلطاته التي كان يتمتع بها منفرداً منذ أواخر عهد المستنصر.

وهكذا نجد أن الوزراء الفاطميين، أرباب السيوف، تلاعبوا بالعقيدة الإسماعيلية، ولم يبالوا بها، فكانوا يُعيِّنون الإمام الذي يريدون حتى ولو لم يكن له الحقُّ في ذلك وفقاً للعقيدة الإسماعيلية[(١)].

فرَّ نزار الذي رفض الاعتراف بإمامة أخيه الأصغر إلى الاسكندرية كما ذكرنا، وصحبه محمود بن مصال اللكِّي، وظنَّ أن باستطاعته استعادة سلطانه الذي سُلب منه بمساعدة والي المدينة ناصر الدولة أفتكين التركي الذي رحَّب به، وهو أحد غلمان بدر الجمالي، فأعلن نفسه إماماً وتلقَّب بلقب «المصطفى لدين الله»[(٢)]، وانضمَّت إليه كل الأجناد التي حاربها بدر الجمالي من عربان وسودان ومغاربة، بحيث زاد عددهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، واستولوا على معظم الدلتا.

الواقع أن حركة نزار لم تنجح بسبب تأييد الجيش للوزير الأفضل الذي تمكَّن بعد محاولتين من هزيمته، وجرى قتال ضارٍ في موضع كوم الريش بجوار القاهرة، تقهقر بنتيجته نزار ومعه ناصر الدولة أفتكين، وعاد إلى الاسكندرية، فحاصر الوزير الأفضل المدينة برّاً وبحراً، وضربها بالحجارة واللهب، واستمر القتال من (صفر إلى ذي القعدة ٤٨٨هـ/ شباط إلى تشرين الثاني ١٠٩٥م)، أي حوالي عشرة أشهر، تضايق السكان خلالها، وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على الصمود أكثر من ذلك، وبخاصة أن المؤن بدأت بالنفاد، فطلب ناصر الدولة أفتكين الأمان له ولنزار ولأهل البلد، فأمَّنهم الوزير الأفضل، إلا أنه قبض على نزار وأفتكين بعد ذلك، وأرسلهما إلى القاهرة،

---

(١) سيد، أيمن فؤاد: **الدولة الفاطمية**، ص١٥٥، الدار المصرية ـ اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

(٢) ابن ميسر، م.س: ص٣٥ ـ ٣٧. المقريزي: جـ٣ ص١٣.

وهرب محمود بن مصال إلى المغرب، وأجرى الوزير الأفضل قبل عودته إلى القاهرة تغييراً في موظفي الدولة، لا سيما في منصب القضاء، بعد أن اعتقل قاضي الاسكندرية محمود بن عمار وقتله، وعيَّن عليها والياً يثق به[1].

واعترافاً منه بحق وزيره الذي حفظ له العرش وهو قابع في القاهرة، أرسل المستعلي إليه هدايا كثيرة، وخلع عليه بملابسه وتاجه وعمامته، واستقبله لدى عودته عند بركة الحبش[2]، وسيق نزار وناصر الدولة أفتكين في اليوم التالي، إلى مجلس المستعلي، فلما رأى نزاراً صاح في وجهه وانتهره، وأمر بإخراجه، واعتُقل نزار بالقصر، وضُيِّق عليه حتى مات، أو أنه قُتل بالقصر، وأُهين ناصر الدولة أفتكين، وسُجن في دار الوزير الأفضل، ثم قُتل بالعصي، كما قَتَل الوزير الأفضل أعوانهما[3].

واعترف القسم الأكبر من الإسماعيليين في مصر وبلاد الشام، بإمامة المستعلي، وكذلك كل الطائفة الإسماعيلية في اليمن والهند، وعُرفوا بالمستعلية نسبة إلى المستعلي، أو بالإسماعيلية الغربية.

ظهور حركة الحشاشين

أثار تدخُل الوزير الأفضل في نص وصية المستنصر غضب بعض الدعاة في مصر، وبخاصة بعد أن اتَّبع الشدَّة ضد الذين لم يوافقوه، واضطهدهم، فنفى أسرة بني عبد القوي إلى المغرب.

واستطاع أحد الدعاة الزائرين لمصر في أيام المستنصر أن يثير معارضة جدّيَّة خارج مصر، هذا الداعي هو الحسن بن الصباح، المشهور بالحِميري، نسبة إلى القبيلة العربية حِمير، هاجر والده من اليمن إلى الرَّيِّ واستوطن فيها، وكان على المذهب الاثني عشري، وهناك وُلد الحسن في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)

(١) ابن ميسر، م.س: ص٣٦ ـ ٣٧. المقريزي، م.س: جـ٣ ص١٤.

(٢) بركة الحبش: أرض وهدة من الأرض واسعة، تقع على النيل خلف القرافة، وهي من أجلِّ منتزهات مصر، وليست ببركة للماء، وإنما شُبِّهت بها. الحموي، م.س: جـ١ ص٤٠١. المقريزي، م.س جـ٣ ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) ابن أيبك الداوداري، أبو بكر عبده: **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء السادس المسمى: **الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**، تح: صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار، ١٩٦١م: ص٣٥٢. ابن خلدون، م.س: جـ٤ ص٦٦.

في بيت اشتهر بالتشيُّع على المذهب المذكور، واهتم منذ شبابه بتلقّي العلوم والمعارف، والتزوُّد بكل ما يستطيع من أجل توسيع مداركه، فذهب إلى نيسابور، وهي آنذاك أشهر مدن خراسان، فدرس اللغة العربية وآدابها والتفسير والحديث على يد مُوفق النيسابوري وهو من نوابغ علماء السُّنَّة، ويبدو أن الحسن كان موهوباً، فتمكَّن بعد تخرُّجه أن يعمل في دواوين الدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان، وتقرَّب من السلطان ملكشاه الذي كان يستشيره في أمور الدولة[1].

وتعرَّف الحسن على داعية فاطمي هو عبد الملك بن عطاش، داعي دعاة الإسماعيلية في العراقين، العربي والعجمي، فدخل على يديه في المذهب الإسماعيلي وأضحى داعياً إسماعيلياً، ونصحه بالذهاب إلى القاهرة لينعم بخدمة المستنصر، ويتعمَّق في دراسة المذهب الإسماعيلي في دار الحكمة[2].

ويُعلِّل ابن الأثير هروب الحسن بن الصباح إلى مصر بأنه جاء نتيجة انزعاج رئيس الرَّيِّ أبو مسلم من نشاطه، وقد حاول معاقبته، ففرَّ منه[3].

خرج الحسن بن الصباح من الرَّيِّ إلى مصر في عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٢م) فمرَّ بأصفهان، وظل فيها ملازماً رئيس الدعوة عبد الملك بن عطاش حتى عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٤م)، ثم ذهب إلى دمشق بزيِّ التجار، فمرَّ بأذربيجان وميافارقين، ثم أبحر إلى مصر فوصل إليها في (٢١ محرم ٤٧١هـ/ ٣ آب ١٠٧٨م)، فاستقبله داعي الدعاة أبو داوود وكبار رجال الدولة، ثم استقبله المستنصر في قصره، ومنحه منزلاً يقيم فيه ووفَّر له أسباب الراحة[4].

انكبَّ الحسن بن الصباح في المدة بين (٤٧١ ـ ٤٧٢هـ/ ١٠٧٨ ـ ١٠٨٠م) على التعمُّق في دراسة الفقه والعلوم الإسماعيلية، ولعله كان يأمل في التتلمذ على يد داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، لكن المؤيد توفي قبل أن يصل، إلا أنه استفاد مما وجده من كتبه وتلاميذه.

(١) الجويني: عطا ملك علاء الدين الجويني: **تاريخ جهان، گشاي**، بريل، ليدن، (بالفارسية): جـ٣ ص١٨٧ ـ ١٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ص١٨٩.

(٣) الكامل في التاريخ، م.س: جـ٨ ص٤٥١ ـ ٤٥٢.

(٤) الجويني، م.س: جـ٣ ص١٨٩ ـ ١٩٠.

ظلَّ الحسن بن الصباح مقيماً في مصر زهاء ثمانية عشر شهراً، كان خلالها موضع حفاوة المستنصر، فأمدَّه بالأموال، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته في بلاد العجم، وسأله في أثناء ذلك عمَّن يكون الإمام من بعده، فأخبره المستنصر بولاية عهده لابنه نزار[1]، وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيلية التي تشترط أن يكون الإمام أكبر أبناء أبيه.

وتنفي بعض روايات المصادر حصول هذا اللقاء مع المستنصر؛ لأن مسألة من يَخلُف المستنصر لم تكن قد أثيرت بعد، لأن أمير الجيوش بدر الجمالي لم يُرحِّب بالحسن بن الصباح في مصر، ورأى في وجوده خطراً على كيانه، فحال بينه وبين لقاء المستنصر، بل سجنه في مدينة دمياط، ثم نفاه إلى بلاد المغرب، لكن الرياح ألقت بالسفينة التي أقلَّته، على سواحل بلاد الشام، ففرَّ منها عائداً إلى بلاد فارس، وذلك في (ذي الحجة ٤٧٣هـ/ أيار ١٠٨١م)[2].

لا شك بأن إقامة الحسن بن الصباح في مصر، أتاحت له التعرُّف على أوضاع الدولة الفاطمية، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظل سيطرة بدر الجمالي، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي صرف، يعمل أعضاؤه على نشر المذهب الذي عُرف بعد وفاة المستنصر بالإسماعيلية الجديدة[3]، لذلك عُرف هو وأتباعه بالنزارية أو الإسماعيلية الشرقية، كما عُرفت فرقته بالحشيشية، ربما لتعاطي أفرادها مادة الحشيش أثناء قيامهم بعمليات انتحارية، وسمّاهم أعداؤهم بالباطنية؛ لأنَّهم يعتقدون بأن لكل ظاهر باطناً، وسمَّاهم الخراسانيون بالتعليمية[4].

وعندما توفي المستنصر وخلفه ابنه المستعلي، خطب الحسن بن الصباح لنزار، وأذاع بين أنصاره أن المستعلي اغتصب الإمامة من نزار، وبذل جهداً كبيراً في الرِّد على حجج طائفة المستعلية.

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٧ ص٧٧٥.
(٢) الجويني، م.س: جـ٣ ص١٨٩ ـ ١٩١. (٣) سيد، م.س: ص١٥٧.
(٤) الشهرستاني، م.س: جـ١ ص١٩٢.

البدايات الأولى

عاد الحسن بن الصباح إلى فارس، وتوجَّه نحو الشمال الغربي من إيران، وظلَّ حوالي تسع سنوات ينشر الدعوة ويستقطب الأنصار، ويتنقَّل من مكان إلى مكان بشكل سرّي وهو حذر، يتجنَّب سلوك الطرقات العامة، فمن كرمان إلى أصفهان ومنها إلى خوزستان في جنوبي فارس، وتوجَّه إلى دامغان الواقعة بين الرَّيِّ ونيسابور، واستقر فيها ثلاثة أعوام (٤٧٤ ـ ٤٧٧هـ/ ١٠٨١ ـ ١٠٨٤م)، وترأس الدعوة في فارس وخراسان، وأرسل الدعاة إلى أماكن مختلفة، وتفانى أتباعه في طاعته وخدمته.

كانت أول عملية اغتيال قام بها هي قتل مؤذِّن من أهل ساوة[1] مقيم في أصفهان، ذلك أنه دعاه إلى مذهبه فرفض، فخشي أن يكشف أمره فقتله.

وعندما بلغ الخبر الوزير السلجوقي نظام الملك، أصدر أوامره بالقبض على من تدلُّ القرائن أنه الفاعل، فحامت الشبهات حول شخص يُدعى طاهر النجار، فحكم عليه بالإعدام[2].

وهاجم قائد إحدى القلاع الإسماعيلية القريبة من مدينة قاين[3] قافلة تجارية، وهزم القوة العسكرية التي أُرسلت من المدينة المذكورة لتأديبه، وقام بعض الإسماعيلية في عانة[4] بمهاجمة بعض القوافل، كما قام قادة القلاع بغارات مماثلة[5].

يُستدل من تصرفات الحسن بن الصباح ونشاطه الدعوي والعسكري، أنه كان ينزع إلى الاستقلال وتأسيس كيان له في فارس، فكان من الطبيعي أن تنتبه الدولة السلجوقية إلى خطره، وأدرك القيِّمون عليها أن الحسن وأتباعه ليسوا جماعة عقائدية فقط، إنما لهم توجهات سياسيَّة توسعيَّة، وبناء على ذلك صدر الأمر بتعقُّبهم، ما دفع الحسن بن الصباح للتفكير في ضرورة تأمين حصن منيع يحميه هو وأتباعه، ويكون منطَلقاً لنشر الدعوة، فتوجهت أنظاره نحو الشمال إلى هضبة الديلم لسببين:

---

(١) تقع بين الرَّيِّ وهمذان. (٢) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٤٤٩.
(٣) قاين: تقع بين نيسابور وأصفهان. (٤) تقع عانة على نهر الفرات.
(٥) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٤٤٩.

الأول: أن أغلب سكان تلك المنطقة الذين يغلب عليهم الطابع الجبلي، من الشيعة، ولذا فإنهم أكثر استعداداً لاعتناق المذهب الإسماعيلي، بالإضافة إلى أنهم ذو بأس شديد، ولديهم نفرة من السلطة السنّيَّة التي كانت في صدام مستمر معهم.

الثاني: يتعلق بطبيعة الإقليم الجغرافية، فهو يقع في الناحية الشمالية من الجبال المحيطة بهضبة فارس، ويشتمل على هضاب وعرة وطرق عسيرة المسالك، ويوجد فيه قلاع وحصون كثيرة يصعب على الأعداء المهاجمين اقتحامها.

وبعد دراسة المنطقة وقلاعها وحصونها، قرَّر الحسن بن الصباح الاستيلاء على قلعة ألموت[1] التي تُعدُّ أحصن قلاعها، وأقدرها على تحقيق الحماية له ولأتباعه، ومُنطَلَقاً يوجِّه منها غاراته ضد السلاجقة، فاستخدم أسلوب الدهاء والاستقطاب، فبثَّ رجاله في داخلها وفي المنطقة المحيطة بها، وتمكَّن من جذب أهلها إلى الدعوة الإسماعيلية، وكانت تلك النواحي تحت حكم شرفشاه الجعفري، وقد عيَّن على القلعة حاكماً علويّاً من قِبله يدعي مهدي، أحسن الظنَّ بالحسن بن الصباح، وسمح له بالدخول إليها، ولما تمكَّن من الوضع أخرجه منها إلى دامغان وأعطاه ثمنها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية[2]، واستقرَّ فيها ولم يغادرها طيلة خمسة وثلاثين عاماً حتى وفاته، ويُعدُّ الاستيلاء على القلعة أول عمل تاريخي في حياة الدعوة النزارية في المشرق الإسلامي.

---

(١) ألموت، حصن مقام فوق طنف ضيق على قمة صخرة عالية في قلب جبال البُرز، ويسيطر على واد مغلق صالح للزراعة يبلغ طوله حوالي ثلاثين ميلاً، وأقصى عرضه ثلاثة أميال، وترتفع القلعة أكثر من ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر طريق ضيق شديد الانحدار، كثير المنعطفات، بناها أحد ملوك الديلم القدامى وأسماها «ألوه أمون»، ومعناها في لسان أهل الديلم «تعليم النسر»، إذ كان يتصيد يوماً في المنطقة، فأطلق نسراً مدرَّباً، فاعتلى الصخرة، وقد أعاد بناءها حاكم علوي في عام (٢٤٦هـ/ ٨٦٠م)، ولدى وصول الحسن بن الصباح كانت تحت حكم علوي آخر يُدعى مهدي. الجويني، م.س: جـ٣ ص١٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ص١٩٤.

توسُّع الحسن بن الصباح في إيران

أقام الحسن بن الصباح التحصينات في قلعة ألموت، وأمر بحفر قناة، وجلب الماء إلى أسفلها، كما أمر بغرس الأشجار المثمرة خارج المكان، وشجع السكان على فلاحة التربة وتحسينها، ووضع بعد استيلائه على القلعة هدفين:

الأول: استقطاب مزيد من الأنصار لدعوته.

الثاني: السيطرة على مزيد من القلاع ليتقوَّى بها.

فأخذ يرسل الدعاة إلى مختلف الجهات لتحقيق هذين الهدفين.

كانت الخطوة الأولى الاستيلاء على الأراضي المجاورة لقلعة ألموت في منطقة رودبار[1]، وكانت الحياة في تلك الوديان الجبلية النائية الخصبة، تسير على النهج القديم غير متأثرة بالتغيرات التي تحدث في الجنوب، ولم تكن هناك مدن ولا سلطة سياسية أو عسكرية مستقرة، بل كان الناس يعيشون في قرى متناثرة ويدينون بالولاء لحكام مدنيين يقيمون في القلاع، واستطاع الدعاة الإسماعيليون أن يجذبوا هؤلاء وأتباعهم[2].

وحقَّق الحسن بن الصباح نجاحاً ملفتاً باستيلائه على قلعة لاماسار بالقوة، إذا أرسل إليها حملة عسكرية بقيادة كيا بزرك أوميد، فدخلها واستولى عليها، وقد أتاح له ذلك أن يدعم قوَّته في منطقة رودبار، وواصل جهوده لتوسُّعه بعد السيطرة على شاه رود، مستخدماً وسائل مختلفة، بدءاً بالإقناع العقدي، والتحاور الفكري، حتى استخدم أسلوب القوة والصدام المسلَّح، وتطلَّع إلى منطقة قهستان[3]، وهي عبارة عن مجموعة من الواحات المتباعدة تحيط بها صحاري مالحة.

كانت تلك المنطقة في العهود الإسلامية الأولى معقلاً للشيعة وغيرهم من المنشقين الدينيين عن أهل السُّنَّة، ثم ملاذاً للإسماعيليين، فأرسل إليها بعثة

---

(١) حوض النهر: نسبة إلى نهر شاه رود الذي يجري في المنطقة، ورودبار من المناطق التابعة لولاية قزوين، وتُدعى رودبار في المصادر العربية الإسلامية بـ روذبار. انظر: الحموي، م.س: جـ٣ ص٧٧.

(٢) الجويني، م.س: جـ٣ ص١٩٥.

(٣) قهستان، تقع في جنوبي شرق إيران.

برئاسة حسين القاييني، وهو داعٍ قدير، لاستقطاب أهلها، وقد أحرز نجاحاً بفعل أن السكّان كانوا يتذمَّرون من الحكم السلجوقي[١].

الواقع أن ما حدث في قهستان كان أكثر من مجرَّد تسلُّل سرّي أو استيلاء على قلاع، وإنما أخذ شكل ثورة شعبية أو حركة استقلال ضد السيطرة العسكرية السلجوقية، فقد هبَّ الإسماعيليون في ثورات عاتية في معظم أنحاء الإقليم، وفرضوا سيطرتهم على قرى رئيسة هي شوشان وقعين وطبس وتون وغيرها[٢].

كانت المناطق الجبلية، ذات ميزة واضحة بالنسبة لسياسة الإسماعيليين التوسعية، وكانت هناك منطقة أخرى مماثلة جغرافياً تقع في الجنوب الغربي من إيران، في المنطقة بين خوزستان وفارس، توفَّر فيها شروط النجاح، وكان حاكم تلك المنطقة يدعى أبو حمزة الإسكافي من أرِّجان، وكان قد ذهب إلى مصر وعاد داعياً فاطمياً، واستولى على قلعتين تبعدان أميالاً عدة عن أرِّجان، هما: قلعة الناظر وقلعة الطنبور[٣]، فاستخدمهما قاعدتين لمزيد من التوسع.

ردُّ الفعل السلجوقي

أثار استيلاء الحسن بن الصباح على قلعة ألموت استياء السلطان السلجوقي ملكشاه ووزيره نظام الملك، وقد أدركا مدى الخطورة التي سيتعرَّض لها النظام السلجوقي؛ بفعل أن القلعة تُتيح لمن يستولي عليها أن يهاجم قلب الدولة السلجوقية وعاصمتها أصفهان، فقرَّر ملكشاه أن يُجري مفاوضات مع الحسن بن الصباح كي يتخلَّى عن القلعة، وإلا فإن استعمال القوة يبقى وارداً، فأرسل إليه رسالة في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) دعاه فيها إلى الخروج من دعوته، وترك غواية الناس، والانضواء تحت راية الإسلام، وهدَّده باستعمال القوة، وأن جيوشه على أهبة الاستعداد للتحرك صوب القلعة، ردَّ الحسن بن الصباح على رسالة السلطان ملكشاه برسالة مستفيضة محاولاً إقناعه بموقفه السياسي وبعقيدته الدينية.

---

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٠٠.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٤٥٢. لويس، برنارد: **الحشاشون**، تعريب محمد العزب موسىٰ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م: ص٨٩ ـ ٩٠.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص٤٥٣.

وفي ضوء الانتشار السريع والانتصارات المتوالية لحركة الحشاشين في إيران، وجد السلطان ملكشاه أنه لا بدَّ من اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية للقضاء على نفوذ الحسن بن الصباح، فأرسل جيشين في مطلع عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) إلى قاعدتي الحركة في رودبار في منطقة طورشير قرب نيسابور، وهما قلعة ألموت وقهستان:

الأول: بقيادة أرسلان تاش، وقد حاصر القلعة في (جمادى الأولى/ حزيران)، ولم يكن لدى الحسن بن الصباح أكثر من سبعين رجلاً مع قليل من المؤن والعتاد، وطلب القائد السلجوقي منه الاستسلام الفوري وتسليم القلعة وإلا ستكون عاقبته الإبادة، لكن الحسن لم يرضخ للتهديد، عندئذٍ حاصر القلعة، وضيَّق الخناق على القرى والمناطق المجاورة. استمر الحصار حوالي أربعة أشهر، التمس الحسن بن الصباح خلالها المساعدة من ديدار أبي علي، حاكم المنطقة بين زوارة وأردستان حتى قزوين، فأرسل إليه قوة عسكرية من ثلاثمئة مقاتل من كوه بره وطالقان، وتمكَّن الحسن بن الصباح بهذه النجدة من القيام بهجوم ليلي مفاجئ على مواقع الجيش السلجوقي، واستطاع الانتصار عليه وإجلائه عن المنطقة.

الثاني: بقيادة قزل طاش، حاصر منطقة النفوذ الإسماعيلي في قهستان، وقاوم الداعي الإسماعيلي في المنطقة حسين القاييني ورجاله الجيش السلجوقي، ولم ينقذهم سوى مجيء خبر وفاة السلطان ملكشاه، حيث فك القائد السلجوقي الحصار وعاد أدراجه من حيث أتى، وتوقَّفت الأعمال العسكرية[١].

مقتل نظام الملك

أدرك الوزير نظام الملك خطر نشاط دعوة الحشاشين الإسماعيليين عبر استقطابها أعداداً كبيرة من عامة الناس، فحاربها بسلاح القوة من خلال الحملات العسكرية التي أرسلها السلطان ملكشاه ضد أفرادها، كما حاربها بنشاط دعوي مماثل عن طريق المؤسسات الثقافية التي أنشأها في بغداد

---

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٣٠١ ـ ٣٠٢.

والموصل وأصفهان ونيسابور وبلخ وهراة وغيرها من المدن، والتي عُرفت بالمدارس النظّاميّة، التي من أهم أهدافها نشر الفكر السنيّ ليواجه تحدّيات الفكر الشيعي والعمل على تقليص نفوذه.

ومن أبرز ما قام به الحشاشون من أعمال في عهد السلطان ملكشاه، اغتيال نظام الملك في (١٠ رمضان ٤٨٥هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٠٩٢م)، فقد قتله رجل ديلمي من هذه الحركة تزيَّا بزيِّ الصوفية[(١)]، ويُعدُّ مقتله أمراً جللاً، وخسارة كبيرة أصابت السلاجقة بخاصَّة والعالم الإسلامي بعامَّة.

كان هذا الوزير عاملاً أساسياً من عوامل تدعيم بنيان الدولة السلجوقية، وظهرت مكانته بوضوح بعد مصرعه، إذ دخلت الدولة في طور التفكك والضعف، فقد كان طيلة عهد السلطان ألب أرسلان، وعهد السلطان ملكشاه يُشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية، واستطاع بحسن سياسته، وسلامة تفكيره، ودقَّة تدبيره؛ أن يجعل من السلاجقة أكبر قوَّة في العالم الإسلامي.

وفاة السلطان ملكشاه

عاد السلطان ملكشاه بعد مقتل وزيره نظام الملك إلى بغداد، فعيَّن تاج الملك أبا الغنائم الشيرازي في منصب الوزارة مكان الوزير المقتول، وتوفي بعد اغتيال وزيره بحوالي خمسة وثلاثين يوماً[(٢)] في ظروف غامضة أدَّت إلى انتشار الشائعات حول موته، فذكر ابن الأثير أنه خرج إلى الصيد وعاد ثالث شوال مريضاً، وكان سبب مرضه أنه أكل لحم صيد فحُمَّ، وافتصد ولكنه لم يستوفِ إخراج الدم، فثقل عليه المرض، وكانت حمّى محرقة، فتوفي ليلة الجمعة النصف من شوّال[(٣)].

وذكر آخرون أنه مات مسموماً بدسِّ السُّمّ له في الشراب، أو في شحم أرنب، بتدبير من فروك، أحد أتباع نظام الملك[(٤)]، ويُرجِّح مؤرِّخون آخرون

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٣٥٤. الراوندي، م.س: ص٢٠٩.

(٢) ابن الأثير، المصدر نفسه: ص٣٥٦. (٣) المصدر نفسه: ص٣٥٩.

(٤) ابن الجوزي، م.س: جـ٩ ص٧٤. ابن تغري بردي، م.س: جـ٥ ص١٣٥.

بأنه مات ميتة طبيعية[(١)]، وذلك في (شوال ٤٨٥هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٢م).

التنازع السلجوقي الداخلي على السلطة

انتهى بوفاة السلطان ملكشاه عهد القوة والازدهار في الدولة السلجوقية في خراسان وإيران والعراق، وبدأ عهد جديد اتَّسم بالضعف والانقسام والحروب الأهلية بسبب التنافس الداخلي على السلطة بين أمراء البيت السلجوقي، وانحصر هذا التنافس على العرش بين بركياروق، الابن الأكبر للسلطان المتوفىٰ، والبالغ في العمر ثلاثة عشر عاماً، وكان في أصفهان وسانده أتباع الوزير نظام الملك، وبين أخيه الأصغر محمود، البالغ من العمر أربعة أعوام، وكان في بغداد يوم وفاة والده، وهو ابن تركان خاتون ذات النفوذ الواسع، وقد أمَّنت له السلطة، وسانده الوزير تاج الملك، وخُطب له على منابر بغداد، ورفع النظّاميون بركياروق على عرش السلاجقة في أصفهان، وخطبوا له، فأضحت المواجهة بينهما أمراً لا مفرَّ منه، والتقى الطرفان في بروجرد بين همذان وبلاد الكرج في (ذي القعدة ٤٨٥هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٠٩٣م) وجرى بينها قتال انتهى لمصلحة بركياروق، واعترف الخليفة العباسي المقتدي به سلطاناً على السلاجقة في (١٤ محرم ٤٨٧هـ/ ٣ شباط ١٠٩٤م) وخُطب له على المنابر.

لعل أبرز ما واجهه السلطان بركياروق خلال حياته السياسية من مشكلات هدَّدت دولته هو الصراع الذي نشب بينه وبين أخويه محمد وسنجر، الذي استمر خمسة أعوام (٤٩٢ ـ ٤٩٧هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١٠٤م) وانتهى بالتفاهم بينهم، وجرى توزيع أراضي الدولة السلجوقية بين الأخوة الثلاثة، فأخذ بركيارق الأقاليم الجنوبية، وسنجر خراسان وما وراء النهر، ومحمد العراق.

السلطان بروكياروق والحشاشون

انتهزت فرقة الحشاشين فرصة الاضطرابات التي حدثت بعد وفاة السلطان ملكشاه، من واقع الصراع الذي نشب بين أبناء البيت السلجوقي، فراحت

---

(١) البنداري، م.س: ص٢٣. الحسيني، م.س: ص٧١. الراوندي، م.س: ص٢١٠. الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٠٦.

تتوسع عن طريق الاستيلاء على مزيد من الأماكن الحصينة، وتتسلَّل إلى بلاد السلاجقة، وإلى جيوشهم، وكان جيش السلطان بركياروق أحد الجيوش السلجوقية التي كثر المقاتلون الحشاشون في صفوفه، ويبدو أن هذا السلطان لم يشأ أن يصطدم بهم بسبب انهماكه في الصراع الدائر بين أفراد البيت السلجوقي من جهة؛ ولأنه أراد الاستفادة من قوَّتهم في هذا الصراع من جهة أخرى، فاتُّهم بأنه يميل إليهم ويوافق على ما يقومون به من اغتيال الأمراء والأعيان.

وأخذ دعاة الحشيشية ينشرون الدعوة الإسماعيلية بين الجند، ويُهدِّدون من يرفض الدخول في مذهبهم، فخشي هؤلاء على أنفسهم من القتل واحتاطوا بلبس درع تحت ثيابهم، وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يستفحل خطرهم فيعجز عن القضاء عليهم[1].

وأذن السلطان في قتلهم، وتتبُّعهم في الآفاق، فقتل ثلاثمئة منهم في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، وسرعان ما لاحقهم أمراء الأقاليم، فقتل جاولي سقاوة ما يقارب الثلاثمئة منهم في منطقة خوزستان، وأرسل السلطان إلى الخليفة العباسي يشير عليه بملاحقة الموجودين منهم في عاصمته، فأمر بالقبض على قوم وقتلهم، كان من بينهم الأمير محمد بن دشمنزيار بن علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه صاحب يزد، وأبو إبراهيم الأسدابادي وكان من أعيانهم[2].

السلطان سنجر والحشاشون

وطارد السلطان سنجر الحشاشين في خراسان في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) فقتل أعداداً منهم وحاصرهم في قلعة طبس وغيرها من القلاع والقرى المجاورة، ومع ذلك فقد أشار عليه أعوانه بأن يؤمِّنهم مقابل ألا يبنوا حصناً، ولا يشتروا سلاحاً، ولا يدعوا أحداً إلىٰ مذهبهم، ويبدو أنه عجز عن القضاء عليهم، فاستجاب لمشورة أعوانه، وقد تعرَّض للنقد من جانب من نالهم أذى منهم، فنقموا عليه[3].

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٤٥٥ ـ ٤٥٦. (٢) المصدر نفسه: جـ٨ ص٤٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٠٠.

والواقع أن الحشاشين لم يحترموا بنود التفاهم، فأغاروا في العام التالي على نواحي بيهق، وأكثروا القتل والنهب والسبي، ويُعدُّ هذا العام نهاية المرحلة التي قاوم السلاجقة فيها نفوذهم بحذر في ظل الصراع الداخلي على السلطة، واستغلال هذا الصراع للتغلغل في صفوف السلاجقة، والتسلُّل إلى المراكز المهمة في دوائر الدولة[1].

استيلاء الحشاشين على مزيد من القلاع

استأنف الحشاشون نشاطهم التوسعي مستغلّين الفرصة التي أُتيحت لهم نتيجة النزاع السلجوقي الداخلي، فاستولوا في عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) على قلعة كردكوه المشهورة الواقعة جنوبي دامغان، بمساعدة ضابط سلجوقي يُدعى مظفر كان قد اعتنق سرّاً العقيدة الإسماعيلية على يد الداعي عبد الملك بن عطاش، ولا شك بأن الاستيلاء على هذه القلعة، ودخول مظفر في حركتهم كان يعني زيادة ذات شأن في قوة الحشاشين بفعل أنها تتحكَّم بطرق الهضاب بين داخل إيران وبحر قزوين، ومن ضمن القلاع التي خطَّطت الفرقة الاستيلاء عليها، قلعة شاه دز الواقعة فوق إحدى التلال القريبة من أصفهان، وقد تولّى السيطرة عليها أحمد بن عبد الملك بن عطاش بعد أن استقطب قائد حاميتها، وتولّى حكمها بعد موته.

وانتهز الدعاة النزاريون فرصة وفاة السلطان بركياروق في (٢ ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ ٢٢ كانون الأول ١١٠٤م) ونشوب النزاع بين أبنائه، فوسَّعوا نشاطهم في أصفهان عاصمة السلاجقة، وقد نشروا الرعب والفزع بين السكّان بفعل الأساليب التي لجؤوا إليها في عمليات القمع، من قتل وتدمير واستيلاء على الثروات، وقد بلغت حدّاً أن الرجل لا يجرؤ على السير بمفرده، وإذا تأخر عن موعد وصوله المعتاد إلى بيته، عُدَّ مقتولاً، وتمخَّضت حالة الرعب التي كان يعيش في ظلها أهل أصفهان عن ثورة ضد أفراد الفرقة بقيادة أبي القاسم مسعود بن محمد الخجندي، الفقيه الشافعي، فتتبَّعوهم في المنازل والأزقَّة وقتلوهم.

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٥١١.

• الاستيلاء على قلعة شاه دز

حرص السلطان محمد السلجوقي الذي خلف أخاه السلطان بركياروق بعد وفاته، خلال حياته السياسية على القضاء على فرقة الحشيشية الباطنية بعد أن استشرى خطرها من خلال توسُّعها بالاستيلاء على مزيد من القلاع الحصينة، وتسلل أفرادها إلى أجهزة الدولة، وارتكابهم الجرائم بحقِّ المسلمين والشخصيات السلجوقية المهمة، ورأى أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وتخريب قلاعهم، من ذلك أنهم قتلوا أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية في عام (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م)، وهاجموا قافلة حجاج الهند وما وراء النهر وخراسان في خوار الرَّيِّ[١].

هاجم السلطان محمد، وهو على رأس جيشه، قلعة شاه دز بالقرب من أصفهان، واستولى عليها وخرَّبها وقتل صاحبها أحمد بن عبد الملك بن عطاش وولده، وهذه أول مرة يقود سلطان سلجوقي حملة ضد هذه الفرقة، والمعروف أن السلطان ملكشاه كان قد بنى هذه القلعة واستولى عليها ابن عطاش بعد وفاته، فقويت شوكته واستفحل أمره، فكان يُرسل أتباعه لقطع الطرق وقتل الناس، فقتلوا خلقاً كثيراً، وفرضوا على القرى السلطانية، وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفُّوا أذاهم عنهم.

وحاول ابن عطاش قبل القبض عليه أن يُبطل شرعية قتال الحشاشين فلجأ إلى الخداع، فطلب من فقهاء السُّنَّة الفتوى في قوم يؤمنون بالله ورسوله ولكن يخالفون الإمام، هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، ويقبل طاعتهم، ويحرسهم من كل أذى؟

وكادت الحيلة تنجح بعد أن أفتى معظم الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم عن الفتوى، وأفتى الفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن السمنجاني بإباحة دمائهم نظراً لرأيهم في الإمام الذي يستطيع أن يُحرِّم عليهم

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٥١١، وخوار الري مدينة كبيرة من أعمال الري بينهما عشرين فرسخاً. الحموي، م.س: جـ٢ ص٣٩٤.

ما أحلَّ الله، ويُحل لهم ما حرَّم الله، وتكون طاعته في هذا الحال وفقاً لاعتقادهم واجبة.

ولجأ ابن عطاش بعد فشل هذه المحاولة إلى التسويف والمماطلة لكسب الوقت بانتظار فرصة قد تُساعده على التخلُّص من ضغط السلطان، فطلب منه أن يُرسل إلى القلعة من يناظرهم، فذهب إليها عدد من العلماء، ثم عادوا بغير طائل، وأخيراً طلب ابن عطاش الأمان من السلطان ومغادرة القلعة مقابل تأمين وصوله مع أتباعه إلى بعض القلاع على دفعات، ولما تأكد من وصول أتباعه سالمين، نقض العهد، وانتهت مقاومته بوقوعه أسيراً في أيدي الجيش السلجوقي، وقتله بعد ذلك مع ولده كما ذكرنا[١].

• حصار السلاجقة قلعة ألموت

كان انتصار السلطان محمد علىٰ ابن عطاش دافعاً إلى ملاحقة الحشاشين، وبخاصة في قلعة ألموت، وقد تحصَّن فيها الحسن بن الصباح، فأرسل في عام (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م) وزيره أحمد بن نظام الملك، فحاصر القلعة، لكنه اضطر إلى الرحيل عنها بعد ذلك بفعل حلول فصل الشتاء، وحاول الحشاشون الانتقام من هذا الوزير، فهاجموه في أحد مساجد بغداد، وطعنوه بالسكاكين، فجُرح في رقبته، ولم تكن الطعنات قاتلة، فشُفي من جراحه[٢].

وكرَّر السلطان محاولته في (جمادى الأول ٥٠٥هـ/ تشرين الثاني ١١١١م)، فندب أحد أمرائه، ويُدعى أنوشتكين شيركير صاحب ساوة وآبه وغيرهما، لحرب الحشاشين، فاستولى على قلاع عدَّة، منها: قلعة بيرة على بُعد سبعة فراسخ من قزوين، وقلعة كلام، فأمَّن حاكمها علي بن موسى ومن معه، وسمح لهم بالمسير إلى ألموت مرتكباً خطأً عسكرياً فادحاً، لأن هذه القلعة ازدادت منعة وقوة بمن توجَّه إليها من المقاتلين، وأضحت أكبر مركز لتجمعات الحشاشين، ثم سار إلى هذه القلعة وحاصرها وأمدَّه السلطان بعدد من الأمراء، وحتى يُحكم الحصار عليها، بنى مساكن حولها، وعيَّن لكل طائفة من الأمراء، بالتناوب، أشهراً يقيمون فيها، وأقام هو بشكل دائم فيها،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٦٢٠ - ٦٢٢. (٢) المصدر نفسه: ص٥٨٠.

ولم يتوقف السلطان خلال مدة الحصار التي استمرت ست سنوات (٥٠٥ ـ ٥١١هـ/ ١١١١ ـ ١١١٧م) عن إمداد قائده بالمؤن والعتاد والرجال.

وضاق الحشاشون بهذا الحصار الطويل، ونفدت منهم المؤن، فمالوا إلى المهادنة، فأنزلوا نساءهم يطلبن الأمان على أن يُسلِّموا القلعة، ويسمح لهم السلطان بالمضي في أي طريق يشاؤون، ويبدو أن القائد السلجوقي استدرك أخطاء الماضي، فرفض أن يمنحهم الأمان، وأعاد النساء إلى القلعة، وشدَّد الحصار عليها كي يموت جميع من فيها جوعاً، وكادت القلعة أن تسقط، ولم يُنقذ الحسن بن الصباح وأتباعه سوى وفاة السلطان محمد في (٢٤ ذي الحجة ٥١١هـ/ ٨ نيسان ١١١٨م)، ففكَّ أنوشتكين شيركير الحصار عنها وانسحب مع جنده، فانتعشت آمال الحشاشين، وغنموا ما تخلَّف عن الجند السلجوقي[1].

توقَّفت بعد وفاة السلطان محمد محاولات السلاجقة للقضاء على فرقة الحشاشين بفعل الصراع الداخلي على السلطة، ما أتاح لأفرادها فرصة أخرى لتقوية أنفسهم.

إعادة تنظيم صفوف الحركة

انتعشت الحركة الحشيشة عقب وفاة السلطان محمد، فأعاد الحسن ابن الصباح تنظيم صفوفها، وواصل عملياته التي اشتهر بها في اغتيال الشخصيات المناوئة للحركة، على يد فدائييه المدرَّبين، ونجح في جذب السلطان سنجر الذي كان دائم التعقُّب للحشاشين، فحاول أولاً استقطابه عبر الرسائل، فلم يستجب له؛ لأنه كان يشك في صدق نواياه، ورغبته في إحلال السلام، فلجأ عندئذٍ إلى عملية بالغة الدهاء اقتنع معها السلطان بجدّيته في إرساء السلام بينهما، فقد أغرى أحد غلمان السلطان وكلَّفه بوضع خنجر ورسالة تحت وسادته، دليلاً على سهولة الوصول إليه وقتله[2].

أتاح إحلال السلام للحسن بن الصباح تدعيم قلاعه، وتوطيد سلطانه في الأقاليم التي يسيطر عليها، فخفَّف من عملياته الفدائية والتخريبية ضد

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٦٢٠ ـ ٦٢٢.

(٢) الجويني، م.س: جـ٣ ص٣١٣ ـ ٣١٤، وهو يذكر نص الرسالة.

مخالفيه، وعاش في هدوء نسبي في هذه المرحلة من الحكم السلجوقي.

اغتيال الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وانعكاساته

وما حدث من اغتيال أمير الجيوش في مصر الأفضل بن بدر الجمالي في عام (٥١٥هـ/ ١١٢١م)[1]، ابتهج له الحشاشون، وحاول الخليفة الفاطمي الآمر ووزيره الجديد المأمون، انتهاز الفرصة لاستقطابهم وإقناعهم بالعدول عن تأييد إمامة نزار، ولكن هؤلاء كانوا قد عزموا على اغتيال الآمر والمأمون معاً، وشرعوا في إعداد المؤامرة والعمل على تنفيذها، فاتخذ المأمون نتيجة ذلك، إجراءات أمنية مشدَّدة، وبثَّ جواسيسه في كل مكان، حتى أنه لا يخفى عليه شيء مما يجري في البلاد والدولة.

وفاة الحسن بن الصباح

مرض الحسن بن الصباح في (مستهل ربيع الأول ٥١٨هـ/ ١٨ نيسان ١١٢٤م) مرض الموت، ولما شعر بدنوِّ أجله اختار لخلافته بزرك أميد مندوبه في قلعة لاماسار، وهو من كبار دعاته، يثق به ويُقدِّره لإخلاصه في نشر الدعوة وتفانيه بالالتزام بتعاليمها، فضلاً عما كان يتمتع به من علم بأصول المذهب ما يؤهِّله لخلافته، فاستدعاه وعهد إليه بتسيير شؤون الحركة، وحثَّ أتباعه على طاعته، وتوفي الحسن في (٦ ربيع الأول/ ٢٣ نيسان)[2].

أهمية الحسن بن الصباح

يُعدُّ الحسن بن الصباح من زعماء الحشيشية القلائل، امتاز بصفات وضعته في مصافِّ زعماء المشرق الإسلامي، ومن أهم ما كان يتمتع به: بُعد النظر والنبوغ العلمي وانتهاز الفرص بنجاح، وميل إلى التنظيم والدقَّة.

فقد اهتم بتكوين جماعة منظَّمة لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية، واعتقد أن النظام هو عنصر أساس للنجاح، فاعتمد على سلسلة من القلاع تسير وفق نظام دقيق بحيث لا يستقبل فيها إلا المستجيبين، وجعلها بشكل يمكن الاتصال بها جميعاً عبر شبكة من وسائل الدفاع القوية التي يصعب اختراقها،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٦٦٩.

(٢) الجويني، م.س: جـ٣ ص٣١٥ ـ ٣١٦.

وجعل من كل قلعة مملكة صغيرة، ومجتمعاً قائماً بذاته، تخضع لرئيسها المباشر، وجعل القلاع في كل إقليم تخضع لقلعة رئيسة، وعيَّن عليها حاكماً يدين له جميع الحشاشين في إقليمه.

ونظَّم الحسن بن الصباح مجتمع الحشاشين بحيث يرتبط بعضه ببعض، ويدين أعضاؤه بالتبعيَّة له، ويُقدِّسون الإمام نزار، وقسَّمهم إلى طبقات تشعر كل طبقة بكيانها، وتحترم غيرها من الطبقات الأخرى، وجعل من نفسه المشرف الأول عليها جميعاً، وخلق جماعة الفدائيين، وجعل أفرادها أداة طيِّعة في يده وفي خدمة الإمام، بحيث أضحى لاغتيالاتهم السياسية المنظمة دوي كبير في الشرق والغرب.

ووضع الحسن بن الصباح نظاماً دقيقاً لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية ونجاحها، فأمر الدعاة بدراسة نفسية المستجيب دراسة وافية قبل أن يستقطبوه في سُلَّم متدرج حتى يصلوا إلى النهاية المنشودة، وكان إلى جانب تنظيماته فيلسوفاً ومؤلِّفاً، وتوفي بعد أن مهَّد الأمور لخليفته.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَرَ

حركة الحشاشين بعد الحسن بن الصباح

عهد برزك أميد

تولّى بزرك أميد منصب كبير الدعاة بعد وفاة الحسن بن الصباح وبعهد منه، فسار على النهج نفسه، وظلَّت قلاع الحشاشين المنتشرة في إيران شوكة في جنب الدولة السلجوقية، يجب إزالتها، وكان السلطان سنجر يراقب أوضاع الحشاشين، واعتقد أنهم ضعفوا بعد وفاة مؤسس الحركة الحسن بن الصباح، فنقض معاهدة السلام التي كان قد عقدها معهم من قبل، وبدفع من وزيره معين الدين أبي نصر أحمد بن الفضل وجَّه ثلاث حملات عسكرية في عام (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) إلى مناطق مختلفة تتمركز فيها الحركة، وأمر جنوده بقتل أفرادها أينما وُجِدوا، ومصادرة أموالهم، وسبي نسائهم.

توجَّهت الحملة الأولى إلى تواري ثيت في قهستان، فهزم جنودُها السكان، وقتلوا الكثير منهم، وصادروا ما استطاعوا حمله.

وهاجمت الحملة الثانية بيهق، إحدى ولايات إقليم نيسابور، وكان للحشاشين قرية خاصة بهم تُدعى طرز، ويرأسهم الداعي الحسين بن سمين، فقتل الجنود كل من وجدوا في القرية، وانتحر الداعي بأن ألقى بنفسه من فوق منارة المسجد.

وذهبت الحملة الثالثة إلى رودبار في الشمال بقيادة ابن أخ شيركير، ولم تحرز نجاحاً حاسماً، وعاد أفرادها أدراجهم من حيث أتوا، وغنم الحشاشون غنائم كثيرة[١].

جاء ردُّ فعل الحشاشين سريعاً على هذه الهجمات، فقتلوا قسيم الدولة آق سُنقُر البرسقي صاحب الموصل وهو يصلّي صلاة الجمعة في (٨ ذي القعدة ٥٢٠هـ/ ٢٥ تشرين الثاني ١١٢٦م)[٢]، وانتقموا من الوزير السلجوقي

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٧٠٢ ـ ٧٠٣.   (٢) المصدر نفسه: ص٧٠٤.

معين الدين أبي نصر أحمد بن الفضل، فاغتالوه بأسلوبهم المعهود طعناً بالخناجر[1].

تجاه هذا التحدّي الصارخ، نهض السلطان سنجر للانتقام من مقتل وزيره، فهاجم قلعة ألموت وقتل ما يزيد على عشرة آلاف من أفراد الحركة[2]، وعلى الرغم من ذلك استطاع الحشاشون تدعيم نفوذهم في مناطق أخرى مثل قهستان وطالقان ورودبار، وخرجوا من الحروب مع السلاجقة أكثر قوة، وفي غمرة الصراع على السلطة بعد وفاة السلطان السلجوقي محمد، في (٢٤ ذي الحجة ٥١١هـ/ ٨ نيسان ١١١٨م) دعَّموا قوَّتهم في رودبار عبر بناء قلعة حصينة أسموها: ميمون دز، ووسَّعوا أملاكهم في طالقان، وأغارت قواتهم الموجودة في قهستان في الشرق على سيستان في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م).

دفعت هذه الأحداث السلاجقة إلى مهادنة الحشاشين، وبخاصة أنهم كانوا منهمكين في نزاعاتهم الداخلية، فدعا السلطان محمود الذي خلف والده السلطان محمد، ممثلان عنهم للمجيء إلى أصفهان والاجتماع معه لبحث شروط السلام، وعند خروجهما من قصر السلطان هاجمهما السكان وقتلوهما، وحاول السلطان نفي مسؤوليته عن الحادث، فطلبوا منه أن يقتص من القتلة، فرفض، فقاموا عندئذٍ بردٍّ سريع، فاغتالوا على عبد اللطيف بن الخجندي رئيس الشافعية في أصفهان[3]، وهاجموا قزوين وقتلوا أربعمئة من سكانها واستولوا على كثير من الغنائم.

وردَّ السلطان محمود، فقام بهجوم على قلعة ألموت، لكنه فشل في اقتحامها، وفي عام (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) توفي السلطان محمود، فتلا ذلك قيام الصراع على السلطة بين الأمراء السلاجقة، ودخلت الدولة السلجوقية في العراق على إثره في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب، فقد انقسم الأمراء إلى ثلاث فئات لكل منها أطماعها الخاصة ومؤيدين من قادة الجند.

ترأس الفئة الأولى داود بن السلطان محمود الذي نودي به سلطاناً عقب وفاة والده.

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص١٠. (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص١٩.

وتزعَّم الفئة الثانية كل من مسعود وسلجوقشاه شقيقا السلطان المتوفى، وكان على رأس الفئة الثالثة طغرل بن السلطان محمد، يسانده عمه سنجر، واستطاع بعض الأمراء في غمرة هذا الصراع، توريط الخليفة المسترشد في تحالف ضد السلطان مسعود الذي استقر حكمه في العراق، وكان آنذاك في همذان، وجرى قتال بين الطرفين في ديمرت[1] من نواحي أصفهان، أسفر عن انتصار السلطان السلجوقي، ووقوع الخليفة في الأسر مع كثير من أمرائه، ونُصبت له خيمة منفردة عن عسكر السلطان، فتعرَّض لهجوم الحشاشين وقُتل نتيجة ذلك في (١٧ ذي القعدة ٥٢٩هـ/ ٨ أيلول ١١٣٥م)[2]، وتدل قرائن الحادثة على تورُّط سلجوقي[3].

ابتهج السكان في ألموت بموت الخليفة العباسي المسترشد واحتفلوا بهذه المناسبة سبعة أيام بلياليها، وأكرموا الرفاق الذين ارتكبوا هذه الفعلة وعددهم أربعة وعشرين، وسبُّوا ولعنوا اسم العباسيين وشعاراتهم.

وكما في المشرق الإسلامي كذلك في مصر، فبعد القضاء على الحركة التي أثارها نزار، قبض الأفضل بن بدر الجمالي على شؤون الحكم في مصر، واستبدَّ بالسلطة دون المستعلي، وبلغ نفوذه حدّاً أنه لما توفي المستعلي في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) نصَّب ابنه أبا علي المنصور مكانه في الإمامة، ولقَّبه الآمر بأحكام الله، وكان عمره خمس سنوات وشهر وأيام[4]، وتضمَّن سجل التولية تعظيماً لهذا الوزير وتفويض الأمر إليه، ما أثار الحشاشين، فاشتدَّ خوفه منهم، واتخذ تدابير احتياطية لحماية نفسه، لكن هذه التدابير لم تمنع تسلل هؤلاء إلى مصر، حتى كثر الغرباء فيها، وعندما بلغ الآمر سنَّ الرشد استعاد سلطته المسلوبة من وزيره المستبد الذي حاول أن يتخلّص منه أكثر من مرة بدسِّ السمِّ له، فكان لدى الطرفين مصلحة مشتركة للتخلص منه، فكمنت له

(١) عند ابن الأثير: دايمرج، جـ٩ ص٦٣. (٢) المصدر نفسه: ص٦٤.

(٣) البنداري، م.س: ص٣٠٠. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن: **تاريخ الخلفاء**، م.س: ص٣٣١.

(٤) ابن ميسر، م.س: ص٤٠. المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، جـ٢ ص١٩٦، وجـ٤ ص٨٠.

مجموعة من الحشاشين أثناء عودته من القاهرة إلى دار الملك بالفسطاط، وضربوه بالسيوف عند رأس الجسر المنصوب بين الفسطاط والروضة ليلة عيد الفطر عام (٥١٥هـ/ ١١٢١م)[١].

اتخذ الآمر وزيراً، هو المأمون محمد بن فاتك البطائحي، وتعرَّض الرجلان إلى مضايقات الحشاشين الذين أرسلوا عدداً من رسلهم إلى مصر للتنسيق مع أتباعهم فيها والإعداد لتنفيذ مخططهم القاضي بالتخلص منهما، ولكي يواجه الآمر هذا المخطط اتخذ تدابير احتياطية، نذكر منها:

- أقفل دار الحكمة خشية من نشر التعاليم النزارية[٢].
- لجأ إلى الدعاية المضادة، فعقد مجلساً في القصر في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) شهدت فيه أخت نزار «بأن أخاها لم تكن له إمامة، وأنها بريئة من إمامته، جاحدة له، لاعنة لمن يعقدها»[٣].
- أنشأ جهازاً لمراقبة الوافدين إلى مصر، وفرض نظاماً أمنياً صارماً، كما وضع نقاط مراقبة على الطريق المؤدي من عسقلان إلى القاهرة.

لكن تدابير الآمر لم تُجدِ نفعاً، فقد نجح الحشاشون في التسلل إلى مصر، وقتلوه وهو عائد من متنزَّه له في جزيرة الروضة في (٢ ذي القعدة ٥٢٤هـ/ ٧ تشرين الأول ١١٣٠م)[٤].

استمر بزرك أميد يتزعَّم الحشاشين في ألموت مدة أربعة عشر عاماً تقريباً انتهت بوفاته في (جمادى الآخرة ٥٣٢هـ/ شباط ١١٣٨م)، وتزامنت مع المرحلة الثانية من مدة إمامة علي بن نزار الذي تولّى إمامة الإسماعيلية بعد وفاة أبيه في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)، وتوفي في عام (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م)، والمعروف أنه خلفه ابنه الإمام محمد المهتدي (٥٣٠ ـ ٥٥٢هـ/ ١١٣٦ ـ ١١٥٧م)، والواضح أن عهده كان خصباً بعمليات الاغتيال من حيث نوعية الأشخاص الذين قتلهم الحشاشون، وقد شملت شخصيات بارزة تربَّعت على قمة العالم الإسلامي.

---

(١) ابن ميسر، م.س: ص٥٧ ـ ٥٨. النويري، م.س: جـ٢٨ ص٢٧٩.
(٢) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٣) المقريزي، م.س: جـ٣ ص٨٦. ابن ميسر، م.س: ص٦٦ ـ ٦٧.
(٤) ابن ميسر، م.س: ص٧٢. ابن الطوير، أبو محمد المرتضى القيسراني: **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تح: أيمن فؤاد سيد، شتوتغارت، ١٩٩٢م: ص٢٤ ـ ٢٦.

عهد محمد بن بزرك أميد (الكيا الصباحي)

خلف محمد أباه بزرك أميد، وكان قد عيَّنه ولياً لعهده قبل وفاته بثلاثة أيام، واصل الحشاشون في عهده نهجهم المعهود بالاغتيالات، فكان أول ضحاياهم في هذا العهد الخليفة العباسي الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٦م)، وكان هذا الخليفة قد دخل في نزاع مع السلطان السلجوقي مسعود الذي جمع هيئة من القضاة والفقهاء والأعيان، خلعته من منصبه، فذهب إلى الموصل برفقة عماد الدين زنكي، ولم يقم فيها مدة طويلة، بل سار إلى أصفهان، فوثب عليه هناك جماعة من النزارية الخراسانية كانوا يعملون في خدمته، فقتلوه على باب أصفهان في (٢٥ رمضان ٥٣٢هـ/ ٦ حزيران ١١٣٨م)[١]، عمَّ السرور في ألموت مرة أخرى بمقتل الخليفة، وعُدَّ ذلك أول نصر للحكم الجديد.

وتضم لائحة الاغتيالات التي تمَّت في هذا العهد أربعة عشر شخصية، أبرزها بالإضافة إلى الخليفة الراشد، السلطان السلجوقي داود الذي اغتاله أربعة فدائيين في تبريز عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، قدموا من بلاد الشام، ويبدو أن لعماد الدين زنكي ضلع في حادثة الاغتيال خشيه أن ينافسه السلطان داود على الحكم، والمعروف أن الأمير الزنكي كان تحت الحكم السلجوقي في بداية حياته السياسية وهو مُعرَّض للعزل في أية لحظة.

ونذكر من الضحايا الآخرين: أحد الأمراء في بلاط السلطان سنجر، وأحد معاونيه، وأمير من الأسرة الخوارزمية، وحكام محلّيون في بلاد الكرج، ومازندران، ووزير وقضاة في قهستان وتفليس وهمذان كانوا قد سمحوا أو أفتوا بقتل الإسماعيليين.

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص٧٥ ـ ٧٧، ٩٥. الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٢٠. الحسيني، م.س: ص١٠٨. والجدير بالذكر أن الخليفة الرائد كان قد خُلع من منصبه في عام (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م)، وخلفه أبو عبد الله بن المستظهر الذي لُقِّب بـ «المقتفي لأمر الله».

كانت تلك الاغتيالات حصيلة هزيلة، إذا ما قورنت بالاغتيالات التي جرت في عهد الحسن بن الصباح، وتعكس حال القلق المتزايد لدى الإسماعيليين تجاه المشكلات المحلية والإقليمية[1].

ونفَّذ الحشاشون سلسلة من الغارات على الأراضي الواقعة بين رودبار وقزوين، وصدَّوا في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) هجوماً سلجوقياً ضد قلعة ألموت، وتمكَّنوا من الاستيلاء على بعض القلاع، وبنوا قلاعاً أخرى في بعض مناطق قزوين، ومدّوا نفوذهم إلى بلاد الكرج، ونشروا مبادئ مذهبهم في ربوعها، وطلب الملك علاء الدين حسين ملك الغور (أفغانستان) من محمد أن يُرسل إليه بعثة من الدعاة الإسماعيليين، ففعل، لكن بعد وفاته في عام (٥٥٦هـ/ ١١٦١م) أخرجهم ابنه وخليفته محمد من البلاد[2].

كان كل من حاكم مازندران والرَّي من قِبل السلاجقة من ألدِّ أعداء الحشاشين، وقد دبَّر لهم عباس حاكم الرَّي مذبحة في المدينة، وهاجم أراضيهم، واغتيل هذا الحاكم في عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) بواسطة السلطان مسعود، وكان في زيارة لبغداد، وأُرسل رأسه إلى خراسان بإشارة من السلطان سنجر، ويبدو أن لهذا السلطان وللحشاشين مصلحة مشتركة في التخلُّص منه.

وبدا في هذه الأثناء كما لو أن جذوة الحشيشية قد انطفأت بفعل تجمُّد العلاقات العدائية بينهم وبين السلطات السنّيَّة (العباسيين والسلاجقة)، وخبا القتال للقضاء على السلطة السنّيَّة ووراثتها وقيام عصر جديد باسم الإمام الإسماعيلي، وتحوَّل إلى مجرد مناوشات على الحدود، وغارات للاستيلاء على الماشية، كما تحوَّلت القلاع المنيعة التي كان الهدف منها أن تكون قواعد انطلاق للهجوم على المدن والمراكز السنّيَّة؛ إلى تجمُّع أُسَري للحشاشين[3].

اهتزت حركة الحشاشين في أواخر عهد محمد بفعل ما جرى من محاولة لنقل الإمامة إلى أسرة الحسن بن الصباح على يد الحسن بن محمد، الذي نشأ على حب العلم، وعندما بلغ سن الرشد انكبَّ على دراسة تعاليم الحسن

(١) لويس، م.س: ص١٣١.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص٢٨٢ ـ ٢٨٣. (٣) لويس، م.س: ص١٣٢ ـ ١٣٣.

ابن الصباح، وساندته فئة في مجتمع الحشاشين نادت باستمرار الحرب مع أعداء الحركة كما في عهد الحسن بن الصباح، واستطاع أن يستقطب القسم الأكبر من الحشاشين بفعل ما اشتهر به من فصاحة اللسان وقوة الإقناع.

كان الحسن محافظاً في عقيدته الإسماعيلية، ومتشدداً في اتِّباع المبادىء التي أرساها الحسن بن الصباح فيما يتعلق بأسلوب الدعاية للإمام، والاحترام الظاهري للفرائض الإسلامية، ثم دعا إلى نفسه كإمام، فاستنكر والده ذلك، وتشدَّد بموقفه منه ومن أتباعه، وعاقب من اعتقد بإمامة ابنه.

وتحمَّل الحسن مضايقات والده بانتظار فرصة أكثر ملاءمة، وبدَّد شكوكه، وأعلن براءته من هذه الادعاءات، وتنصَّل من أقواله، ولعن الجماعة التي آمنت بإمامته، وبالغ في إبطال ما نُسب إليه، كما بالغ في تأكيد آراء والده، حتى زال عن أبيه ما خامره من الشك به[1].

توفي محمد في عام (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) وخلفه ابنه حسن وكان في الخامسة والثلاثين من عمره[2].

(١) انظر فيما يتعلق بحركة الحسن: الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٢٢ ـ ٢٢٥.
(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص٢٩٦.

عهد حسن بن محمد

خلا حكم حسن في بداية الأمر من الأحداث المهمة ولم يميِّزه سوى التخفيف في الاتِّباع الحازم للشريعة الذي كان سائداً في ألموت، لكنه فجأة بعد عامين ونصف العام من ولايته، أعلن قيام «العهد الألفي السعيد» في (١٧ رمضان ٥٥٩هـ/٨ آب ١١٦٤م)، فقد انتعشت آمال أتباعه، واعتقدوا بأنه الإمام، فانقادوا له، وتمسَّكوا به، ولما كان يميل إلى الاستبداد، فإنه لم يمانع في نشر الدعوة، ولم يُعاقب أحداً على آرائه، والتزم بنسخ الشريعة الإسلامية التي نادى بها الحسن بن الصباح، وأجاز تغيير قواعدها، الأمر الذي أسقط الفرائض، وطلب أن يضعوا له منبراً في فناء قلعة ألموت يُحوِّلونه عن القبلة ويواجه المغرب، ونصب عليه أربعة أعلام كبيرة بأربعة ألوان: أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، ثم دعا الناس للاجتماع، فجاؤوا من مختلف الاتجاهات، وتجمَّعوا في الفناء، فلزم الذين أقبلوا من الشرق الجانب الأيمن، والذين جاؤوا من الغرب الجانب الأيسر، ووقف الذين قدموا من الشمال من رودبار والديلم في مواجهة المنبر، ولما كان المنبر يواجه الغرب، كانت ظهور المجتمعين نحو مكة، ثم اعتلى الحسن، الذي اقترن اسمه بعبارة: «على ذكره السلام»، المنبر مرتدياً ثوباً أبيض وعمامة بيضاء، وشرع في إغواء التائهين الملتفين حوله، وأعلن أنه وصلته رسالة من الإمام المختفي تحمل تعليمات جديدة تقول: «إن إمام عصرنا يبعث إليكم تحيّاته وسلامه، ويبلغكم أنه دعاكم خدمه الخصوصيين المختارين، وأنه حرَّركم من أعباء قواعد الشريعة، وأحضركم إلى القيامة»، بالإضافة إلى ذلك، قضى الإمام بتعيين حسن بن محمد وكيلاً له وداعية وحجة، وعلى أتباعه أن يطيعوه ويتبعوه في شؤونهم الدينية والدنيوية، «وأن يعتبروا أوامره ملزمة، ويعرفوا أن كلمته هي كلمتنا»، وعندما انتهى حسن من خطبته نزل من على المنبر وصلى ركعتين

أسماهما صلاة الاحتفال، ثم أمر بالمائدة فمُدَّت ودعا الناس إلى قطع صيامهم والمشاركة في الطعام والابتهاج، مع ما يتخلَّل ذلك من مجون، واتخذ الحشاشون ذلك اليوم عيداً أسموه «عيد القيام»[(١)].

إن انتهاك حدود الشريعة الإسلامية على هذا النحو الشعائري بما في ذلك اتجاه المصلين بظهورهم إلى مكة، والإفطار ظهراً في رمضان؛ يُمثِّل الحدَّ المتطرف من توجُّه الإيمان بالعصر الألفي السعيد بما ينطوي عليه من مخالفة صريحة لمبادئ الدين، بحجة أن الدين قد استوفى غرضه، وبذلك انتهى حكمه، فقد كُشِفت الأسرار، وأظهر الإمام رحمته وعفوه، وحفظ المؤمنين المختارين من الخطيئة إذ جعلهم خدمه، ووقاهم من الموت عندما أعلن القيامة، ونقلهم أحياء إلى النعيم الروحي، وهو معرفة الحقيقة والتأمل في جوهر الله المقدَّس.

وقد علَّق الجويني على ذلك قائلاً: «وبالنتيجة فإن المذهب بلا أساس، وسرُّ هذه الدعوة شركها؛ لأنهم أسَّسوها على قواعد فلاسفة العالم، فالزمان لا متناهٍ، وروحانيته معادة، وأوَّلوا الجنة وجهنم، وقالوا على أساس هذا: القيامة ستكون حين يبلغ الخلق الخالق، وتنكشف حقائق الناس وبواطنهم، وترتفع أعمال طاعتهم؛ لأن عالم الدنيا كله عمل ولا حساب، أما الآخرة فكلها حساب ولا عمل، فهذه هي الروحانية وتلك هي القيامة التي تنتظرها الملل والأديان جميعاً، والحسن الذي شرح هذا كله وكشفه، وعلى هذه القاعدة انتهج الناس قواعدهم الشرعية، فعلى جميعهم، في مرحلة القيامة هذه، أن يتجهوا نحو خالقهم، ويتركوا الشريعة والعبادات بكل فرائضها مؤقتاً، أما ما جاء في الشريعة من أن على المرء أن يعبد الله (يصلي) خمس مرات في اليوم فهو قول ظاهر، ففي القيامة يجب أن يكون الله في القلب دائماً، والنفس مرتبطة بالحضرة الإلهية تمام الارتباط، وهذه هي الصلاة الحقيقية، وعلى هذا الأساس والقياس أوَّلوا أركان الشريعة، ورفعوا عنهم الفرائض، وتركوا أكثر الحلال والحرام»[(٢)].

---

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٢٥ ت ٢٢٧.

(٢) تاريخ جهان گشاي، م.س: جـ٣ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

وعلى هذا الشكل أعلن حسن قيام القيامة ومجيء إسلام روحاني، والتحلُّل من اتِّباع تعاليم الدين، وإسقاط الفرائض، وإباحة العلاقة مع النساء، ونتيجة لذلك أمر بتغيير اتجاه القبلة، فأصبح جهة المغرب، وقد أُقيمت الاحتفالات في كل مناطق الدعوة الإسماعيلية الحشيشية في إيران وبلاد الشام ابتهاجاً بانتهاء الالتزام بتعاليم الشريعة وفرائضها.

وعلى الرغم من أن غالبية الحشاشين قد قبلت إعلان التغييب إلا أن هناك قلَّة أبدت ارتياباً تجاهه، فتعرضت للعقاب، وتجاه هذا التحلُّل الصارخ من الشريعة قام صهر للحسن، أخو زوجته، ويُدعى حسن بن ناماور، وهو من بقايا البويهيين في بلاد الديلم، ولم يصبر على ما هو فيه؛ بإفشاء فضائحه وأضاليله، ثم طعنه بخنجر وقتله في قلعة لاماسار، وذلك يوم الأحد في (٦ ربيع الأول ٥٦١هـ/ ١٠ كانون الثاني ١١٦٦م)[1].

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٣٩.

عهد محمد بن الحسن: محمد الثاني

خلف محمد الثاني والده حسن، وعلى الرغم من أن والده مات مقتولاً بسبب إعلانه قيام القيامة، إلا أنه سار على نهجه، وأدخل بعض التطوير على النظرية وعمل على تثبيتها عقائدياً في نفوس أتباعه، وأكَّد بأن أباه، وبالتالي هو شخصياً، أئمة من نسل نزار، لكن يبدو أن هذه النظرية لم يكن لها تأثير ملحوظ خارج الإطار الإسماعيلي.

لم يشهد عهد محمد الثاني أحداثاً عسكرية أو سياسية ذات قيمة بالقياس بالعهود السابقة، باستثناء تطورات بالغة الأهمية طرأت على كيان السلاجقة، واستمر في الحكم مدة سبعة وأربعين سنة، وتوفي مسموماً في عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م)[1].

زوال الدولة السلجوقية

جاورت الأحداث البارزة في عهد محمد الثاني أراضي إيران وخراسان، ما سيكون له تأثير مباشر على مستقبل كيان الحشاشين، فقد تعرَّضت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه للانقسام والضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين أولاده، انعكست سلباً على أوضاع الأسرة والخلافة العباسية، فتجزَّأت الدولة السلجوقية بسرعة بالغة إلى كيانات متعددة هي: سلاجقة العراق، سلاجقة كرمان، سلاجقة الشام، سلاجقة الروم، بالإضافة إلى السلاجقة العظام في خراسان وبلاد ما وراء النهر والذين تقلَّصت رقعة دولتهم.

كانت وساطة الخليفة العباسي في مثل هذه الظروف من ضمن الغايات التي يتنازعون من أجلها، وقد تصرَّفت الخلافة وفق ما تمليه عليها مصلحتها

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٤٢.

للانعتاق من الطوق السلجوقي، فوقفت موقف المتفرج أحياناً من هذه النزاعات، في حين تأرجحت باعترافها بين مراكز القوى أحياناً أخرى، وأحياناً كانت تمنحه لأكثر من شخص في وقت واحد أو للغالب، في محاولة لضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض.

وانتهز الخليفة المسترشد ومن أتى بعده هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما للخلافة من سلطات مسلوبة، ويُعَدُّ عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) البداية الفعلية لانتعاش الخلافة، وكان ذلك نتيجة عجز السلطان مسعود حاكم العراق عن إخضاع أمراء الأطراف الذين ثاروا عليه، ما أعطى الخليفة المقتفي الفرصة للنهوض بالدولة، ولما توفي السلطان المذكور في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، فقدت الدولة السلجوقية في العراق ركناً كبيراً، فأصابها الوهن، وأخذت بالتداعي، وعمَّتها الاضطرابات، ما أدَّى إلى تقلُّص النفوذ السلجوقي في العراق تدريجاً.

وحاول خلفاء السلطان محمد الثاني بن السلطان محمود في عام (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) إعادة نفوذهم السابق في العراق، لكنهم جوبهوا بمعارضة الخلفاء القوية، وقد عبَّر المؤرخ السلجوقي البنداري عن هذا الموقف بقوله: «ووقفت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يُقدم ملك إليها ولا سلطان عليها»[1].

استمر الخلفاء في النضال للتحرر من الضغط السلجوقي حتى تحقَّق لهم الاستقلال التام عن السلاجقة في عهد الخليفة الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥م) الذي كان له جيشه وحاشيته الخاصة.

زالت دولة السلاجقة العظام في فارس وخراسان في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) بوفاة السلطان سنجر، وكان قد هُزم أمام الأتراك الغز في عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٧م) ووقع أسيراً في أيديهم، لكن نجح أنصاره في تحريره، وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان، فاتخذها عاصمة له إلا أنه توفي كمداً على ما وصلت إليه بلاده من التدهور والتخريب بفعل ثورة الغز.

(١) تاريخ دولة آل سلجوق، م.س: ص٢٦٨.

الدولة الخوارزمية

ظلَّت خوارزم في بلاد ما وراء النهر بعيدة عن منأى الحروب بفعل الصحاري التي أحاطت بها، فلجأ إليها من نجا من الحروب من أهالي المدن والمزارعين، وما حدث في آسيا الوسطى من اضطرابات بفعل تحركات المغول التوسعية امتدت آثارها إلى غربي آسيا، ومن هذه التأثيرات ما أدّى إلى القضاء على القراخطائيين[1]، وبروز قوة الخوارزميين.

ينتسب الخوارزميون إلى أنوشتكين، أحد الأتراك في بلاط السلطان ملكشاه حيث كان يشغل وظيفة ساقي، واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعيَّنه أحد قادة السلطان بركياروق حاكماً على إقليم خوارزم، ولقَّبه خوارزمشاه وهو مؤسس الدولة الخوارزمية[2].

بدأت قوة الخوارزميين تظهر منذ عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) في عهد أتسز ابن محمد الذي كانت له جولات عسكرية مع السلطان السلجوقي سنجر، فاستولى على مرور ونيسابور، وبعد أن توسَّعت الدولة على حساب السلاجقة العظام في إيران، قضت على دولتهم بعد وفاة السلطان سنجر.

خلف علاء الدين تكش بن أرسلان شاه أباه في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، وبدأت الدولة الخوارزمية في عهده تبرز تدريجاً على المسرح السياسي، فاستعان به الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥م) للقضاء على سلاجقة العراق، وكانت فرصة استغلها الزعيم الخوارزمي لمدِّ نفوذه نحو الغرب وتكوين دولة ذات كيان سياسي، وفعلاً التقى تكش بالسلطان السلجوقي طغرل الثالث بالقرب من الرَّي في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) وانتصر عليه، وقُتل طغرل الثالث في المعركة، وبذلك حلَّت الدولة الخوارزمية محل الدولة السلجوقية في العراق.

(١) القرا خطاي: هم خليط من المغول والتانغوت، تقع منازلهم في أقصى الشرق في شمالي الصين، وجنوبي منشوريا، واستولوا في بداية القرن العاشر الميلادي على شمالي الصين ومنشوريا ومنغوليا.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٤١٠ ـ ٤١١.

وأخذت الدولة الخوارزمية تتسع شيئاً فشيئاً على حساب الأقاليم المجاورة حتى بلغت أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي خلف أباه تكش في عام (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)[١].

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص١٧٠ ـ ١٧١.

عهد جلال الدين حسن[١]

خلف جلال الدين حسن والده محمد الثاني، وأبدى منذ صباه عدم رضاه عن نظريات وممارسات القيامة، كما أبدى رغبة في قبول الأخوَّة الإسلامية بمعناها الواسع، وقد عيَّنه والده خليفة له، ولما شبَّ ظهرت عليه علامات النجابة، فرفض عقائد أبيه، واستاء من عادات الكفر والانحلال، وأدى هذا الرفض إلى وقوع العداء بينهما، وكره كل واحد منهما الآخر، وبدافع من عقائده السلفية أو بكراهيته لوالده؛ تآمر عليه، وأرسل الرسائل سراً إلى الخليفة العباسي في بغداد وسلاطين وحكام البلاد الإسلامية يبلغهم بأنه على العكس من والده، يؤمن بالإسلام، وأنه سيلغي الكفر عندما يعتلي الحكم، وفعلاً تبرَّأ من مذهب أبيه وجدِّه عندما اعتلى الحكم في ألموت، ووبَّخ شعبه وحزبه على شدَّة إلحادهم، وحظَّر عليهم مواصلة ما هم فيه، وحثَّهم على تطبيق قواعد الدين، واتِّباع الشريعة، وأرسل مبعوثين إلى الخليفة الناصر في بغداد، وإلى محمد خوارزمشاه، والملوك والأمراء في العراق يبلغهم بهذه التغييرات والعودة إلى الشريعة، ولما كان قد مهَّد الطريق قبل أن يتولى الحكم لذلك صدَّقوه، وعومل أثناء زيارته إلى بغداد وإقامته فيها مدة من الوقت، بكل تقدير واحترام، وأضحى يُعرف باسم جلال الدين المسلم الجديد، كما أضحى أتباعه يُعرفون في عهده باسم المسلمين الجدد، والواضح أن مردَّ هذا التحوُّل يعود إلى تعلُّقه الشديد بوالدته السنِّيَّة المذهب.

وأبدى أهل قزوين شيئاً من الشك في حقيقة هذا التحول، فجهد جلال الدين حسن في إقناعهم بصدق نواياه، فدعاهم لزيارة ألموت، وأحرق كتب ومؤلفات أبائه وأجداده أمامهم، وأعلن في خطابه أمامهم اعتناق الإسلام،

(١) انظر فيما يتعلق بسيرته: الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٤٣ ـ ٢٤٨.

وقبوله فرائض الشريعة وبراءته من كفر آبائه وأجداده ومعتقداتهم.

وقامت والدة جلال الدين حسن بالحج في عام (٦٠٩هـ/١٢١٣م)، فعوملت معاملة جيدة في الحجاز وفي بغداد، على الرغم من اقتران زيارتها لمكة باغتيال ابن عم شريف مكة، ولما كان الشريف يشبه ابن عمه المقتول، فقد اقتنع الشريف بأنه هو الذي كان مقصوداً، وأن القاتل فدائي إسماعيلي أرسله الخليفة لهذا الغرض.

ومضى جلال الدين حسن للعمل على توطيد أواصر الصداقة بينه وبين أمراء المسلمين الذين يجاورونه، فمتَّن علاقته مع حاكم أرَّان[1]، ومع حاكم أذربيجان واشتركا سوياً في قتال عدوهما المشترك حاكم غربي إيران، وشجَّعه انفتاحه على العالم الإسلامي أن يطلب أيدي بنات أمراء جيلان للزواج، فتردَّد هؤلاء وعلَّقوا موافقتهم على موافقة الخليفة، وفعلاً وافق الخليفة على مشروع الزواج، وحصل جلال الدين حسن على أربع أميرات جيلانيات، زوجات له، لإحداهن حق إنجاب الإمام الذي سيخلفه، وأقام المساجد والحمّامات في القرى التابعة له، ليستكمل تحويل أرضه من بؤرة للقتلة والفساد، إلى مملكة محترمة تربطها روابط التحالف والمصاهرة بجيرانها، ونستدل من هذه التوجيهات الدينية والعسكرية والزواجية، على قوة شخصية جلال الدين حسن، وجرأته، وسيطرته المطلقة على السلطة.

لكن جلال الدين حسن بدَّل خلال حياته السياسية بعض تحالفاته، شأنه في ذلك شأن أقرانه من الأمراء المسلمين، متأثراً بالظروف السياسية والعسكرية، فقد خطب في بادئ الأمر لخوارزمشاه ودعا له على المنابر في مساجد رودبار، ثم أوقف ذلك ودعا إلى الخليفة العباسي، وسارع إلى الاعتراف بقوة جديدة خرجت من الشرق، ألا وهي القوة المغولية، فعندما علم بخروج جنكيزخان من منغوليا إلى ديار الإسلام، أرسل سراً مبعوثين يحملون رسائل الخضوع والولاء له، معبِّراً بذلك عن بُعد نظر وتعقُّل؛ لأن المغول كما سنرى سيبيدون معارضيهم ويدوسونهم بالأقدام.

---

(١) أرَّان: من أصقاع أرمينيا، وتشمل مدناً كثيرة، منها كنجة (جنزة) وبرذعة دوشمكور وبيلقان، وبين أذربيجان وأرَّان نهر يقال له الرس. الحموي، م.س: جـ١ ص١٣٦.

حكم جلال الدين حسن مدة عشر سنوات، وتوفي في (١٥ رمضان ٦١٨هـ/٣ تشرين الثاني ١٢٢١م) بسبب مرض الإسهال، وقامت الشبهات بأن زوجاته قد سمَّمنه بالاتفاق مع أخته وبعض أقربائه، لذلك أقدم وزيره والوصي على ابنه علاء الدين على قتل عدد كبير من أقربائه، ومنهم أخته وزوجاته، أخذاً بهذه الشبهة.

المغول

أصلهم وظهورهم على المسرح السياسي

لما كان للمغول علاقة مباشرة بتاريخ هذه المرحلة لا بدَّ من الإلمام بأصلهم وزحفهم على الأراضي الإسلامية، واكتساحهم المدن والقرى بوحشية لم يشهد التاريخ مثيلاً لها من قبل.

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحَّل نشأت في هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وهي أراضٍ واسعة تنعدم المياه في بعض جهاتها، وعاشت هذه القبائل على روافد نهر عامور، وشغلت الأراضي الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب، وجبال كنجان في الشرق على حدود منشوريا[1].

كانت هذه القبائل في حالة حرب دائمة مع جيرانهم التتار النازلين إلى الشرق منهم، والمعروف أن كابل خان جد يسوكاي نظَّم هذه القبائل في حلف مفكَّك، غير أن مملكته تداعت بعد وفاته، فاستطاع امبراطور الصين الشمالية ألتان خان أن يوطِّد سيادته على كل المنطقة[2].

لم يرث يسوكاي إلا شطراً صغيراً من الحلف القديم، غير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته نتيجة ما أنزله من هزيمة ببعض قبائل التتار، بالإضافة إلى تدخُّله في أمور خان الكرايت[3] طغرل، ما أدى إلى قيام تحالف بين الطرفين على أن يكونا يداً واحدة[4]، غير أنه توفي قبل أن يستقر خاناً أعظم

(١) الجويني، م.س: جـ١ ص١٤ ـ ١٥.

(٢) العريني، السيد الباز: **المغول**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م: ص٤١.

(٣) الكرايت إحدى العشائر المغولية.

(٤) غروسيه، رينيه: **جنكيزخان قاهر العالم**، تعريب خالد أسعد عيسىٰ، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٠م: ص٣٥ ـ ٣٦، ٤٢ ـ ٤٣.

للمغول، إذ دسَّ له بعض التتار السمَّ، ولم يتجاوز ابنه تيموجين التاسعة من عمره، وذلك في عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)، غير أن ما اشتهرت به زوجة يسوكاي من الحيوية، حفظ لابنها الخان الصغير تيموجين قدراً من السيطرة على قبائل أبيه، والواقع أن طفولته كانت عاصفة، بسبب تعرُّضه وإخوته وأمه لغارات قبال التانغوت الذين حرصوا على إذلالهم[1].

ونبغ تيموجين وهو في السابعة عشرة من عمره، وبدأ نجمه يلمع، إذ استطاع بذكائه وحنكته أن يستقطب كبار رجال المغول من أتباع أبيه، وأقنع أفراد عشيرته في الانضواء تحت لوائه، وعزم على إخضاع القبائل المنتشرة في صحراء جوبي، ثم تربَّع على عرش المغول بعد أن اختارته القبائل المغولية امبراطوراً عليها، وبعد أن تمَّ له ذلك اتخذ اسم جنكيزخان؛ أي: فاتح أو قاهر العالم، واتخذ مدينة قراقورم عاصمة لملكه[2].

وضع جنكيزخان نصب عينيه هدفين: التوسع في الجنوب على حساب الصين الشمالية، ومطاردة أعدائه الفارّين باتجاه غربي منغولياً والصين، وأهم هؤلاء قبائل القراخطاي الذين استولوا على الأقاليم الممتدة من بلاد الأويغور إلى بحر آرال، فهزم واي وانغ امبراطور الصين واستولى على عاصمته بكين في عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، ثم كرَّ على أعدائه في الغرب، فقهر كشلو خان زعيم الخطا، وكانت أملاكه تقع في إقليم ما وراء النهر على حدود البلاد الإسلامية، واستولى جنكيزخان على بلاده، فأضحت مملكته الواسعة تجاور أملاك الدولة الخوارزمية.

ظروف توسُّع المغول باتجاه العالم الإسلامي

عقد جنكيزخان معاهدة تجارية مع الخوارزميين، وأرسل قافلة تجارية إلى غربي آسيا للتجارة في الأسواق الخوارزمية، وعندما وصلت إلى مدينة

(١) غروسيه، م.س: ص٨٦.

(٢) إن كلمة جنكيز مشتقة من اللفظة الصينية ـ المغولية، تشنغ، ومعناها: القوي، وهي مكوَّنة من مقطعين: الأول، جنك: بمعنى قوي، والثاني، جيز: بمعنى جبار، فيكون معنى اللفظة الإجمالي الشديد القوي أو الجبار.

أوترار[1] أجهز عليها أينال خان حاكم المدينة، وقتل جميع أفرادها، وسلب البضاعة[2].

لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن هذه الإثارة، وبخاصة بعد أن رفض السلطان الخوارزمي طلباً له بتسليمه حاكم أوترار، فجهَّز جيشاً جراراً هاجم الأراضي الخوارزمية، فسيطر على إقليم ما وراء النهر في عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وسقطت العاصمة الخوارزمية في يده[3].

وتوفي السلطان علاء الدين الخوارزمي في إحدى جزر بحر قزوين في العام التالي فارّاً من وجه المغول الذين استولوا على خراسان[4]، في عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)، وغادر جنكيزخان الأقاليم الغربية بعد أن ثبَّت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي.

عودة المغول إلى الغرب

توفي جنكيزخان في عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) فاضطربت أوضاع امبراطوريته حتى انتُخب ابنه أوكتاي خاناً أعظم في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[5]، فأخذ على عاتقه إتمام ما بدأه والده في التوسع نحو الغرب لإخضاع ما تبقَّى من العالم الإسلامي.

وتقدم المغول إلى أذربيجان، واستولوا على مراغة وتبريز عاصمة الإقليم، ثم أجهزوا على المدن الواحدة تلو الأخرى، فأضافوا بذلك كل شمالي فارس وأذربيجان إلى أملاكهم، ثم أغاروا على بلاد الكرج بقيادة أحد قادتهم ويُدعى جرماغون، فاستولوا على الشطر الشرقي من البلاد[6].

---

(١) أوترار: تقع على الساحل الغربي لنهر سيحون، وتُعدُّ نقطة التقاء الطرق التجارية بين شرق آسيا وغربها.

(٢) النسوي، محمد بن أحمد بن علي: **سيرة جلال الدين منكبرتي**، تح: حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م: ص٨٦.

(٣) الجويني، م.س: جـ١ ص٦٣ ـ ٦٦.

(٤) النسوي، م.س: ص٢٣.

(٥) الجويني، م.س: جـ١ ص١٤١ ـ ١٤٢، ٣ ـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٢٤ ـ ٢٢٦. ابن الأثير، م.س: جـ١٠ ص٤٤٥ ـ ٤٤٧.

وظهر المغول في دياربكر[1]، ودخلوا إربل في شمالي العراق وخرَّبوها، وما حدث من ظهورهم في أعالي الفرات، أثار الذعر والخوف في بلاد الشام، وصار من المتوقع إقدامهم على غزو العراق وإقليم الجزيرة الفراتية، وآسيا الصغرى، تمهيداً للزحف نحو بلاد الشام ومصر[2].

---

(١) دياربكر: بلاد كبيرة واسعة تُنسب إلى بكر بن وائل، حدُّها ما غرَّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه إلى حصن كيفا وآمد وميافارقين، وقد يتجاوز دجلة إلى سِعِرت وحيزان وحيني وما تخلَّل ذلك من البلاد، ولا يتجاوز السهل. الحموي، م.س: جـ٢ ص٤٩٤.

(٢) ابن الأثير، م.س: جـ١٠ ص٤٤٨ ـ ٤٥٢.

عهد علاء الدين محمد

خلف علاء الدين محمد أباه جلال الدين حسن وكان في العاشرة من عمره، فتولّى الوزير جلال الدين الوصاية عليه، وكان الحاكم الفعلي لألموت مدة من الزمن، كما شاركت النساء في إدارة شؤون الدولة، حافظ الوزير على سياسة الوفاق مع العالم الإسلامي السنّي، لكن بدأت تتجمع في الأفق الديني رياح ردِّ الفعل، فلم يعد احترام الشريعة يُفرض بالقوة داخل الممتلكات الإسماعيلية، وقد عزىٰ الجويني هذه التغيرات إلى علاء الدين محمد «وقد كان علاء الدين طفلاً، ولم يحظَ بالتربية الكاملة بعد، ولم يتلقَ تعاليم المذهب... وإمامهم هو طفلاً كان أو شاباً أو شيخاً، وما يقوله أو يفعله... كان حقاً، واتِّباعه والامتثال بأمره شرع هذه الفئة... ولا مردَّ ولا إنكار لذلك، كما لا يجوز تأديبه ونصيحته وإرشاده، ولا شك أن تدبير أمور الدين والدنيا الذي كانوا قد التزموا به، قد أعرضوا عنه، كما أعرضوا عن أمور الملك، والطفل الجاهل الذي يتكفل أمور دينهم ودنياهم، ويرعى مصالحهم... أما تدبير الأمور فكان بيد النساء حتى انهدَّ ما قد بناه أبوه، وارتدت تدابيره، وبطلت إصاباته، وهؤلاء الذين كانوا خوفاً من أبيه يظهرون احترام الشريعة والإسلام ولكنهم يضمرون في قلوبهم الغافية وأذهانهم المظلمة الإيمان بالعقيدة المأفوفة التي جاء بها جدُّه... هؤلاء وقد رأوا الآن أن أحداً لا يمنعهم ولا يحول دونهم وارتكاب الخطايا الممنوعة.. عادوا مرة أخرى إلى إلحادهم، واستعادوا قوّتهم، أما الآخرون الذين قبلوا الإسلام عن اقتناع، فقد خافوا وعادوا إلى إخفاء حقيقة أنهم مسلمون»[1].

وبعد أن حكم هذا الطفل خمس أو ست سنوات أصابته لوثة عقلية نتيجة

(١) تاريخ جهان گشاي، م.س: جـ٣ ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

فصده من غير مرض أو مشاورة طبيب، فنزف دماً كثيراً أثَّر سلباً على تفكيره، فأخفيت عنه كل شؤون مملكته في الداخل والخارج، ولم يجرؤ أحد على التصريح بضرورة معالجته، ولا أن ينطق بكلمة أمامه، فدبَّت الفوضى في المملكة، وتفشَّت عمليات الاغتصاب والسرقة وقطع الطرق والاعتداء على الجيران، أحياناً بعلمه، وأحياناً بغير علمه، وعندما تجاوزت هذه الأعمال الحدود خسر حياته وأسرته ومملكته وثروته بسبب هذا الخبل والجنون[1].

لكن على الرغم من كل تلك المتاعب، وُجد في مجتمع الحشيشية رجال قادرون على تسيير شؤون الحركة، ويُعدُّ عهد علاء الدين محمود مرحلة نشاط فكري وسياسي على السواء، وكانت مكتبة ألموت مشهورة آنذاك وعامرة بالكتب، فاجتذبت عدداً من الدارسين القادمين من الخارج، أبرزهم الفيلسوف والفقيه والفلكي نصير الدين الطوسي الذي أمضى عدداً من السنين في ألموت ينهل من ذخائر مكتبتها.

وكان الوضع في إيران خلال السنوات الأولى من حكم علاء الدين محمد مناسباً لمزيد من التوسع، فقد قضى جنكيزخان على الدولة الخوارزمية، فنهض السلطان جلال الدين آخر سلاطين خوارزم لترميمها، لكنه فشل، ما أتاح الفرصة للحشيشية للتوسع، فاحتلوا مدينة دامغان الواقعة قرب قلعة كردكوه، وحاولوا الاستيلاء على الرَّي، وجاء ردُّ الفعل الخوارزمي سريعاً، ففي عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) ارتكب الخوارزميون مذبحة ضد دعاة الإسماعيلية الحشيشية في المدينة، وفي عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)، قتل هؤلاء أميراً خوارزمياً هو أورخان حاكم كنجة، انتقاماً لغارات شنَّها الخوارزميون ضد قهستان، فقد هاجمه ثلاثة فدائيين وقتلوه خارج المدينة، ثم دخلوها وهم شاهروا خناجرهم في أيديهم ويهتفون باسم علاء الدين محمد حتى وصلوا إلى بوابة الوزير شرف الملك يريدون قتله، ودخلوا مبنى الإدارة ولكنهم لم يجدوه، فأخذت العامة تقذفهم بالحجارة من أسطح المنازل حتى قتلوهم.

واشتدَّ مقتل حاكم كنجة على السلطان جلال الدين الخوارزمي، فقرَّر الانتقام لمقتله، فسار بعساكره إلى بلاد الحشيشية من حدود ألموت إلى

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٥٧.

كردكوه بخراسان، فخرَّبها، وقتل كثيراً من أهلها، ونهب الأموال، وسبى النساء، واسترقَّ الأولاد، وقتل الرجال، وأرغمهم على دفع جزية عن مدينة دامغان[1]، وتوقفت العمليات العسكرية مؤقتاً ثم استؤنفت متقطعة، في الوقت الذي أقام فيه الحشاشون علاقات سياسية مع العدوين الرئيسين للخوارزميين، وهما الخليفة العباسي في الغرب والمغول في الشرق.

ودخل الحشاشون في نزاعات مع جيرانهم حكام جيلان، وقد ساءت العلاقات بينهما إثر أحكام الإعدام التي نُفِّذت في الأميرات الجيلانيات بعد وفاة جلال الدين حسن، واستطاع الحشاشون إضافة بعض الأراضي حول تارم بين قزوين وجيلان ولكن لبعض الوقت.

وإلى جانب الحروب والاغتيالات، لم يتوقف الحشاشون عن تحقيق هدفهم الأساس، وهو نشر عقيدتهم واستقطاب مزيد من الأتباع، وقد حقَّقوا نجاحاً ملفتاً في الهند، والمعروف أن الحركة الإسماعيلية المستعلية كانت منتشرة في بعض ربوع الهند وبخاصة على شواطئ كجرات، فأرسل الحشاشون بعثة من الدعاة استقطبت أنصار الحركة المذكورة.

ودخل علاء الدين محمد في سنواته الأخيرة، في صراع مع ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه، وكان قد عيَّنه وهو صغير ولياً لعهده، وقد حاول فيما بعد أن يلغي هذا التعيين، ويُعيّن أحد أبنائه الآخرين، لكن أتباعه رفضوا ذلك وتمسَّكوا بتطبيق أصول المذهب.

وتفجَّر الصراع بين الأب والابن في عام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، فقد ازداد سخط الأب على ابنه، وشعر ركن الدين خورشاه أن حياته مُهدَّدة، فخشي على نفسه، وقرَّر أن يهرب إلى بلاد الشام ليحتمي بقلاع الحشاشين فيها، ويحكمها بنفسه، أو أن يستقل بألموت وميمون دز وبعض قلاع رودبار، لكنه لم يفعل، والواقع أن لذلك علاقة:

ـ بحالة الجفاء والتباعد بين والده وبين أركان دولته، فاستغل ذلك واستقطب هؤلاء، والمعروف أنه ازداد خوف أعيان المملكة، وأركان الدولة من تصرفات علاء الدين محمد اللامسؤولة، فلم يأمنوا على حياتهم.

---

(١) ابن الأثير، م.س: جـ١٠ ص٤٢٣ ـ ٤٢٤.

ـ بالخطر المغولي وعدم اكتراث والده بهذا الخطر.

لكن حدث أن مرض ركن الدين خورشاه، ولزم الفراش، وعجز عن الحركة، واغتيل والده في غضون ذلك، في (آخر شوال ٦٥٣هـ/ أول كانون الأول ١٢٥٥م) في شيركوه غربي ألموت، أثناء نومه مخموراً، واتضح بعد ذلك أن الشخص الذي قتله هو حسن المازندراني أحد المقرَّبين من علاء الدين محمد وكاتم سرِّه، ويبدو أن زوجة هذا الرجل كانت عشيقته، ولم يُخفِ عنها حسن سرَّ قتله له، وهي التي كشفت السرِّ لركن الدين خورشاه، فأُعدم حسن بعد أسبوع مع أولاده الثلاثة[1].

---

(١) الجويني، م.س: ص٢٥٢ ـ ٢٥٩.

عهد ركن الدين خورشاه

علاقة الحشاشين بالمغول

خلف ركن الدين خورشاه أباه علاء الدين محمد بعد مقتله. كان أول عمل قام به هو أنه أرسل الجيش الذي كان والده قد أعدَّه للاستيلاء على قلعة شاه رود من ناحية خلخال[1]، وأمر قادته بالاستيلاء على القلعة ونهبها، وقتل أهلها، ثم أرسل مبعوثين إلى جيلان والمناطق المجاورة يعلمهم بوفاة والده، ويعرض عليهم علاقته الوطيدة، كما أرسل آخرين إلى جميع أطراف مملكته يأمرهم بالسير على الدين الإسلامي، وهو الطريق السليم[2].

ويبدو أن زعيم الحشاشين أراد كسب صداقة الأمراء المسلمين المجاورين لبلاده كي يتفرَّغ لمعالجة قضية الزحف المغولي باتجاه الغرب، والمعروف أن المغول استأنفوا زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا ضمن سياسة توسعية، وقد حقَّقوا ما وضعه خاناتهم جنكيزخان وأوكتاي وكيوك من توسُّع على الأرض، حتى إذا توفي الأخير انتُخب منكو خاناً أعظم للمغول في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م).

وقرَّر منكو في العام التالي استئناف التوسع باتجاه غربي آسيا والصين الجنوبية من واقع تنفيذ سياسة المغول العامة التي وضع أُسسها جنكيزخان، ففي اجتماع القوريلتاي، وهو مجمع أمراء المغول من أهل الحل والعقد، في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) عيَّن منكو أخاه هولاكو حاكماً على فارس، وكلَّفه بالقضاء على فرقة الحشاشين في خراسان وإيران؛ والخلافة العباسية في بغداد، فضلاً عن الاستيلاء على بلاد الشام ومصر.

(١) خلخال: مدينة وكورة في طرف أذربيجان متاخمة لجيلان في وسط البلاد، بينها وبين قزوين سبعة أيام. الحموي، م.س: جـ٢ ص٣٨١.

(٢) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠.

والواقع أن العلاقة بين المغول والحشاشين كانت عدائية بفعل عوامل عدة، لعل أهمها:

ـ أدرك منكو أن فرقة الحشاشين ستشكِّل عقبة أمام الزحف المغولي باتجاه بغداد، وقد تحول دون تحقيق أطماع المغول في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي في آسيا، وإقامة حكومة مركزية فيها وفقاً للتخطيط المغولي.

ـ محاولة الحشاشين التحالف مع أوروبا لمواجهة الزحف المغولي، ففي عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) أرسل علاء الدين محمد بعثة إلى أوروبا، زارت فرنسا وانكلترا، واجتمعت بملكيهما لويس التاسع وهنري الثاني، وحثَّتهما على التعاون للتصدي للمغول الذين يُشكِّلون خطراً على الطرفين، ولكنهم لم يَلقوا أي تعاطف مع قضيتهم، وقد نصح أسقف مدينة ونشستر الملك الإنكليزي بعدم التدخل فيما ينشب من قتال بين المسلمين والمغول، لما سوف يترتب عليه من القضاء على الجانبين، وفي ذلك انتصار للنصرانية[1].

ـ محاولة الحشاشين تكتيل الملوك والأمراء المسلمين، وتشكيل حلف مع جميع الإمارات الإسلامية المجاورة لهم المعرَّضة للخطر المغولي، حتى تلك التي تناصبهم العداء، وذلك للتصدي للزحف المغولي الذي يتهدَّدهم جميعاً، ولكنهم لم يلقوا تجاوباً.

ـ تشجيع المسلمين من أهل السُّنَّة الذين كانوا تحت حكم المغول، وبخاصة سكان قزوين، هؤلاء للقضاء على هذه الفرقة التي كانت تُلحق بهم الأذى والضرر من واقع العداء المستحكم بين السُّنَّة والشيعة آنذاك، وأشاروا إلى أن أفراد هذه الفرقة يخالفون في عقيدتهم ديانات المسلمين والنصارى والمغول[2]، وقد كشف قاضي قزوين أمام هولاكو عن قميص من الزرد، وشرح له كيف أنه يرتديه طول الوقت تحت ملابسه توقياً لخطر الاغتيال الماثل دائماً.

(١) Mathew of Paris: Chronica Lmajora. Trans by Johne Gayles, pp.131 - 132.

(٢) ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص٢٥ ـ ٢٦.

وهذا ما يفسِّر لنا المعاملة السيئة التي لقيها رسُل الحشاشين الذين أُوفدوا إلى العاصمة المغولية قراقورم بمناسبة انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول في عام (٦٤٤هـ/١٢٤٦م).

كان الحشاشون يتوقعون هجوماً مغولياً ضد معاقلهم منذ وصول المغول إلى خوارزم واستيلائهم على بلاد ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى، غير أنهم كانوا يمرّون في مرحلة ضعف، إضافة إلى أن قدرتهم على المواجهة تتمثل باغتيال الشخصيات البارزة لأعدائهم من واقع النظرة أن التخلُّص من الرأس يُضعف الجسد، لذلك عجزوا عن مواجهة المغول منفردين، ولمّا لم يجدوا مَن يساعدهم من جيرانهم، كانت نهايتهم وشيكة.

تجهُّز المغول للقضاء على الحشاشين

حرص منكو على إعداد الحملة الموجهة إلى الأقاليم الغربية إعداداً دقيقاً يكفل النصر لهولاكو، فقد أمدَّه بقوّات كثيرة ذات خبرة في الحروب، وضمَّ إليها ألف مجموعة صينية من أولئك الذين برعوا في استخدام أدوات القتال، مثل المنجنيق، وقاذفات النفط، ورمي السهام، وأرسل إلى كل فروع أسرة جنكيزخان بتقديم خُمْس رجالها المقاتلين.

والواقع أنه تمثَّلت في هذه الحملة صورة التعاون الجماعي لأبناء أسرة جنكيزخان على الرغم من انتقال السلطة إلى أبناء تولوي.

واختار منكو اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيزخان لتكوين حرس خاص لهولاكو، واصطحب هذا الأخير معه زوجته المفضَّلة طقزخاتون بالإضافة إلى زوجتين أخريين، وولديه الكبيرين أباقا ويشموت[١].

وجرى إرسال جيش لتمهيد الطريق بقيادة كتبغا النسطوري، وهو أحد القادة المقرَّبين من هولاكو، فأصلح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس لتسهيل حركة الجيش وآلياته، وشيَّد الجسور على الأنهار ومجاري المياه السريعة، ووفَّر العربات اللازمة لنقل أدوات الحصار، كما جرى توفير المراعي لخيول

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٩٠ - ٩٧. الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: **جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، تاريخ هولاكو**، مجلد٢ جـ١ ص٢٣٤ - ٢٣٥.

العساكر عبر إجلاء الرعاة من البراري، وأعاد هذا القائد سلطة المغول على المدن الكبرى في هضبة إيران، كما استولى على بعض معاقل الحشيشية[١].

وبعد أن جهَّز منكو كل ما يلزم لهذه الحملة من الرجال والعتاد، رسم لأخيه هولاكو الخطة التي سوف يتَّبعها، والتي تقضي بالاستيلاء على الأراضي التي لم تدخل بعد تحت حكم المغول والممتدة حتى أقاصي مصر، وأن يُعامل من يطيع أوامره بلطف، ويقتل من يعصيه مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، على أن يبدأ بإقليم قهستان في خراسان، فإذا انتهى فعليه أن يتوجَّه إلى العراق، ويُخضع في طريقه اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها، وإذا قدَّم الخليفة العباسي فروض الطاعة فلا يتعرَّض له، أما إذا رفض فعليه أن يتخلَّص منه، وأوصاه أن يكون عقلانياً في تعامله مع الشعوب، على أن يتخلَّص من الذين يتصدُّون له، وأن يخفِّف التكاليف عن الرعية، وأن يُعيد تعمير الولايات الخربة[٢].

والملاحظ أن المغول حتى هذه المرحلة كانوا لا يقبلون حليفاً لهم، فالناس في نظرهم إما عبيد خاضعون لسلطانهم، مُنفِّذون لأوامرهم، أو أعداء يجب القضاء عليهم والتخلُّص منهم.

وكان منكو واثقاً أن هولاكو يستطيع بجيشه القوي أن يسيطر على تلك الأقاليم الغربية، وأن يُكوِّن منها مملكة خاصة به وبأبنائه من بعده، ولكنه مع ذلك فقد أوصى أخاه بأن يعود إلى مقرِّه الأصلي عندما يفرغ من تنفيذ مهمته.

الاستيلاء على قلاع الحشاشين

غادر هولاكو عاصمة المغول قراقورم على رأس جيشه في (جمادى الأولى ٦٥٠هـ/تموز ١٢٥٢م) متوجهاً إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية، فتقدم متمهلاً حتى وصل إلى سمرقند[٣] في (شعبان ٦٥٣هـ/أيلول ١٢٥٥م)، فقدَّم له أمراء الأطراف التسهيلات كافة لتموين الجيش ومروره على الطرقات، ثم عبر

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٩٣ - ٩٥. الهمذاني، م.س: ص٢٣٦ - ٢٣٧.
(٢) الهمذاني، المصدر نفسه: ص٢٤٠.
(٣) سمرقند: بلد معروف مشهور في بلاد ما وراء النهر، وهو قصبة الصغد. الحموي، م.س: جـ٣ ص٢٤٦.

نهر جيحون في (١ ذي الحجة ٦٥٣هـ/ ١ كانون الثاني ١٢٥٦م)، وتوجَّه إلى مراعي كانْ كُل، فاستقبله مسعود بك حاكم بلاد ما وراء النهر بالترحاب، فأمضى عنده قرابة أربعين يوماً قبل أن يرحل إلى مدينة كش الواقعة إلى الجنوب الغربي من سمرقند، فمكث فيها مدة شهر، استقبل خلالها وجوه أهل خراسان وأعيانها، فقدَّموا له الطاعة والهدايا، وكان على رأسهم أرغون حاكم إيران من قِبل المغول، ووجَّه منها رسائل عدة إلى ملوك وأمراء تلك النواحي طلب منهم المساهمة في حملته ضد الحشاشين، وحذَّرهم مغبة معصيته[1]، فهرع هؤلاء لتقديم الولاء والطاعة والترحيب، كان من بينهم شمس الدين كرت صاحب هراة[2]، وأبو بكر السلغري سعد بن زنكي أتابك فارس، والسلطانان السلجوقيان كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع في آسيا الصغرى[3].

والواقع أن هولاكو لم يصادف في إيران مقاومة تُذكر؛ لأن قسماً من خراسان كان تحت حكم المغول، بالإضافة إلى أن حكام النواحي كانوا في حالة ضعف، وفضَّلوا انتهاج سياسة المسالمة والخضوع للمغول.

ووفقاً للخطة التي وضعها منكو، كان على هولاكو أن يهاجم معاقل الحشاشين البالغة نحو خمسين قلعة منتشرة في قومس[4] وقهستان، أشهرها كردكوه وميمون دز وألموت، وكان القائد المغولي كتبغا قد استولى على بعض تلك القلاع.

وعندما تقدَّمت القوات المغولية نحو القلاع، انتاب ركن الدين خورشاه القلق، وأبدى استعداده للخضوع للمغول، وحاول في بادئ الأمر التقرُّب منهم كي يتجنَّب خطرهم، فوجَّه مبعوثاً إلى يسور نوين حاكم همذان المغولي يعلمه بانتقال السلطة إليه، وأبدى استعداده بتقديم الولاء والطاعة لهولاكو، ونصحه الحاكم المغولي الخروج بنفسه إلى الخان، لكن زعيم الحشيشية أرسل أخاه

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٩٧ ـ ٩٩. الهمذاني، م.س، م.س: ص٢٤٠.
(٢) هراة: مدينة مشهورة في خراسان. الحموي، م.س: جـ٥ ص٣٩٦.
(٣) Grousset: L'Empire de la steppes, p.427.
(٤) قومس: كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي في ذيل جبال طبرستان وقصبتها المشهورة دامغان. الحموي، م.س: جـ٤ ص٤١٤.

شاهنشاه، فذهب إلى يسور نوين الذي أرسله إلى هولاكو.

وتقدَّم يسور نوين في هذه الأثناء على رأس قوة عسكرية إلى وادي ألموت، فاستعدَّ ركن الدين خورشاه للتصدي له، وتمركز مع جنوده على قمة جبل سيالان الواقع في الجهة الشمالية لألموت، ويبدو أن القائد المغولي تهيَّب حصانة الموقع فتراجع بعد أن أتلف المزروعات، وخرَّب الولايات[1].

ووصلت في هذه الأثناء رسل هولاكو إلى ركن الدين خورشاه يحملون إليه المرسوم الملكي بقبول التبعية، والطلب بتدمير القلاع كافة والمثول بين يديه، فرفض ذلك، عندئذٍ قرَّر هولاكو مهاجمته[2].

الواقع أن المغول لا يمكنهم التساهل تجاه استمرار استقلال جماعة خطرة، وقد حذَّرهم بعض أعوانهم من المسلمين من الخطر الذي تمثِّله هذه الجماعة مثل قاضي قزوين.

وإذ استولى هولاكو على معظم القلاع الواحدة تلو الأخرى، فإن كردكوه وميمون دز وألموت استعصت عليه، فأرسل رسله مرة أخرى إلى علاء الدين خورشاه يُهدِّده ويُنذره بالاستسلام والمثول بين يديه، وإذ أدرك هذا أن لا سبيل إلى المقاومة، وأن اليأس تطرَّق إلى نفوس رجاله المحاصَرين؛ مال إلى الاستسلام، وأقنعه ثلاثة رجال من أصدقائه كانوا يقيمون في قلعة ميمون دز، وقد نفروا من أعماله السيئة، ومن ظلمه وعسفه؛ بالنزول على حكم هولاكو وعدم مقاومته؛ لأن في ذلك نجاته وخلاص أسرته، وهم الخواجة نصير الدين الطوسي، ورئيس الدولة وموفَّق الدولة[3].

وأبدى هولاكو تساهلاً معه عندما عرض عليه المحافظة على حياته مقابل الاستسلام، والتخلي عن المقاومة، فاستجاب ركن الدين خورشاه له، وأرسل الخواجة نصير الدين الطوسي إلى معسكر هولاكو في أستو مع جماعة من الوزراء والأعيان والأئمة، يحملون التحف والهدايا، فوصلوا إلى المعسكر يوم الجمعة (٢٧ شوال ٦٥٤هـ/ ٧ تشرين الثاني ١٢٥٦م)، وخرج ركن الدين

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٦٠ ـ ٢٦١. (٢) المصدر نفسه.
(٣) ميرخواند، محمد بن خاوندشاه بن محمد: **روضة الصفا**، جاب بنجم، تهران، ١٣٣٩هـ.ش (بالفارسية): جـ٥ ص٧٦.

خورشاه من قلعة ميمون دز يوم الأحد (١ ذو القعدة/ ٢٠ تشرين الثاني) وسلَّم نفسه لهولاكو مظهراً الخضوع والطاعة، ودخل المغول القلعة[١].

توجَّه هولاكو بعد ذلك إلى قلعة ألموت وحاصرها، وطلب من ركن الدين خورشاه إقناع المحاصَرين بالاستسلام لكن قائد الحامية رفض الانصياع لنصائحه، وأصرَّ على المقاومة، استمر الحصار مدة ثلاثة أيام، أرسل هولاكو بعدها منشوراً يؤمِّن الحامية والسكان على حياتهم إذا ما استسلموا، فاستجاب عندئذٍ قائد الحامية، ونزل منها وسلَّمها لهولاكو[٢].

ودخل المغول إلى القلعة، وحطَّموا ما فيها من الأسلحة والعتاد، واستولوا على الكنوز والأموال، وكان في ألموت مكتبة ضخمة تزخر بالمؤلفات عن الفلسفة والتنجيم، فعهد هولاكو إلى أمينه عطا ملك الجويني الذي كان يرافقه، بأن يطَّلع على محتوياتها، ويُبقي على ما يصلح منها، ويحرق ما يتعلق بعقائد الحشيشية، فاستطاع بذلك أن يُنقذ من الدمار، مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات رصد النجوم، بالإضافة إلى كتاب «سيرة سيدنا» الذي اشتمل على شرح لأوضاع الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده، وقد ضمَّن الجويني هذا الكتاب في مؤلَّفه «جهان كَشاي»، فحفظ لنا بذلك تاريخ هذه الطائفة من الضياع[٣].

وكتب ركن الدين خورشاه إلى محتشمي (متسلمي) قلاع الحشاشين في بلاد الشام يدعوهم إلى الاستسلام عندما تصل الرايات المغولية إليهم.

وعلى الرغم من هذه التنازلات التي قدَّمها ركن الدين خورشاه، فإن هولاكو لم يُطلق سراحه، بل أرسله إلى أخيه منكو ليُحدِّد مصيره بنفسه، والراجح أن منكو كان متفقاً مع أخيه هولاكو على التخلُّص من زعيم الحشيشية واجتثاث جذور هذه الطائفة، وحتى يظهر هولاكو بمظهر المحافظ على وعده بالإبقاء على حياته، فإنه أرسله إلى منكو كي يأتي قرار التخلُّص منه من جانبه.

---

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص١٠٦ ـ ١١٣.

(٢) المصدر نفسه ص١١٤ ـ ١٤٢ حيث تجد تفاصيل وافية.

(٣) المصدر نفسه: ص١٤٢ ـ ٢٦٨.

Brown, A: A Literary History of Prsia, II, pp.458 - 459.

ومهما يكن من أمر، فقد ثار منكو عندما علم بوصول ركن الدين خورشاه إلى قراقورم، فلم يستقبله، وقال للوفد المغولي الذي أحضره: «لماذا تُحضرونه وتُشقون بذلك عبثاً الدابَّة التي ركبها؟»، ومن ثَمَّ فقد أعاده من حيث أتى ليقنع محتشمي القلاع القليلة التي استعصت على المغول بالاستسلام، لكنه أرسل وراءه جماعة من لدنه قتلته في الطريق بين أبهر وقزوين، وتبع ذلك التخلص من أفراد أسرته وأقاربه جميعاً، الرجال والنساء والأطفال[١].

كان لانحدار الحشاشين صدى إيجابياً في العالم الإسلامي على الرغم مما كان يعانيه المسلمون على أيدي المغول، وما يتوقعونه منهم في المستقبل، ولعل مردَّ ذلك يعود إلى أن هذه الطائفة:

- قاومت في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، جهود السلاجقة في القضاء عليها.
- أرهبت الخلافة العباسية وأفزعت رجالها.
- كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي والتفرق في العالم الإسلامي.

فإذا كان هولاكو قد قضى على وجودها في خراسان وإيران، فإنه يكون بذلك قد قدَّم خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة[٢]، ولكن إلى حين، وقد أشار الجويني إلى ذلك عندما قال: «وكذلك كان هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين، وتداركاً للدين من الخلل، وإن الناس الذين سيأتون بعدنا سيدركون مدى ما بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم من أذى هذه الجماعة، ومدى ما كانوا يبثّون من الفوضى والرعب منذ أول ظهورهم حتى آخرهم، وأن الشخص الذي كان على وفاق معهم، منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر، إنما كان مدفوعاً فقط، بدافع الخوف منهم، أما إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليلاً ونهاراً في ضيق خوفاً من أفعالهم، وهكذا انتهى أمرهم، ذلك ذكرى للذاكرين، وكذلك بفعل الله بالظالمين»[٣].

---

(١) الجويني، م.س: جـ٣ ص٢٧٥ ـ ٢٧٨.

(٢) Grousst: p.427.

(٣) تاريخ جهان گشاي، م.س: جـ٣ ص٣٧٨.

الفَصْلُ الثَّاني عَشَرْ

الحشاشون في بلاد الشام

الأوضاع السياسية في بلاد الشام

تمهيد

ثمَّة ظاهرة برزت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، هي أن المجتمع الإسلامي في بلاد الشام قبل تمدُّد الحشاشين كان يسوده جوٌّ من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني، فقد كانت تحكمه قوى مختلفة متناقضة ومتصارعة، وتوزَّعت مدنه بين حكام وأمراء يحذر كل منهم الآخر، وعندما استقرَّت حركة الحشاشين في إيران، وحقَّقت نجاحاً، تطلَّع الحسن ابن الصباح إلى مصر حيث الخلافة الفاطمية، وكان يطمع في إعادة الأمور إلى نصابها بعد الانقسام الداخلي الذي حصل واعتلاء المستعلي السلطة، وحرمان نزار منها، وهو الذي كان يؤيده، لكن كان من الصعب على أي جماعة شيعية مناوئة للمستعلي أن تنجح في مصر، لذلك تطلَّع الحسن إلى تأمين مكان قريب من مصر يستطيع منه أن يُرسل دعاته وفدائييه منه إلى هذا البلد، فكانت بلاد الشام المكان الأفضل بفضل طبيعتها الجغرافية بما فيها من جبال ووديان وصحاري وهضاب وعرة تتيح للحركة اتخاذ قواعد تمركز حصينة يصعب على المهاجمين اقتحامها، كما أن بعض سكانها ينتمون إلى فرق شيعية مختلفة؛ كالدروز والعلويين والنصيريين، كما يوجد فيها بعض الحشاشين، ثم إن طبيعة الانقسام والصراع بين تيارات متعددة يُهيِّئ للحركة العمل بحريَّة أكثر مما لو كانت هناك سلطة سياسية واحدة، فقد كان في تلك البلاد ثلاث قوى تتصارع فيما بينها، هي قوة السلاجقة في الداخل، وقوة الفاطميين في المناطق الموازية لشاطىء البحر، وقوة الصليبيين الذين قدموا حديثاً إلى ربوع المشرق الإسلامي واستطاعوا السيطرة

على أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس والرها وتحويلها إلى مناطق نصرانية.

الصراع السلجوقي - الفاطمي

ارتبطت قوة الفاطميين في بلاد الشام بتفوقهم العسكري، فإذا ما تراجعت نهض الأمراء المحليون ليعملوا على الاستقلال الذاتي، كما فعل بنو الجراح في فلسطين، وبنو مرداس في حلب، وقد حرص الفاطميون على إخضاع هؤلاء الأمراء وتوطيد نفوذهم في بلاد الشام، ولا شك بأن الاضطرابات التي شهدتها هذه البلاد نتيجة الصراع السياسي والعسكري على النفوذ، أتاح للسلاجقة الفرصة ليتطلَّعوا إلى ضمِّها ويقضوا على النفوذ الفاطمي فيها.

أخذت قوة السلاجقة تزداد منذ عهد السلطان طغرلبك الذي أسس دولة السلاجقة العظام في فارس وخراسان، ودخل العراق، وعمل على توثيق الروابط بين السلاجقة، وبين الخلافة العباسية، وبخاصة بعد إخماد حركة البساسيري الوالي للفاطميين، ثم وجَّه السلاجقة اهتمامهم إلى استعادة ما فقدته هذه الخلافة من أقاليم.

وانتهج السلطان ألب أرسلان الذي خلف عمه السلطان طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، الخط السلجوقي السياسي العام، وقد أثاره احتمال تقارب بين الفاطميين والبيزنطيين، فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بالاستيلاء على أرمينيا قبل أن يمضي إلى هدفه الأساس، وهو مهاجمة الفاطميين في مصر.

وبعد انتصاره على الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينس، أخذ يُجهِّز حملة عسكرية لطرد الفاطميين من بلاد الشام، وكانت الدولة الفاطمية آنذاك منهمكة بمشكلاتها الداخلية التي تركَّزت حول محاولات ناصر الدولة الحمداني السيطرة على السلطة في القاهرة، فلم تلتفت إلى ما كان يجري في بلاد الشام.

وإذ أدرك محمد بن نصر المرداسي صاحب حلب، ما طرأ من تغيير في موازين القوى في بلاد الشام، أقدم في (شوال ٤٦٢هـ/ تموز ١٠٧٠م) على التوقف عن الخطبة للمستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي القائم، واعترف بسلطة السلاجقة.

لم يمرَّ هذا التحوّل في الولاء من دون ردِّ فعل من جانب الشيعة في حلب،

فقاوموا جميع المحاولات التي بُذلت لإعادتهم إلى مذهب أهل السُّنَّة، وعندما أعلنت حلب ولاءها للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، بدأ نفوذ السلاجقة يزداد في بلاد الشام، ما أثار الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس، فنهض ليوقف التقدُّم السلجوقي.

من جهته استعدَّ ألب أرسلان لهذه المواجهة، فسار إلى حلب وأخضعها ليمنع أية محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب[1]، وعقب انتصاره على الامبراطور البيزنطي في معركة مانزيكرت انصرف لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر، حيث قضى نحبه في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، وكان قد ترك قسماً من جيشه بقيادة أيتكين السليماني وعهد إليه بالاستيلاء على دمشق والأجزاء الجنوبية من بلاد الشام بالتعاون مع محمود بن نصر.

وقاد الرجلان قواتهما باتجاه دمشق، وتوقَّفا في بعلبك ليخططا لحملتهما، وعلم محمود وهو فيها بأن عمَّه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين، فاضطر للعودة إلى إمارته للدفاع عنها[2].

وتسرَّبت في هذه الأثناء إلى جنوبي بلاد الشام، بعض القبائل الغزية التركمانية ممهدة الطريق أمام السلاجقة للاستيلاء على هذه المنطقة، وترافق مجيئهم مع رحيل بدر الجمالي حاكم عكا إلى القاهرة، وبرزت شخصية أتسز ابن أوق الخوارزمي كأحد أبرز القادة الأتراك في بلاد الشام، وهو من أتباع السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه، وقد جاء مع إخوته، فهاجموا دمشق في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) وضايقوا أهلها، وقطعوا الميرة عنهم، وعهد إليه السلطان ملكشاه الذي خلف أباه السلطان ألب أرسلان في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) بالاستيلاء على جنوبي بلاد الشام، ففتح الرملة وحاصر بيت المقدس واستولى عليها، وطرد الحامية الفاطمية منها واتخذها مركزاً له، وقطع الخطبة للمستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، كما استولى على طبرية، وأرسل إلى بغداد يُخبر بما حقَّقه[3]، واستولى أخوه شكلي على عكا.

---

(١) ابن القلانسي، م.س: ص١٦٧. ابن العديم، م.س: جـ١ ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٢) ابن العديم، المصدر نفسه: جـ١ ص٢٦٩.
(٣) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٢٢٦، ٢٤٤.

وانتزع أتسز دمشق من الفاطميين في (ذي القعدة ٤٦٨هـ/ حزيران ١٠٧٦م) وأقام الخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي، وتلقَّب بلقب «الملك العظيم»[1]، ثم تطلَّع نحو الشمال لضمِّ حلب، لكنه جوبه بمعارضة العشائر التركمانية المنتشرة في أعمالها، ثم علم بنيَّة السلطان ملكشاه إقطاع دمشق إلى أخيه تُتُش، فتراجع نحو الجنوب وقرَّر ضمَّ مصر، فقد خشي أن يهاجمه الفاطميون، ورأى قبل الزحف إليها أن يحمي مؤخرة جيشه بالاستيلاء على المدن الساحلية، وضمان عدم مساعدة حكامها لمصر أثناء مهاجمتها، لكن محاولته فشلت، إلا أنه أخذ من حكام طرابلس وصور عهداً بمنح الغز ميزات تجارية، كما فشلت حملته على مصر حيث تعرَّض للهزيمة أمام بدر الجمالي وعاد إلى دمشق[2].

أعلنت بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام، ومنها دمشق، على أثر ذلك، ولاءها من جديد للفاطميين، ما دفع بدر الجمالي للعمل على استعادة سلطان الفاطميين، فأرسل جيشاً بقيادة نصر الجيوشي، استولى على دمشق في عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) وعلى أعمال فلسطين، واضطر أتسز إلى التماس مساعدة تاج الدولة تُتُش ووعده بتسليمه دمشق، ويكون تابعاً له[3].

كان تاج الدولة تُتُش آنذاك يحاصر حلب لأن أخاه السلطان ملكشاه أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحي وعهد إليه بإخراج الفاطميين منها، ففكَّ الحصار عنها وسار قاصداً دمشق لنجدتها، ويبدو أن نصر الجيوشي وجد نفسه عاجزاً عن مواجهة الجيش السلجوقي، فخرج منها وقصد ناحية الساحل، ودخل تاج الدولة تُتُش دمشق فقبض على أتسز وقتله حتى لا ينافسه على الحكم[4].

وبذلك أضحى هذا القائد السلجوقي يُسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، ثم جهد للعمل على بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وإنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام.

---

(١) ابن القلانسي، م.س: ص١٧٤ ـ ١٧٦. (٢) المصدر نفسه: ص١٨١.
(٣) المصدر نفسه: ص١٨٢. ابن الأثير: جـ٨ ص٢٦٩.
(٤) المصدران نفساهما: ص١٨٢ ـ ١٨٣، ص٢٦٩.

وعلى الرغم من أن تاج الدولة تُتُش قد بسط سلطانه على معظم بلاد الشام، إلا أنه لم يعمل على توطيد نفوذه فيها، ما أتاح للفاطميين استعادة بعض مدن الساحل، ثم انهمك بالنزاعات الداخلية عقب وفاة السلطان ملكشاه في ظل الصراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفىٰ، وتجهَّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه.

واستمر الصراع على بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين حتى نشبت الحروب الصليبية، فتغيَّرت موازين القوى في المشرق الإسلامي.

قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام

• الحركة الصليبية

في الوقت الذي كانت الخلافات على أشدِّها بين الأمراء المسلمين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية، كانت الأخبار «تتوارد بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يُحصى عدده كثرة»[1]، وقد قلق الناس في بلاد الشام من هذه الأخبار وانزعجوا منها.

والواقع أن العالم الإسلامي الشرقي في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية، تعرَّض في عهد السلطان بركياروق لغزو صليبي لاتيني قادم من أوروبا الغربية، بهدف السيطرة على ربوعه، والاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين.

إن أحداث الحروب الصليبية التي سيطرت على تاريخ العصور الوسطى لا تهمُّنا في هذه الدراسة إلا في نطاق صلتها بالإسماعيليين الحشاشين، وإذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة الحركة الصليبية ودوافعها[2]، نستطيع أن نقول إنها في حقيقة أمرها استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ في كل عصر شكلاً معيَّناً يتلاءم مع مقتضيات الظروف وإن اتحد في الهدف والغاية.

كان الصراع في العصور القديمة سياسياً وعسكرياً في عالم يدين بالوثنية، حمل لواءه الفرس واليونان، في حين اتخذ الغرب الأوروبي في العصور

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٢١٨.

(٢) انظر كتابنا: تاريخ الحروب الصليبية، الفصلان الأول والثاني.

الوسطى الدين ستاراً لتحقيق الغايات نفسها، فاصطبغ الصراع بالصبغة الدينية.

وتُمثِّل الحركة الصليبية روح المجتمع الغربي والأفكار السائدة فيه من ناحيتين: الدين والحرب. نتج عن الدين ظاهرة الحج، ونتج عن الحرب ظاهرة الحرب المقدسة.

يُعدُّ الحج ظاهرة التوبة والاستغفار بما تهيَّأ للحاج أن يسعى إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، ازدادت اتساعاً وأهمية بتأثير الحركة الكلونية[1] التي دعت في القرن العاشر الميلادي إلى أسبقية كنيسة روما على سائر الكنائس الشرقية، وتجديد الدعوة البطرسية للسيادة البابوية العالمية، فارتفع شأن البابوية بفعل عدد من الباباوات الأقوياء أمثال غريغوري السابع (٤٦٥ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) وأوربان الثاني (٤٨٠ ـ ٤٩٢هـ/ ١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) حامل لواء الحركة الصليبية؛ الذين حضّوا على نبذ الحرب الداخلية بين أمراء الإقطاع، وتوجيهها ضد المسلمين لانتزاع الأراضي المقدسة في فلسطين منهم.

لكن الدوافع الأخرى، وهي متنوعة، بعيدة كل البعد عن الناحية الدينية، وجد فيها المجتمع الغربي متنفَّسه من الأزمات التي كان يمرُّ بها، فالباحث في تاريخ الحروب الصليبية يستطيع أن يلمس بوضوح أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في توجيهها وتحكُّمها في مصائرها، وأن الدين استُغلَّ استغلالاً واضحاً للدعاية لها، والعمل على إنجاحها تحقيقاً لأغراض أخرى لا تمتُّ إلى الدين بصلة.

لقد أدى العامل الاقتصادي دوراً مهماً في الحروب الصليبية، وكان حلّاً لكثير من المشكلات التي عانى منها المجتمع الغربي الذي شهد في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي أزمة اقتصادية حادة وبخاصة في فرنسا، وأدَّت كثرة الحروب الداخلية بين أمراء الإقطاع، إلى ازدياد سوء الأوضاع الاقتصادية، فتعطَّلت طرق التجارة، وانعدم الأمن، وازداد عبء الالتزامات الإقطاعية على الأقنان ورقيق الأرض، فأصابت آثار هذه الأزمة مختلف فئات

(١) نسبة إلى ديركلوني في حوض الرون الأعلى الذي أسسه وليم التقي، دوق أكويتانيا، في عام ٩١٠م.

الشعب، ونتيجة لذلك كانت الحروب الصليبية متنفساً لهؤلاء الجياع للهجرة، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة، ولا عجب أن ضمَّت الجموع الصليبية الأولى الغالبية العظمى من أقنان ورقيق الأرض، وعامة الشعب من الفقراء والمعدمين، وهدفهم التخلُّص من قيود الإقطاع والتزاماته.

وساهمت طائفتان في تلك الحروب، هما: المدن التجارية والجماعات الرهبانية المسلحة.

كان هدف المدن التجارية الإيطالية والفرنسية التي اشتركت في الحروب الصليبية، الكسب المادي الذي يعود عليها نتيجة السيطرة على الحركة التجارية مع الشرق، لذلك قامت أساطيلها بدور فعَّال في نقل الصليبيين إلى الشرق، والاستيلاء على المراكز التجارية الرئيسة في بلاد الشام، وساهمت في قيام الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة في فلسطين.

أما الجماعات الدينية المسلحة مثل: الداوية والأسبتارية والتيوتون، والتي كان من أولى مبادئها الفقر والطاعة والحرمان والتقشف والبُعد عن ملذّات الحياة؛ فقد تحوَّلت إلى جمعيات كسبية لها جيوشها ومتاجرها ومواردها المالية وسياساتها الخارجية الخاصة، فخرجت بذلك عن مبادئها الأساس، وهي حماية الحجاج وإغاثة الجرحى والمرضىٰ من الصليبيين في ساحات القتال.

وأدَّى العامل الاجتماعي دوراً في الحروب الصليبية، إذ المعروف أن المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى كان يُقسم إلى ثلاث طبقات هي: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من الفرسان والنبلاء، وطبقة الفلاحين، مثَّلت الطبقتان الأولى والثانية الهيئة الحاكمة والثرية، في حين مثَّلت الطبقة الثالثة جموع العاملين المحرومين من النفوذ والثروة، وكان على هذه الجموع أن تعمل في ظروف قاسية لتؤمِّن الحاجات المادية للطبقتين الأولى والثانية، وقد ارتبط أفرادها بالأرض التي يعملون فيها ارتباطاً وراثياً، وعاشوا حياة شاقة مليئة بالذلِّ، ومثقلة بالالتزامات للسيد الإقطاعي، فوجدوا في الحروب الصليبية الفرصة للخلاص مما كانوا يرزحون تحته من ذُلِّ العيش.

وكان للدافع السياسي دور بارز في الحروب الصليبية، فقد داعبت الآمال

الكبيرة بعض الحكام ورجال الإقطاع في توسيع رقعة أملاكهم، وتأسيس مستعمرات جديدة لهم في ربوع الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم، مع استثناء الملوك والأباطرة الذين خرجوا بإلحاح من البابوية، أو مدفوعين بعاطفة دينية، وكانت البابوية على رأس هذه الطوائف والجماعات للتخلص من مضايقات الملوك وأمراء الإقطاع، وفرض سيطرتها على الحكام الزمنيين، كما وجدت في الحروب الصليبية مجالاً لتحقيق حلمها القديم بفرض سلطانها الديني والدنيوي على العالم النصراني بشقَّيه الغربي والشرقي، والعمل على توحيد الكنيستين الغربية والشرقية إثر الانشقاق الديني الكبير الذي حدث في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م).

وهناك دافع سياسي آخر تمثَّل بطلب البيزنطيين المساعدة من الغرب الأوروبي لمواجهة التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى الذي بات يهدِّد العاصمة القسطنطينية.

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، توجهت أربع منها إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان إلى مصر هما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية هي الرابعة، ونزلت الثامنة في شمالي إفريقيا، وتخلَّلت الحملات النظامية حملات أخرى كان يقوم بها العامة.

الحملة الصليبية الأولى[1]

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني في كليرمونت في أواخر (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) بدأت استعدادات التنفيذ، فقام البابا المذكور بجولات دينية في بلدان أوروبا الغربية لتعبئة الرأي العام.

ضمَّت الحملة الصليبية الأولى نوعين من الصليبيين:

الأول: الحملة الشعبية، وتألفت من فقراء الرجال والنساء وقطّاع الطرق واللصوص والغوغاء الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون

(١) انظر: فيما يتعلق بالحملة الصليبية الأولى ونتائجها كتابنا: تاريخ الحروب الصليبية، الفصول: الثالث والرابع والخامس.

القتال، وانضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية، وكان أفراد هذه الحملة الشعبية تحت زعامة أشخاص عديدين، وعندما وصلوا إلى القسطنطينية، نقلهم الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين إلى آسيا الصغرى وهناك قضى عليهم السلاجقة بسهولة.

الثاني: تكوَّن من خمسة جيوش منظَّمة على كل منها أمير، فقد تولى بوهيموند وابن أخته تاتكريد قيادة القوات النورمانية، وكانت القوات البروڤنسالية تحت قيادة ريموند الرابع كونت تولوز، وكانت القوات الفرنسية تحت قيادة هيو كونت فرماندوا الابن الأصغر لملك فرنسا هنري الأول، وروبرت الثاني كونت فلاندر، وقاد غود فري دي بوايون دوق اللورين وأخوه بلدوين، قوات اللورين السفلي، وكان الجيش الخامس تحت قيادة كل من روبرت كونت نورمانديا، وهو الابن الأكبر للملك وليم الفاتح، والكونت ستيفن بلوا زوج أخته أديلا، وقد بلغ عدد أفراد هذه الحملة المنظمة حوالي ثلاثين ألفاً، وعندما وصل أفرادها إلى القسطنطينية نقلهم الامبراطور البيزنطي إلى آسيا الصغرى بعد محادثات مضنية، والواقع أن الامبراطور اشترط عليهم مقابل مساعدته لهم أن يُعطى كل الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة إذا كانت هذه الأراضي تابعة للامبراطورية من قبل.

نتائج الحملة الصليبية الأولى

• سقوط نيقية

وسرعان ما توجَّهت هذه الجموع الصليبية الممتلئة حماساً واندفاعاً صوب حدود سلطنة سلاجقة الروم[1]، وهدف قادتها الاستيلاء على عاصمتها نيقية التي تبعد عن القسطنطينية حوالي مئة ميل، وذلك نظراً لموقعها الجغرافي المتميز، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكَّل ذلك خطراً على خطوط

(١) سلطنة سلاجقة الروم (٤٧٠ ـ ٧٠٤هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٣٠٤) أسَّسها سليمان بن قُتْلُمُش ابن إسرائيل بن سلجوق في آسيا الصغرى (تركيا الحالية) وسميت بهذا الاسم؛ لأن البيزنطيين في العصور الوسطى الذين عرفهم العرب باسم الروم كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سُميت باسمهم، فظلَّت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم، ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون اسم سلاجقة الروم.

مواصلاتهم مع بلاد الشام، وقد توحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية.

وصلت القوات الصليبية إلى العاصمة السلجوقية في (٢١ جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ ٦ أيار ١٠٩٧م) وعسكرت حول أسوارها، وضربت الحصار عليها. كان السلطان قلج أرسلان الأول آنذاك خارج عاصمته، وعلى الرغم من ضخامة الحامية السلجوقية المرابطة داخل المدينة، فإنها احتاجت إلى إمدادات لم يتمكَّن السلطان من تأمينها.

استمر الحصار مدة خمسة أسابيع جرت خلالها مفاوضات سرِّيَّة بين الحامية والامبراطور البيزنطي لتسليمه المدينة مقابل الأمان، وقد فضَّل السكان هذا الحل؛ لأنَّهم خشوا عنف الصليبيين إذا وقعت المدينة في أيديهم، وتمَّت عملية التسليم في (١١ رجب/ ١٩ حزيران)، وقد أزعج ذلك القادة الصليبيين إلا أنهم قبلوا هذا الحل على مضض[1].

• تأسيس إمارة الرها[2]

استأنف الصليبيون زحفهم باتجاه بلاد الشام بعد استراحة أسبوع على سقوط نيقية، ونجحوا في اختراق آسيا الصغرى بعد اصطدامات ضارية مع السلاجقة في دوريليوم ووصلوا إلى كيليكية، وسيطروا عليها بمساعدة الأرمن، ثم واصلوا تقدمهم فبلغوا أنطاكية وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل عن الجيش الرئيس عند عينتاب بين حلب وأنطاكية، وتوجَّه نحو الشرق بناء على دعوة تلقَّاها من الأمير الأرميني ثوروس حاكم الرها لمساعدة المدينة ضد الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا حاكم الموصل القادم لنجدة أنطاكية.

استغل بلدوين هذه الفرصة بذكاء لتأسيس إمارة له في الرها حيث تبنّاه صاحبها وأشركه معه في الحكم، ولم تمضِ مدة طويلة حتى اغتال الأرمن ثوروس، فتزوج بلدوين من امرأته وتسلَّم الحكم، وذلك في (ربيع الآخر

(١) Comnena, Anna: The Alexiad, pp.268 - 270.

(٢) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما سبعة فراسخ. الحموي، م.س: جـ٣ ص١٠٦ ـ ١٠٧.

٤٩١هـ/ آذار ١٠٩٨م)[١]، وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي.

• تأسيس إمارة أنطاكية

وصل الصليبيون إلى أنطاكية في (ذي القعدة ٤٩٠هـ/ تشرين الأول ١٠٩٧م) وضربوا الحصار عليها، استمر الحصار مدة سبعة أشهر بدت خلالها معاناتهم واضحة، فقد تفشَّت المجاعة في معسكرهم، وقد نظَّم المسلمون داخل المدينة صفوفهم، وعزَّزوا وسائل الدفاع عن مدينتهم، أما المسلمون خارجها، فقد فشا بينهم التنازع والشقاق على الرغم من أن جيشاً إسلامياً بقيادة كربوغا كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، إلا أنه وصل بعد فوات الأوان.

وفي غمرة البؤس الصليبي، حاك بوهيموند المؤامرة التي رأىٰ فيها وسيلة لتحقيق أطماعه ودفعته إلى الانضمام إلى الحملة الصليبية، أي تأسيس إمارة نورمانية في الشرق الإسلامي، فدخلت القوات الصليبية إلى المدينة، واستولى بوهيموند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في (جمادى الآخرة ٤٩١هـ/ حزيران ١٠٩٨م)[٢].

• تأسيس مملكة بيت المقدس

استأنف الصليبيون تقدمهم نحو بلاد الشام خلال (صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني ١٠٩٩م)، وأدرك أمراء المدن الإسلامية خطورة الموقف لعدم وجود قوة إسلامية كبرى تجاورهم وتحميهم من ذلك الخطر، لذلك آثروا اتِّباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدَّموا به من عروض، ولنا في سلطان بن منقذ صاحب شيزر[٣]، وبني عمار في طرابلس مثلاً على ذلك.

وسلك الصليبيون طريق الساحل وتوغَّلوا جنوباً، ولما وصلوا إلى أرصوف بين قيسارية ويافا، اتخذوا الطريق الداخلي المؤدي إلى يافا، ثم شقُّوا طريقهم

(١) فولشر الشارتري: **تاريخ الحملة إلى القدس** ص٥١ ـ ٥٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٣ ـ ٦٧.
(٣) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم. الحموي، م.س: جـ٣ ص٣٨٣.

داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة وضربوا الحصار عليها، استمر الحصار مدة خمسة أسابيع، وتمكَّنوا من اقتحامها يوم الجمعة (٢٢ شعبان/ ١٥ تموز) وأحدثوا فيها مذبحة مروِّعة، لم ينجُ منها سوى افتخار الدولة قائد الحامية الفاطمية وعدد من رجاله، ونصَّب الصليبيون عليها غود فري دي بوايون الذي اتخذ لقب «حامي القبر المقدَّس»، ولم تلبث هذه الإمارة أن تحوَّلت إلى مملكة في (رمضان ٤٩٣هـ/ تموز ١١٠٠م) على إثر وفاة غود فري وتنصيب بلدوين ملكاً في (صفر ٤٩٤هـ/ كانون الأول ١١٠٠م)[١].

الصراع على بلاد الشام بين الأخوين رضوان ودقاق

خطت حركة الحشاشين خطوتها الأولى في بلاد الشام، وتحديداً في حلب، فبعد مقتل تُتُش في المعركة التي جرت بينه وبين ابن أخيه بركياروق قرب الرَّي، خلفه ابنه رضوان بناء على وصيته، وكان صبيّاً في الثالثة عشرة من عمره، واستقر في حلب، وخُطب له على منابرها، وقد أدى أتابكه جناح الدولة حسين دوراً بارزاً في تأمين السلطة له.

ووصل في غضون ذلك دقاق، الابن الثاني لتُتُش إلى حلب قادماً من أرض المعركة، وكان يرافق والده، وأقام عند أخيه، وبرز في ظل صراع القوى بعد وفاة تُتُش الأمير ساوتكين الخادم نائبه في دمشق، وقد أدرك أنه لن يكون له أمر مع رضوان بسبب سطوته، فأراد الاحتفاظ بامتيازاته ونفوذه بعيداً عن هيمنته، لكنه كان بحاجة إلى غطاء شرعي، لذلك أرسل إلى دقاق يستدعيه للقدوم إلى دمشق وتسلُّم الحكم فيها، استجاب دقاق للدعوة، وخرج سرّاً من حلب قاصداً دمشق، وتمكَّن من الإفلات من عسكر أخيه الذين أرسلهم للقبض عليه، ولما وصل إلى دمشق سلَّمه ساوتكين مقاليد الحكم، واستقل عن أخيه رضوان[٢].

شُغل الأخوان في بداية حياتهما السياسية بالمحافظة على أملاكهما من جهة وإعادة الوحدة إلى بلاد الشام من جهة أخرى من خلال انتزاع كل منهم

(١) فوشيه الشارتري، م.س: ص٧١ ـ ٧٧. ابن القلانسي، م.س: ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) ابن القلانسي، المصدر نفسه: ص٢١٣. ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٣٩٣.

لأملاك الآخر وضمِّها إلى أملاكه، وفي ظل هذا التمزُّق السياسي والصراع العسكري استقر الحشاشون في حلب.

بدايات الحشاشين

انتهج الدعاة الحشاشون في بلاد الشام سياسة التقارب مع الأمراء المسلمين السُّنَّة، خلافاً لسياستهم التي انتهجوها في إيران مع سلاطين السلاجقة، وقد اضطروا إلى سلوك هذه السياسة كي يستطيعوا التأثير في نفوسهم والحصول على موطئ قدم بهدف الاستقرار الدائم قبل الانطلاق لتنفيذ أهدافهم التقليدية، والمعروف أن الإمام قسَّم مناطق نفوذه إلى أقاليم رئيسة أطلق على كل منها اسم جزيرة، وخصَّص لكل من هذه الجزر داعياً يثق به، وقد وقع اختيار الحسن بن الصباح على داعٍ فارسي، هو أسعد أبو الفتح الباطني، المعروف بالحكيم المنجم، ليتولّى رئاسة الدعوة في بلاد الشام، فأرسله إلى هناك في أواخر القرن الخامس الهجري/أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وكانت وجهته مدينة حلب حيث استقر فيها حوالي مئتين من الحشاشين، وكانوا يخفون عقديتهم ولا يجرؤون على إظهارها، فاستمال رضوان، وأفسد ما بينه وبين أخيه دقاق وجناح الدولة حسين[١]، وقد أقنعه بأنهما يحيكان المؤامرات للاستيلاء على إمارته، فغضب منهما، وأظهر العداء لهما على الرغم مما بين الطرفين من قرابة.

ويبدو أن صاحب حلب كان بحاجة إلى حليف قوي في الداخل لمواجهة مؤامرات منافسيه وخصومه، فوجد ضالَّته في هذا الداعي، فأطلق له حرية العمل والحركة، وسمح له ببناء دار للدعوة في حلب، واتُّهم رضوان باعتناقه المذهب الباطني[٢]، وأنه خطب للإمام المستنصر أربع جمع بشيزر وجميع الأعمال سوى أنطاكية وحلب والمعرة[٣].

واستغل رضوان خناجر الحشاشين مقابل منحهم بعض الامتيازات التي لم يوافق عليها أهل السُّنَّة في حلب، فكان يداريهم، ويغضُّ النظر عن مؤامراتهم

(١) ابن العديم، م.س: جـ١ ص٣٥٨. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٤٤. ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٤١٢ ـ ٤١٣.

ويُقيم لهم الملاجئ، «وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه»[١].

استغل الحشاشون هذا العطف، وتلك المكانة لدى رضوان، وأخذوا يباشرون أعمال القتل انطلاقاً من حلب، ويُعدُّ تاريخهم في بلاد الشام في معظمه، تاريخاً للاغتيالات التي قاموا بها، وكان قاضي حلب فضل الله الزوزني العجمي الحنفي أول ضحاياهم؛ لأنَّه كان يهاجم معتقداتهم[٢]، ثم اغتالوا جناح الدولة حسين أمير حمص، وتُعدُّ هذه الحادثة أول عمل كبير قاموا به في بلاد الشام، وقد هدفوا إلى إرضاء رضوان والفوز بثقته من جهة، وإشعاره بأنه غير قادر على الاستمرار من دون مساعدتهم من جهة أخرى.

الواقع أن الصليبيين وحدهم استفادوا من مقتل جناح الدولة حسين الذي كان يتجهز لطردهم من بعض الحصون، فقد استغل ريموند الصنجيلي هذه الفرصة وهاجم حمص بعد ثلاثة أيام من مقتله، وإذ خشيت الخاتون أرملة جناح الدولة حسين أن تقع المدينة في يده، التمست المساعدة من ابنها رضوان، لكن مستشاري جناح الدولة حسين فضَّلوا الاستعانة بأخيه دقاق صاحب دمشق، فبادر بالقدوم من الجنوب بصحبة أتابكه طغتكين، وعندما شعر ريموند باقترابه من المدينة، وكانت قواته قليلة العدد، فضَّل الانسحاب، وقنع بما فرضه على أهل حلب من جزية مالية، وانصرف عنها[٣].

لم يُعمّر أسعد أبو الفتح الباطني العجمي، الحكيم المنجم، بعد مقتل جناح الدولة حسين، بل توفي بعد أربعة وعشرين يوماً[٤].

تسلَّم زعامة الحشاشين في بلاد الشام بعد وفاة الحكيم المنجم داعٍ آخر، هو أبو طاهر الصائغ العجمي، وشاركه في الزعامة داعٍ آخر يُدعى أبو الفتح السرميني، واحتفظ هذا برضا رضوان وحرية الحركة في حلب، لكن قوة الحركة في بلاد الشام لم تكن بالقدر الذي يُمكِّنها من فرض نفوذها على

(١) ابن العديم، م.س: جـ١ ص٣٥٨. (٢) المصدر نفسه: ص٣٤٤.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٥٩. ابن القلانسي، م.س: ص٢٣٠.
(٤) ابن العديم، المصدر نفسه.

البلاد، ويبدو أن الحسن بن الصباح لم يمدّها بالرجال إلا عند الضرورة القصوى وبشكل محدود نظراً لحاجته الماسَّة لها هناك.

أدَّى هذان الداعيان دوراً خطيراً في أحداث شمالي بلاد الشام، وتنمية أتباعهما، ونقلا نشاط الحركة إلى خارج إطار إمارة حلب، فامتلكا عدداً من الحصون كان أولها أفامية[1] في عام (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م)، تحت شعار رضوان صاحب حلب، الأمر الذي يدل على تقاطع تاريخ الحشاشين في بلاد الشام مع تاريخ السلاجقة هناك، بالإضافة إلى تاريخ الصليبيين، ذلك أن الصليبيين قد احتلوا سرمين[2]، وأكثر أهلها يدين بالمذهب الإسماعيلي، ففرَّ قاضيها أبو الفتح السرميني منها وذهب إلى أفامية، والتمس مساعدة صاحبها خلف ابن ملاعب الكلابي، ولمّا كان هدفه الاستيلاء على القلاع والحصون، فقد اتصل السرميني بأبي طاهر الصائغ زعيم الحشاشين في حلب، وتآمر معه على اغتيال خلف بن ملاعب والسيطرة على أفامية، وتسربت أخبار المؤامرة إلى أولاد خلف فنصحوا والدهم فلم ينتصح، واشترك رضوان بالمؤامرة، وأرسل أبو طاهر الصائغ ثلاثمئة رجل من أهل سرمين ليقتلوا خلف بن ملاعب، ففعلوا، وسقطت القلعة الحصينة في يده[3]، وهو الانتصار الأول في عملية امتلاك القلاع والحصون في بلاد الشام.

ظلَّت أفامية تحت حكم الحشاشين حتى هاجمها تانكريد الصليبي صاحب أنطاكية واستولى عليها في (١٣ محرم ٥٠٠هـ/ ١٥ أيلول ١١٠٦م) وقتل أبا الفتح السرميني مع ثلاثة من أتباعه وأسر أبا طاهر الصائغ ثم أطلق سراحه، وحمل سائر أعيان المدينة إلى أنطاكية[4].

حدث بعد هذه الانتكاسة أن استطاع الحشاشون قتل مودود بن التونتكين صاحب الموصل يوم الجمعة في (ربيع الآخر ٥٠٧هـ/ تشرين الأول ١١١٣م) في المسجد بدمشق أثناء تنقُّله في صحنه، فطعنه أحدهم بخنجر فلقي مصرعه،

(١) أفامية: مدينة حصينة وكورة من كور حمص.
(٢) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. الحموي، م.س: جـ٣ ص٢١٥.
(٣) ابن العديم، م.س: جـ١ ص٣٦٣ ـ ٣٦٤.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٦٤. ابن القلانسي، م.س: ص٢٤٢. ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٥٢٣.

وبادر طغتكين صاحب دمشق إلى قتل الجاني، وروَّج رضوان أمير حلب بأن طغتكين هو الجاني، في حين حمَّله العامة المسؤولية[1]، لكن يبدو أن الدافع لعملية الاغتيال هو بُغض مودود للحشاشين، بالإضافة إلى ما فعله أبوه التونتاش معهم في المشرق، وتوفي رضوان في السنة نفسها (٢٨ جمادى الآخرة/ ١٠ كانون الأول)[2]، وخلفه ابنه ألب أرسلان وعمره ست عشرة سنة، وعُرف بالأخرس؛ لأنَّه كان ألثغاً لا يُحسن الكلام، وتولّى خادم أبيه لؤلؤ اليايا تدبير أموره[3].

اضطهاد الحشاشين بعد وفاة رضوان

تعرَّض الحشاشون في حلب عقب وفاة رضوان للاضطهاد، وكان قد قوي أمرهم في أيامه، وتابعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً للجاه، والتجأ إليهم كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم، وبرز الداعي إبراهيم العجمي الذي كتَّلهم ونظَّم صفوفهم.

وكتب السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه إلى ألب أرسلان يُحرِّضه على قتل الحشاشين في حلب: «كان والدك يخالفني الرأي في الباطنية، وأنت الآن ولدي فأحب أن تقتلهم»[4] كما أن ابن بديع قائد حامية حلب الذي خشي من تزايد نفوذهم، حرَّض ألب أرسلان على قتلهم[5].

استجاب صاحب حلب لطلب السلطان، فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله كما قتل الداعي إسماعيل، وأخا الحكيم المنجم، والأعيان من أهل هذا المذهب، وقبض على زهاء مئتي نفس منهم، سجن بعضهم، واستصفى أموالهم، وشفع في بعضهم الآخر، وأفلتت جماعة منهم، فتفرقوا في البلاد[6].

وخشي إبراهيم العجمي على نفسه، فلجأ إلى قلعة شيزر، وقد تجمَّعت فيها

(١) ابن القلانسي، م.س: ص٢٩٨. ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٢٦٦.
(٢) المصدران نفساهما: ص٣٠١. ص٥٩٨، سبط ابن الجوزي، م.س: ص٤٦ ـ ٤٧.
(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر نفسه: ص٤٧. ابن العديم، م.س: جـ١ ص٣٧٣.
(٤) ابن العديم: المصدر نفسه ص٣٧٤. (٥) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٥٩٨.
(٦) ابن العديم، م.س: جـ١ ص٣٧٥.

فلول الحشاشين الهاربين من حلب، فاستغل هؤلاء كثرة عددهم وقوَّتهم وسيطروا عليها، وكان احتلالهم لها نتيجة طبيعية بفعل ما تعرَّضوا له من اضطهاد في حلب، وقد اختاروها نظراً لحصانتها ومناعتها وموقعها «الاستراتيجي»، والرغبة في الاستقرار في بلاد الشام، والمعروف أن قلعة شيزر كانت تحت حكم آل منقذ، وكانوا يخرجون منها يوم أحد الشعانين لمشاهدة احتفالات ذلك اليوم، وما إن خرجوا حتى استولى عليها هؤلاء لكنهم لم يتمكَّنوا من الاحتفاظ بها مدة طويلة؛ لأن أصحابها تسلَّقوا جدرانها بمساعدة نسائهم، وأحاطوا بهم وأفنوهم عن آخرهم، وعلى رأسهم الداعي إبراهيم العجمي، وتتبعوا كل من كان على مذهبهم في شيزر، وفتكوا به.

الواقع أن خسارة الحشاشين كانت جسيمة، وأدرك الحسن بن الصباح ذلك، فأرسل إليهم يُشجِّعهم، والواضح أنه كان يدير العمليات العسكرية من مركزه في ألموت بواسطة الحمام الزاجل.

لقد خُذل الحشاشون، في شيزر كما خُذلوا في حلب، لكنهم على الرغم من ذلك لا يزالون يُشكِّلون قوة ذات بأس يخشاها الأمراء المسلمون، وقد سُرُّوا بمقتل ألب أرسلان[1] وتولّي إيلغازي الأرتقي أتابك ماردين[2] حكم حلب[3]، فاستمالوه حتى أضحى طوع بنانهم، وكان ذلك من أهم عوامل نجاحهم في ذلك الدور، وعاد نفوذهم قوياً في حلب، وبذلوا جهوداً متواصلة من أجل الاستيلاء على قلعة الشريف المجاورة للمدينة، فطلبوا من إيلغازي منحهم إياها كي يتخذوها مسكناً ومعقلاً، فرفض متذرعاً بأنها ثغر قريب من الممتلكات الصليبية، وفيها وجوه أهل المدينة، وأهل الدين، ولا يمكنه مناصبتهم العداء، وكان قد أمر بهدمها، وعندما شاع هذا الخبر في حلب رفض أهلها إعطاءهم إياها؛ لأنَّهم إن ملكوها ملكوا حلب.

كانت صدمة كبيرة أصابت الحشاشين الذين كانوا يأملون امتلاك القلعة

(١) قتله لؤلؤ اليايا بفراشه بقلعة حلب في (ربيع الآخر ٥٠٨هـ/ أيلول ١١١٤م)، وساعده على ذلك قراجة التركي وغيره. ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٦٠٦. ابن العديم، م.س: جـ١ ص٣٧٧.

(٢) ماردين قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، مشرفة على دُنَيسر ودارا ونصيبين. الحموي، م.س: جـ٥ ص٣٩.

(٣) العظيمي، م.س: ص٣٩٦.

للاستقرار فيها وتقوية مركزهم في بلاد الشام، ولهذا طلبوا من إيلغازي للمرة الثانية أن يعطيهم إياها، وتعهدوا بإصلاحها وإقامة سورها، فكان جواب إيلغازي الرفض، ويبدو أنه لم يكن يريد أن يستمر بالتعاون معهم.

كان الأمراء المسلمون في بلاد الشام يخشون أن تقع القلاع والحصون في أيدي الحشاشين؛ لأن من شأن ذلك أن يُمكِّنهم من امتلاك القلاع المجاورة للمدن الكبيرة.

وهكذا لم يستطع الحشاشون في بلاد الشام أن يُحقِّقوا أمانيهم لا بالعنف ولا بالسياسة، لذلك توجَّهوا إلى إقليم الجزيرة الفراتية علَّهم ينجحوا فيما فشلوا فيه في بلاد الشام وبخاصة أن إيلغازي صاحب ماردين الواقعة في ديار بكر كان يصادقهم، ثم إن امتلاكهم لهذا الإقليم من شأنه أن يُسهِّل عليهم الاتصال بألموت، وجعل إقليم الجزيرة الفراتية معبراً إلى إقليم قهستان وبلاد الديلم وغيرها.

وبفعل هذا التوجه السياسي أخذ نفوذهم يزداد تدريجاً في العراق وإقليم الجزيرة الفراتية وبخاصة في مدينة آمد[1]، ولم تأت سنة (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) إلا وأضحوا يُشكّلون خطراً على أهل السُّنَّة فيها، وحاولوا الاستيلاء على المدينة، فدبَّر لهم هؤلاء مذبحة ذهب ضحيتها سبعمئة منهم، فضعف أمرهم عقب ذلك.

والحقيقة أن أهل آمد ثاروا ضد الحشاشين عندما أدركوا أنهم يسعون إلى احتلال مدينتهم، ما يدل على أن محاولة احتلال هذه المدينة إنما هو مرحلة أخرى من مراحل استقرارهم في هذه البلاد[2].

نشاط الحشاشين في جنوبي بلاد الشام

نقل الحشاشون نشاطهم الدعوي والتوسعي إلى جنوبي بلاد الشام إثر الانتكاسات التي تعرَّضوا لها في الشمال، وبخاصة أن شمالي بلاد الشام لم تعد أرضاً صالحة لدعوتهم، وكان الداعية بهرام قد تولّى مركز كبير الدعاة في بلاد الشام بعد مقتل أبي طاهر الصائغ، وكان يعمل سرّاً حتى لا يتعرَّض للمخاطر، وتحالف مع إيلغازي صاحب حلب وصادقه، ويبدو أن الأخير أقدم

(١) آمد: أعظم مدن دباربكر وأجلُّها قدراً وأشهرها ذكراً، مبنية على نشز دجلة. الحموي، م.س: جـ١ ص٥٦.

(٢) هشي، سليم: **في الإسماعيلية**، بيروت، ٩٧٥: ص٦٨ ـ ٦٩.

على ذلك خشية من شرِّه ومن شرِّ أصحابه؛ لأنهم كانوا يقتلون كل من يخالفهم، وتقوية عضده به، غير أنه أراد إبعاده، فاقترح على طغتكين أن يستضيفه في دمشق فوافق، وكشف بهرام في هذه المدينة عن حقيقة شخصه، وجاهر بدعوته، ونجح في استقطاب مزيد من الأتباع، وآزره الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني بهدف الاستفادة منه والاعتضاد به في مواجهة خصومه، غير أن أهل دمشق الذين يغلب عليهم مذهب أهل السُّنَّة قد أبدوا امتعاضاً من نشاطه، فخشي بهرام أن ينقلبوا عليه وعلى أتباعه، فطلب من الوزير المرغيناني أن يعطيه حصناً يأوي إليه هو من اتَّبعه، فأعطاه قلعة بانياس، فنظَّم صفوف أتباعه فيها، وازداد نفوذه في المنطقة ما أغضب علماء المسلمين السنَّة، ولكنهم لم يتمكَّنوا من فعل أي شيء نظراً لخوفهم من حكّامهم، وخشيتهم من بطش فدائيي الحركة[1].

اتخذ بهرام من قلعة بانياس مركز انطلاق إلى مختلف أنحاء بلاد الشام الجنوبي، فأرسل دعاته إلى مناطق عديدة في محاولة لكسب مزيد من الأتباع واحتلال بعض القلاع والحصون، فاشترى بعضها واستولى عنوة على بعضها الآخر، واطمأن في الوقت نفسه على مركزه في دمشق.

وأغار بهرام على وادي التيم من أعمال بعلبك، وكان يقطن هذا الوادي بعض النصيرية والدروز والمجوس وغيرهم، وحاصره، وذلك في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، فتصدى له أمير المنطقة ويُدعى الضحّاك، وانتصر عليه، وقتل بهرام مع عدد من أتباعه، وعاد من نجا منهم إلى بانياس[2].

وكان بهرام قد عيَّن قبل خروجه إلى المعركة رجلاً من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، فجمع شمل من عاد من أفراد الحركة، وبثَّ دعاته في البلاد، وسانده الوزير المرغيناني الذي أقام بدمشق رجلاً يُدعى أبو الوفاء مكان بهرام، فقوي أمره، وعلا شأنه، وكثر أتباعه، حتى أضحى كالمستولي على دمشق في ظل حكم صاحبها تاج الملوك بوري بن طغتكين، ثم إن المرغيناني راسل الصليبيين ليسلِّم إليهم المدينة مقابل أن يُعيِّنوه حاكماً على صور، فعلم تاج الملوك بوري بهذه المراسلة، فاستدعى المرغيناني إليه وقتله،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٨ ص٧٠٣.
(٢) المصدر نفسه: جـ٩ ص١٦ ـ ١٧.

وعلَّق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية وتتبُّعهم، فقتل منهم ستة آلاف، وذلك في (١٥ رمضان ٥٢٣هـ/ ١ أيلول ١١٢٩م)[1].

وخشي إسماعيل والي بانياس أن يتعرَّض لثورة العامة، فراسل بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، وعرض عليه تسليم بانياس مقابل الانتقال إلى بلاده، فأجابه إلى ذلك وجرى تسليم القلعة إليه، ولقي إسماعيل وأتباعه في ظل حكم الصليبيين الشدة والمذلَّة والهوان، وتوفي في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)[2].

الانتقام من حاكم دمشق

لم يركن الحشاشون في ألموت إلى الهدوء عقب أعمال الملاحقة والقتل التي تعرَّضوا لها في دمشق، فكان ردُّ فعلهم التعرُّض لحاكم المدينة تاج الملوك بوري، فتمكَّنوا من التسلل إليه في عام (٥٢٥هـ/ ١١٣١م)، وطعنوه طعنتين، فشُفي من إحداهما، ولم يُشفَ من الأخرى، وظل يتألم من الجرح، ومع ذلك استمر يمارس أعماله، ويقوم بواجباته كحاكم، لكن مع مرور الأيام بدأ جسمه يضعف، ومقاومته للمرض تتراجع حتى توفي في (٢١ رجب ٥٢٦هـ/ ٧ حزيران ١١٣٢م)[3].

انتشار الحشاشين في شمالي بلاد الشام

تجاوزت حركة الحشاشين في بلاد الشام أزمتها وسط إصرار دعاتها على الانتشار والسيطرة، ففي عام (٥٢٧هـ/ ١١٣٣م)، اشتروا قلعة قدموس من صاحبها ابن عمرون وتمركزوا فيها، وأخذوا يغيرون على المناطق المجاورة[4]؛ سواء الخاضعة للحكم الإسلامي أو الحكم الصليبي، ثم استولوا على بعض الحصون والقلاع بالشراء تارة وبالقتال تارة أخرى أو بالخديعة، نذكر منها: الرصافة[5]، والمنيقة، والخوابي، والعليقة، ومصياف، الواقعة على الساحل الشامي قرب طرابلس وهي أعظم حصونهم، وكان واليها مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه، وملكوا الحصن، وذلك في عام (٥٣٥هـ/ ١١٤٠ ـ ١١٤١م)[6].

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص١٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٠، ٣٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٧.
(٥) رصافة الشام تقع غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طريق البرِّيَّة، وبين الرصافة والرحبة أربعة أيام. الحموي، م.س: جـ٣ ص٤٧.
(٦) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص١١٢.

عهد راشد الدين سنان

اعتلاؤه منصب داعي الدعاة في بلاد الشام

ولد راشد الدين سنان بن محمد بن الحسن البصيري في قرية عقر السدن العراقية الواقعة بين واسط والبصرة، ويوصف بأنه معلِّم مدرسة، اعتنق الدعوة الحشيشية في شبابه، واضطر لأسباب عائلية أن يغادر العراق إلى قلعة ألموت في عهد كيا محمد؛ حيث أكمل دراسته المذهبية، ودرس مختلف العلوم الجدلية والفلسفية، وتعمَّق فيها، وعندما توفي كيا محمد وخلفه ابنه حسن، أرسله إلى بلاد الشام لتدعيم صفوف الحركة هناك، وقد أظهر تقوى وصلاحاً وتمسكاً بالعقيدة الإسماعيلية الحشيشية، وأبدى نشاطاً ملفتاً في نشرها، ما جعله يسمو في أعين رجالها، حتى أضحى أغزرهم علماً، وأكثرهم فضلاً ونشاطاً واطِّلاعاً على الأوضاع السياسية العامة، الأمر الذي مكّنه من أن يصبح داعي الدعاة بعد مقتل الداعي الشيخ أبو محمد، وذلك في عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م)، واشتهر عند الصليبيين باسم شيخ الجبل، فنظَّم الحركة، وارتفع شأن الحشاشين في عهده، وقرنه رجاله مع الحسن ابن الصباح في المنزلة، هذا في الوقت الذي كان فيه نفوذ ألموت آخذاً في التراجع..

التفت سنان بعد أن وطّد نفوذه كداعي الدعاة، إلى تدعيم مملكته الجديدة، فأعاد بناء قلعتي الرصافة والخوابي، وتوَّج عمله بالاستيلاء على قلعة العليقة، وإعادة تحصينها، وبنى قلاعاً جديدة، وحصَّن أخرى، منها الكهف.

لم يتعرَّض سنان للهجوم من قِبَل أمراء المسلمين والصليبيين خوفاً من الانتقام باغتيالهم، وقد حكم ثلاثين سنة استقل خلالها عن سلطة ألموت، وقد تعرَّض من أجل ذلك إلى محاولات اغتيال عدة على يد حكامها؛ نجا

منها إما بالقبض على الموكلين بالتنفيذ وقتلهم أو بخديعتهم وإقناعهم بعدم تنفيذ ما لديهم من أوامر.

تآمُر الحشاشين ضد نور الدين محمود

جرى في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) أن اغتال الحشاشون ريموند الثاني صاحب طرابلس الصليبي، ولم يُعرف الباعث على اقترافهم هذه الفعلة، ثم التفتوا إلى تدعيم بلادهم في جبال النصيرية، وعدُّوا نور الدين محمود الزنكي صاحب حلب ودمشق، عدوَّهم اللّدود، فقد ارتاعوا لزوال الدولة الفاطمية وانتصار المذهب السنّي في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام، وبخاصة بعد أن قيَّد نور الدين محمود توسُّعهم على الطرف الشرقي، غير أنه لم يستطع أن يقمعهم، وإذ عثر على خنجر ذات ليلة على وسادته، كان ذلك إنذاراً بألا يتمادىٰ في معاداتهم.

واتصل سنان بملك بيت المقدس الصليبي عموري الأول للتنسيق معه على مواجهة نور الدين محمود، وعرض عليه إقامة تحالف مناهض له مقابل إعفاء الحشاشين من الضريبة التي فرضتها عليهم الداوية في أنطرطوس.

ونتيجة للنظرة السياسية التقليدية المعادية لنور الدين محمود، فرح الملك عموري الأول بتشجيع الصداقة مع شيخ الجبل في أشد الأوقات حرجاً، ورحَّب بعرضه آملاً بما لدى الحشاشين من خبرة بأوضاع البلاد الإسلامية وحكّامها، وأن تكون هذه الطائفة ذات فائدة كبيرة للصليبيين، فكتب إلى الداوية بأمرهم بقبول العرض، لكن العداء القديم بين الطرفين، وغضب الداوية من حرمانهم من الضريبة التي اعتادوا جبايتها، دفعهم إلى الإجهاز على سفارة سنان أثناء اجتيازها أراضي طرابلس[١].

محاولات الحشاشين القضاء على صلاح الدين

نقم الحشاشون على صلاح الدين الأيوبي؛ لأنَّه أسقط الخلافة الفاطمية في مصر، وتقدَّم إلى بلاد الشام لتوحيدها تحت سلطانه، وضمِّها إلى مصر، ما

(١) الصوري، وليم: **تاريخ الأعمال المنجرة فيما وراء البحار**، ترجمة: سهيل زكار تحت عنوان: **تاريخ الحروب الصليبية**: جـ٢ ص٩٦٧ ـ ٩٦٩.

يُشكِّل تهديداً لكيانهم، فتعاون سنان مع كل من الصليبيين والزنكيين للقضاء عليه.

ففي عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) عندما توجه صلاح الدين لحصار حلب، أرسل سعد الدين كمشتكين أتابك الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في دمشق، إلى سنان يطلب مساعدته، وبذل له أموالاً كثيرة، وعدداً من القرى، ثمناً لقتل صلاح الدين، والواضح أن مصلحة مشتركة جمعت الطرفين، وهي العداء لصلاح الدين.

أرسل سنان جماعة من أتباعه الفدائيين إلى المعسكر الأيوبي، فاكتشفهم أمير يُدعى خمارتكين، فقتلوه، ووصلوا إلى خيمة صلاح الدين في جوف معسكره، وحمل عليه أحدهم ليقتله، فقُتل دونه، واستبسل الباقون في الدفاع عن أنفسهم قبل أن يُقتلوا جميعاً[١].

من المستبعد أن يكون تحريض كمشتكين هو الدافع الأساس والوحيد لسنان للقيام بتلك العملية؛ لأنه كان يعمل لأسباب خاصة، وهي العداء لصلاح الدين، الذي أضحى منذ أن دخل بلاد الشام العدو الرئيس للحركة؛ لأنه كان يعمل على توحيد أهل السُّنَّة هناك الذي من شأنه أن يُهدِّد كيان حركته.

أوضحت هذه الحادثة لصلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين والصليبيين، وأنه يجب عليه أن يحذرهم.

دفع فشل المحاولة سناناً إلى التخطيط مجدداً لاغتيال صلاح الدين، كان أشد تصميماً على بلوغ الهدف، فأرسل في (ذي القعدة ٥٧١هـ/ أيار ١١٧٦م) جماعة من أتباعه بزيِّ الأجناد، فدخلوا بين العسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز[٢]، وباشروا الحرب معهم، حتى اختلطوا بهم انتظاراً لفرصة موآتية يُجهزون عليه[٣].

وفي إحدى مراحل الحصار، تقدَّم صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص٤٠٧ ـ ٤٠٨.
(٢) عزاز أو إعزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب، بينهما يوم. الحموي، م.س: جـ٤ ص١١٨.
(٣) العماد الأصفهاني، عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تح: محمد محمود صبح، القاهرة: ص٢١٠.

الأسدي لتشجيع الجند على مواصلة القتال، فوثب عليه أحد الحشاشين وضربه بسكينة على رأسه، إلا أن صلاح الدين كان محترزاً لا ينتزع الزردية عن جسمه، ولا صفائح الحديد عن رأسه.

ويبدو أن الرجل شعر بصفائح الحديد، فضرب صلاح الدين على خدِّه فجرحه، فأمسكه صلاح الدين بيده، وحال بينه وبين ضربه بقوة، إنما لم يتمكَّن من إيقافه عن الضرب حتى أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم فدائي ثانٍ على صلاح الدين، فتصدى له داود بن منكلان وقتله، غير أنه أُصيب بجروح أدَّت إلى وفاته بعد أيام عدة، ثم هجم فدائي ثالث لتنفيذ المهمة، فاعترضه الأمير علي أبو الفوارس، وطعنه ناصر الدين محمد ابن شيركوه وقتله، وخرج رابع من الخيمة منهزماً، فطارده الجند وقتلوه[١].

اضطرب صلاح الدين لهذا الحادث الرهيب، وأذهلته المفاجأة، ثم استعرض جنده، فمن أنكره أبعده، ومن عرفه أقرَّه، وأخذ بعد ذلك بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب[٢]؛ كما كان للحادث أثر بالغ في نفوس الجند الذين اضطربوا وتوقفوا عن القتال أمام عزاز، واضطرب أمر الناس أيضاً عندما شاع في البلاد أن صلاح الدين قد قُتل، فاضطر عندئذٍ إلى الطواف بين جنده ليشاهده الناس، كما أرسل القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل أخي صلاح الدين، يطمئنه فيه، ويروي له حقيقة الحادث[٣].

حقَّقت هذه المحاولة الثانية لاغتيال صلاح الدين بعض أهدافها، وأثبتت أن حركة الحشاشين كانت دقيقة في تنظيمها، وسرِّيَّتها، وبراعة أساليبها في عمليات الاغتيال.

لا شك بأن الاعتداء على صلاح الدين كان محاولة خطيرة، ونذيراً بما بلغه أولئك الرجال المرعبين من القوة والنفوذ، فقرَّر صلاح الدين العمل على

(١) العماد الأصفهاني، م.س: ص٢١٠ ـ ٢١١.
(٢) المصدر نفسه: ص٢١١ ـ ٢١٢.
(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمٰن إسماعيل... المقدسي الدمشقي: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروتن ط١، ١٩٩٧م: جـ٣ ص٤١٠.

القضاء عليهم قبل أن يستفحل شرُّهم أكثر من ذلك، فجهَّز حملة عسكرية في (محرم ٥٧٢هـ/ تموز ١١٧٦م) وهاجم حصونهم، وتمكَّن جنده من حصار بعضها وضربها بالمنجنيق، ثم دخلوها وقتلوا من بداخلها وخرَّبوها، لكن استعصت عليه قلعة مصياف التي قاومت الحصار مدة أسبوع.

ويبدو أن سنان قد هالته الحملة الأيوبية، وخشي على ما تبقَّى له من قلاع وحصون، فمال إلى التفاهم مع صلاح الدين، فأرسل إلى شهاب الدين الحارمي صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يطلب منه أن يشفع له لدى صلاح الدين، وهدَّده بقتله وقتل أهل صلاح الدين جميعهم، فاستجاب لطلبه، فاجتمع بصلاح الدين، وطلب منه الصفح عن الحشاشين فوافق على ذلك[١].

ويبدو أن عوامل عدة قد تضافرت ودفعت الطرفين إلى تحقيق التفاهم، لعل أهمها:

فيما يتعلق بصلاح الدين:

- التهديد الذي وجَّهه سنان إلى خال صلاح الدين.

- اليأس الذي دبَّ في صفوف الجنود الأيوبيين من اقتحام قلعة مصياف، وكانت أيديهم آنذاك مملوءة بالغنائم التي كسبوها من الموصل وبعض قلاع الحشاشين فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة، فأذن لهم صلاح الدين، وفكَّ الحصار عن القلعة[٢].

- الغارات التي نفَّذها الصليبيون على البقاع أثناء حصار صلاح الدين لقلاع الحشاشين، فتصدَّى لهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم حاكم بعلبك، وقتل منهم جماعة، وأسر أكثر من مئتين، أحضرهم إلى مجلس صلاح الدين وهو يحاصر مصياف؛ فخشي من قيام الصليبيين بتوسيع نطاق غاراتهم[٣].

- أراد صلاح الدين تصفية مشكلاته مع الأمراء الزنكيين والتفرغ لقتال الصليبيين الذين يُشكِّلون الجانب الأشد خطورة على مستقبله ومستقبل دولته.

- أدرك صلاح الدين أثناء حصاره لقلاع الحشاشين مدى متانتها وحصانتها،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ٩ ص٤٢٣. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٢٤.

وأنها سوف تستهلك جهده في الوقت الذي هو بأمس الحاجة إلى تجميع قواه وتركيزها لقتال الصليبيين وتحرير بيت المقدس منهم.

فيما يتعلق بالحشاشين:

- رغب الحشاشون في التفاهم مع صلاح الدين بعد فشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله.

- عدم قدرتهم على التصدي لقواته، لذلك فضَّلوا وقوفه على الحياد أو التعاون معه على أن يكون عدواً مباشراً لهم.

ومهما يكن من أمر، لم تُشِر المصادر التاريخية بعد إبرام الصلح، إلى أي احتكاك بين الطرفين، وانفرد ابن الأثير برواية تشير إلى تعاون الطرفين عندما طلب صلاح الدين من سنان قتل ريتشارد قلب الأسد الذي قدم إلى الشرق على رأس حملة صليبية، وكونراد مونتفيرات صاحب صور، ووعده بوضع الأموال مقابل ذلك، لكن سنان خشي أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرَّغ للحشاشين ويقضي عليهم، لذلك اكتفى بقتل كونراد في (ربيع الآخر ٥٨٨هـ/ نيسان ١١٩٢م)، وعدل عن قتل ريتشارد[١].

وتوفي راشد الدين سنان في عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)[٢].

علاقة الحشاشين بجيرانهم بعد وفاة راشد الدين سنان

حافظ الحشاشون في بلاد الشام على أسس دعوتهم بعد وفاة راشد الدين سنان في المنطقة المسماة «قلاع الدولة» في جنوبي اللاذقية، ويبدو أنهم توقفوا عن اغتيال شخصيات إسلامية نظراً لوجود أعداء الإسلام من الصليبيين، فتعرَّضت شخصيات صليبية لعمليات اغتيال، نذكر منها: ريموند أكبر أبناء بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية، البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وقد اغتالته جماعة من الحشاشين في كنيسة طرطوس[٣] في عام (٦١٠هـ/ ١٢١٣م)،

(١) ابن الأثير، م.س: جـ١٠ ص١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) أبو الفداء، م.س: جـ٢ ص١٧٢.
(٣) طرطوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب. الحموي، م.س: جـ٤ ص٣٠.

ويبدو أن الاسبتارية[١] هم الذين حرَّضوا القتلة؛ نظراً لأن الحشاشين كانوا آنذاك يؤدون إتاوة لهم.

وسعى بوهيموند إلى الانتقام، وبفضل ما جاءه من مساعدات من الداوية[٢] فرض حصاراً على قلعة الخوابي، ولما كان الحشاشون على علاقات طيبة مع خلفاء صلاح الدين، فقد التمسوا المساعدة من الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فأمدَّهم بقوة عسكرية لرفع الحصار عنهم، ولكن قواته تعرَّضت للهزيمة، على أيدي الصليبيين، فالتمسوا عندئذٍ المساعدة من المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق، فأرسل إليهم جيشاً أرغم بوهيموند على رفع الحصار عن الخوابي، واغتال الحشاشون في السنة التالية ألبرت بطريرك بيت المقدس، وكان أيضاً من أعداء الاسبتارية[٣].

أضحى الحشاشون في هذا الوقت جزءاً من نسيج المنطقة معترَف بهم على المسرح السياسي في بلاد الشام، ففي عام (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) تعرَّض قاضي سنجار[٤] بدر الدين لغضب السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ففرَّ هذا والتجأ إلى قلاع الحشاشين، وكان رئيسهم آنذاك يُدعى تاج الدين[٥].

وعندما وصل الملك الفرنسي لويس التاسع إلى عكا في (صفر ٦٤٨هـ/ أيار ١٢٥٠م)، سعى إلى التحالف مع الحشاشين والمغول لتحقيق نوع من التوازن بين الصليبيين من جهة والمماليك والأيوبيين من جهة أخرى.

(١) الاسبتارية: هيئة فرسان القديس يوحنا، هي إحدى الفرق الصليبية الدينية ـ العسكرية أسسها جماعة من المواطنين الألمالفيين الأتقياء في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، وأقاموا ديراً في بيت المقدس، وأسسوا بجواره مستشفى لإيواء الحجاج المسيحيين الفقراء ومعالجة المرضى منهم، ثم تحولوا إلى فرقة عسكرية.

(٢) الداوية: نشأت هيئة الداوية في بادئ الأمر على أساس مجموعة صغيرة من الفرسان الرهبان في عام (٥١٢هـ/١١١٨م) على يد فارس فرنسي من شمبانيا لتصبح بعد ذلك هيئة عسكرية كبيرة، واختارت زاوية في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد لتكون مقراً لهم، إنهم فرسان المعبد.

(٣) رنسيمان، ستيفن: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م: جـ٣ ص٢٤٧.

(٤) سنجار: مدينة مشهورة من نوحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عالٍ. الحموي، م.س: جـ٣ ص٢٦٢.

(٥) لويس، م.س: ص٢١٦.

وحدث أن أرسل زعيم الحشاشين في بلاد الشام سفارة إلى عكا للطلب من الملك الفرنسي عقد نوع من التفاهم والارتباط بين الطرفين[١]، وربما هدف إلى التخلص من الإتاوة التي كان يدفعها للداوية والاسبتارية الذين كانوا يتحكَّمون بطريق مواصلات الحشاشين مع داخل بلاد الشام من واقع امتلاكهم حصني صافيتا والأكراد، أو أنه أراد أن يستغل ضعف وضع الصليبيين في بلاد الشام لفرض الإتاوة على الملك الفرنسي، أسوة بما كان يدفعه كثير من ملوك وأمراء بلاد الشام من المسلمين والنصارى خشية على أنفسهم من اغتيالات طائفة الحشاشين، على أن سفارة الحشاشين التالية إلى الملك لويس، حملت معها الهدايا ومشروعاً أكثر وضوحاً يقضي بإقامة تحالف وثيق بينهما، ويبدو أن الحشاشين أرادوا أن يحموا أنفسهم من مضاعفات الوضع الجديد الناشئ عن قيام دولة المماليك القوية في مصر، ونظراً لما كان يعلمه عن العداوة بين الإسماعيلية النزارية الباطنية المذهب وبين المسلمين السنَّة؛ فقد شجَّع خطوتهم، فأرسل ييف البريثوني للاتفاق على عقد المعاهدة، وقد استهوته المكتبة التي أقامها الحشاشون في مصياف، وأدَّت هذه المفاوضات إلى تقوية أواصر الصداقة بين الطرفين[٢].

علاقة الحشاشين بالمماليك ونهاية دورهم في بلاد الشام

اعتلى الظاهر بيبرس البندقداري المملوكي السلطة في مصر في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) عقب مقتل السلطان قطز بعد معركة عين جالوت، اتصف بالحزم، وعلوّ الهمَّة، والبأس الشديد، وبُعد النظر، وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، وجاءت نهاية الحشاشين في بلاد الشام في عهده.

لقد شارك الحشاشون المسلمين في التصدي للتهديد المغولي، وحاولوا في الوقت نفسه اكتساب ثقة السلطان الظاهر بيبرس عبر إرسال السفارات والهدايا إليه، ولم يُبدِ السلطان المملوكي في بادئ الأمر عداءً نحوهم، بل إنه منح

(١) جوانفيل: **مذكرات جوانفيل**: ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م: ص٢٠٣ ـ ٢٠٥.

(٢) رنسيمان، م.س: جـ٣ ص٤٨١ ـ ٤٨٢.

فرسان الاسبتارية هدنة في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) تضمَّنت في أحد بنودها أن يتوقفوا عن أخذ الإتاوة من مختلف أقاليم ومدن المسلمين بمن فيهم قلاع الحشاشين، وكان هؤلاء من الحكمة وبُعد النظر أن بادلوا هذه الخطوة من جانب السلطان، بخطوة إيجابية، فقد أرسلوا سفارة إلى القاهرة عرضت على السلطان دفع الإتاوة التي كانوا يدفعونها للصليبيين، لاستخدامها في الجهاد ضدهم[1].

ويبدو أن الظاهر بيبرس الذي كان يكافح ضد المغول والصليبيين، لم يشأ أن يتسامح تجاه استمرار وجود جيب مستقل من الباطنية الإسماعيلية الحشيشية في قلب بلاد الشام قد يشكل خطراً على دولته، بالإضافة إلى أنه استاء عندما لم يستقبلوه في قلعة المرقب[2] القريبة من قلاعهم، وكان رئيس الحشاشين آنذاك نجم الدين الشعراني ومركزه قلعة مصياف، وعند وصول الظاهر بيبرس إلى المرقب لم يخرج لاستقباله وتحيَّته والترحيب به، ما دفع السلطان إلى التفكير بالانتقام من هؤلاء، فراح يضايقهم قبل أن يسيطر على قلاعهم، وفرض الإتاوات عليهم، وعزل مقدَّمهم نجم الدين الشعراني.

أمر الظاهر بيبرس في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) بجمع الضرائب والرسوم والهدايا التي كانت تصل إلى الحشاشين من مختلف الأمراء الذين يدفعون إليهم الجزية[3]، وعزل في عام (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) نجم الدين الشعراني، وعيَّن مكانه زوج ابنته صارم الدين مبارك حاكم قلعة العليقة؛ لأنَّه كان أكثر تجاوباً مع توجهاته، فكان يحكم بوصفه عاملاً للسلطان، ويبدو أنه كان ذا نزعات توسعية واستقلالية، فسيطر بالخديعة على مصياف، لذلك عزله الظاهر بيبرس وسجنه وأعاد تعيين نجم الدين الشعراني، وذلك مقابل إتاوة سنوية وتسليم قلاع الحشاشين، فاستولى قائد السلطان، عز الدين العديمي، على قلعتي العليقة والرصافة في (٦٧٠هـ/ ١٢٧١ ـ ١٢٧٢م)، وسقطت الخوابي في العام

---

(١) المقريزي: أبو العباس أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م: جـ٢ ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) المرقب: بلد وقلعة حصينة تُشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. الحموي، م.س: جـ٥ ص١٠٨.

(٣) المقريزي، م.س: جـ٢ ص٣٢.

نفسه، وسيطر المماليك على باقي القلاع في عام (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، وتحالف الطرفان وتعاونا على محاربة المغول والصليبيين معاً.

نتج عن هذا التحالف أن عيَّن الظاهر بيبرس الكثير من الحشاشين في مراكز القيادات العامة لجيوشه، وسلَّم قيادة الأسطول البحري إلى القائد جمال الدين شيما، كما أقطع الكثير منهم بعض القرى والمزارع في مصر لتشجيع الزراعة، بعد أن لاحظ كثافة السكان في قلاعهم وازدياد عددهم بشكل مضطرد في جبال قاحلة ليس فيها أراضٍ زراعية.

تمتَّع الحشاشون في بلاد الشام في أواخر عهد الظاهر بيبرس بالحرّيَّة والنفوذ والجاه، وبالحقوق والواجبات الممنوحة لمواطني الدولة. لكن هذا التحالف لم يدم مدة طويلة، ففي ظل الصراع المملوكي على السلطة بعد وفاة الظاهر بيبرس في (محرم ٦٧٦هـ/ حزيران ١٢٧٧م)، استقر الأمر للمنصور قلاوون الصالحي، وقد واجه في بداية حياته السياسية تمرُّد بعض القادة، مثل نائب السلطنة عز الدين أيدمر الأشرفي في دمشق، وسنقر الأشقر في دمشق أيضاً، فأرسل حملة عسكرية في عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م) بقيادة علاء الدين سنجر الحلبي لقمع حركة التمرُّد، وانقسم الحشاشون بسبب الحرب بين الطرفين، إلى فريقين، أيَّد الفريق الأول السلطان قلاوون، وهم أتباع نجم الدين الشعراني، وساند الفريق الثاني سنقر الأشقر، وهم أتباع صارم الدين مبارك، وفي الوقت الذي كانت الحروب دائرة، جاءت الأنباء عن تجمُّع المغول بهدف مهاجمة بلاد الشام، فتنادى الفريقان إلى التفاهم والصلح لمواجهة العدو المشترك، وتوقفت العمليات العسكرية.

ويبدو أن السطان قلاوون استاء من موقف بعض الحشاشين الموالين لسنقر الأشقر، وعزا موقفهم إلى كبريائهم وما يتمتعون به من الحقوق والامتيازات، لذلك قرَّر القضاء على هذه الطائفة، فهاجم قلاعهم الواحدة تلو الأخرى، ثم استقطبهم، فعفا عنهم، وعاملهم باللِّين، واتخذ منهم مستشارين لتحقيق أهدافه، وكان ذلك في عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، فخمدت حركة الحشاشين منذ ذلك الحين في بلاد الشام، ولم تعد لها أهمية سياسية تُذكر.

وما جرى في القرن الرابع عشر الميلادي من انشقاق حركة الحشاشين،

أضحى هؤلاء في بلاد الشام وفارس، يتَّبعون زعماء مختلفين، وتوقفت الاتصالات بينهما، وبعد انتصار السلطان سليم العثماني على المماليك في معركة مرج دابق شمالي حلب في عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، وأثناء زحفه باتجاه الجنوب، استقبل في حماة الأمراء والوجهاء والعلماء، فطلب منه هؤلاء تجريد حملة عسكرية للقضاء على الحشاشين بحجة أنهم ملحدون وأداة للشرور، فأرسل أحد قادته على رأس قوة عسكرية إلى قلعة المنيعة لإحضار داعيتهم شهاب الدين أبي فراس، فحضر معهم إلى حماة، واستعدَّ أعوانه للقتال في حال تعرُّضه للأذى، وبعد اجتماعه بالسلطان، بدَّل هذا رأيه في هذه الطائفة، فأقام معها علاقات طيبة، ومنح أفرادها الامتيازات كمواطنين، وأصبح هؤلاء مجرد مجموعات صغيرة ليس لها تأثير في مجرى الأحداث، تعتمد أساساً على الزراعة، ويخضع بعضها الآن لإمامة أغا خان.

وعلى هذا الشكل، كانت نهاية الحشاشين في بلاد الشام.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية واللغات الإسلامية

أ ـ المصادر

- **ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي... الشيباني المعروف بابن الأثير.**
  - الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- **الأنطاكي، يحيى بن سعيد:**
  - تاريخ الأنطاكي، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، لبنان، طرابلس، ١٩٩٠.
- **ابن أيبك، الدواداري أبو بكر عبد الله:**
  - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس المسمى الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار، ١٩٦١.
- **البراقي:**
  - تاريخ النجف والكوفة، النجف، العراق، ١٩٦٠.
- **البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل:**
  - صحيح البخاري، كتاب العتق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٦، ٢٠٠٩.
- **البغدادي، عبد القاهر:**
  - الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥.
- **البلاذري، أبو الحسن:**
  - فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١.
- **البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني:**
  - سيرة أحمد بن طولون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

- البنداري، عماد الدين محمد الأصفهاني:
  - تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- التاجر، محمد علي:
  - عقد اللآل في تاريخ أوال، مخطوط ملحق بكتاب: من سواد الكوفة إلى البحرين، لمي خليفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.
- الثعالبي، أبو منصور:
  - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٦.
- جوانڤيل:
  - مذكرات جوانڤيل، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.
- الجوذري، أبو علي منصور العزيزي:
  - سيرة جوذر، نشر محمد سعد وحسين الديب، القاهرة، ط١، ١٩٣٣.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد:
  - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدرآباد الدكن، ١٣٥٧م.
  - مقتطفات من المنتظم، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.
- الجويني، عطا ملك:
  - تاريخ جهان كَشاي، بسعي واهتمام محمد بن عبد الوهاب القزويني، بريل، ليدن (بالفارسية).
- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد:
  - الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- الحسيني، صدر الدين أبو الحسن:
  - أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨١.

- الحمدي اليماني، محمد بن مالك بن أبي الفضائل:
  - كشف أسرار الباطنية، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: الجامع في أخبار القرامطة، دار إحسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
  - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
- ابن خردازبة:
  - المسالك والممالك، ليدن.
- الخزرجي، علي بن الحسن:
  - العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد:
  - العبر في ديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩.
- خسرو ناصر:
  - سفرنامه، تحقيق: سهيل زكار في كتابه الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر:
  - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.
- ابن أبي دينار، أبو عبد الله الرعيني:
  - في أخبار أفريقية وتونس، تونس، ١٨٦٩.
- الدينوري، أبو حنيفة بن داود:
  - الأخبار الطوال، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد:
  - دول الإسلام، حيدرآباد، الدكن، ١٩١٨.
- الراوندي، أبو بكر محمد بن علي:
  - راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: الشواربي والصياد وحسنين، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠.
- ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج:
  - ديوان ابن الرومي، اختيار وتصنيف كامل كيلاني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٢٤.

❑ ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم:

- أخبار سيبويه المصري، نشر محمد سعد وحسين الديب، القاهرة، ط١، ١٩٣٣.

❑ سبط ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي:

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: دائرة المعارف الإسلامية، الهند.

❑ ابن سعيد، عريب:

- صلة تاريخ الطبري، ليدن.

❑ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن:

- حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

- تاريخ الخلفاء، تحقيق: أحمد إبراهيم زهوة، وسيد بن أحمد العبدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

❑ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمٰن إسماعيل:

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

❑ أبو شجاع، محمد بن الحسين الروذراوري:

- ذيل تجارب الأمم، حيدرآباد الدكن، ١٩٢١.

❑ الشهرستاني، محمد عبد الكريم:

- الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨.

❑ الصابئ، ثابت بن سنان:

- ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المسلمين، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.

❑ الصوري، وليم:

- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار تحت عنوان: تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٠.

❑ الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب:

- القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد القاهرة، الدار المصرية ـ اللبنانية، ١٩٩٠.

❑ ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا:

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.

❑ الطبري، محمد بن جرير:

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠.

❑ ابن الطوير، أبو محمد المرتضى القيسراني:

- نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، شتوتغارت، ١٩٩٢.

❑ ابن العبري، غريغوريوس الملطي:

- تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.

❑ ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبو جرادة:

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٩٩٧.

❑ ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي:

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وليفي بروفنسال، بيروت، ط٥.

❑ العصفور، الشيخ محمد علي:

- منتخبات من تاريخ البحرين، مخطوط ملحق بكتاب: من سواد الكوفة إلى البحرين، لمي خليفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

❑ العظيمي، محمد بن علي:

- تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤.

❑ العلوي، علي بن محمد بن عبيد الله العباسي:

- سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.

❑ العماد الأصفهاني، عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد:

- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح، القاهرة.

❑ عماد الدين، إدريس:

- عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت.

- **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمود:**
  - فضائح الباطنية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.
- **الفاروقي، أحمد بن يوسف ...بن الأزرق:**
  - تاريخ ميافارقين، تحقيق: عبد اللطيف بدوي عوض، القاهرة، ١٩٥٩.
- **فولشر الشارتري:**
  - تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٠.
- **أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل:**
  - تاريخ أبي الفدا المسمى المختصر في أخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- **القلقشندي، أحمد بن علي:**
  - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- **القمي، سعد:**
  - المقالات والفرق، طهران، ١٩٦٣.
- **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا:**
  - البداية والنهاية في التاريخ، دار المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.
- **الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف:**
  - الولاة والقضاة، تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن:**
  - مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت.
- **مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:**
  - تجارب الأمم، آمدروز ـ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- **المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله أحمد:**
  - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.
- **المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي:**
  - إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧.
  - المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين، تحقيق: سهيل زكار في كتابه: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.

  - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، الثاني والثالث، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
  - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد:**
  - لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- **ميرخواند، محمد بن خاوندشاه بن محمد:**
  - روضة الصفا، تهران، جاب بنجم، ١٣٣٩ هـ.ش (بالفارسية).
- **ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب:**
  - أخبار مصر، باعتناء هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩.
- **ابن النديم، محمد بن إسحاق:**
  - الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٩٤.
- **النسوي، محمد بن أحمد بن علي:**
  - سيرة جلال الدين منكبرتي، تحقيق: حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣.
- **النصيبي، ابن حوقل:**
  - صورة الأرض، بيروت ـ ليدن، ١٩٦٧.
- **النعمان، القاضي محمد:**
  - رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٧٠.
- **النوبختي، الحسن بن موسى:**
  - فرق الشيعة، بيروت، ١٩٨٤.
- **النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:**
  - نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- **الهمذاني، رشيد الدين فضل الله:**
  - جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، تاريخ هولاكو، نشر كاترمير، باريس، ١٨٣٩. (بالفارسية).

□ **الهمذاني، محمد بن عبد الملك:**

ـ تكملة تاريخ الطبري، بيروت، ١٩٥٩.

□ **اليافعي، أبو محمد اليمني المكي:**

ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧.

□ **اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب:**

ـ تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣.

□ **أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم:**

ـ كتاب الخراج، مصر، المطبعة السلفية، ١٣٤٦هـ.

ب ـ المراجع

□ **بدوي، عبد الرحمٰن:**

ـ مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢.

□ **بروكلمان، كارل:**

ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٦٧.

□ **بزُّون، حسن:**

ـ القرامطة بين الدين والثورة، دار الانتشار العربي، بيروت، ١٩٩٧.

□ **تامر، عارف:**

ـ القرامطة أصلهم نشأتهم تاريخهم وحروبهم، دار مكتبة الحياة، بيروت.

□ **جوزي، بندلي:**

ـ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت.

□ **حسن، إبراهيم حسن وطه أحمد شرف:**

ـ عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

□ **الخليفة، مي:**

ـ من سواد الكوفة إلى البحرين، القرامطة من فكرة إلى دولة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

□ **خليل، فؤاد:**

ـ الإقطاع الشرقي، دار المنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

□ **الدشراوي، فرحات:**

ـ الخلافة الفاطمية بالمغرب، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

□ **دفتري، فرهاد:**

ـ خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.

ـ الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، دار المدى، ط١، دمشق، ١٩٩٩.

□ **الدوري، عبد العزيز:**

ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، ١٩٤٥.

ـ دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥.

□ **دي خويه، ميكال يان:**

ـ القرامطة نشأتهم دولتهم وعلاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق: حسني زينة، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٧٨.

□ **رنسيمان، ستيفن:**

ـ تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢١، ١٩٨١.

□ **الريس، محمد ضياء الدين:**

ـ الخراج في الدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧.

□ **زكار، سهيل:**

ـ الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧.

□ **السامر، فيصل:**

ـ ثورة الزّنج، دار إحياء التراث، بيروت، مكتبة المنار، بغداد، ١٩٧١.

□ **آل سلهام، حسين بن حسن:**

ـ ساحل القرامطة، دار كيوان، دمشق، ط١، ٢٠٠٨.

□ **سيد، أيمن فؤاد:**

ـ الدولة الفاطمية، الدار المصرية ـ اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٢.

□ **ضيف، شوقي:**
- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

□ **الطالبي، محمد:**
- الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥.

□ **طراد، طادروس:**
- الحركة القرمطية في العراق والشام والبحرين وأهميتها التاريخية، دار عشتروت للنشر، دمشق، ٢٠٠٢.

□ **طقوش، محمد سهيل:**
- تاريخ الفاطميين في شمالي أفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠١١.

□ **العريني، السيد الباز:**
- المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩.

□ **العزيز، حسين قاسم:**
- البابكية، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.

□ **علبي، أحمد:**
- ثورة الزَّنج وقائدها علي بن محمد، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١.

□ **علم الدين، سليمان سليم:**
- القرامطة نشأتهم عقائدهم حروبهم، دار نوفل، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

□ **عليان، محمد عبد الفتاح:**
- قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، القاهرة، ١٩٧٠.

□ **غالب، مصطفى:**
- القرامطة، دار الكاتب العربي بيروت.

□ **غروسيه، رينيه:**
- جنكيزخان قاهر العالم، تعريب خالد أسعد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٠.

□ **فوزي، فاروق عمر:**
- نشأة الحركات الدينية ـ السياسية في الإسلام، الأهلية للنشر، عمان، ط١، ١٩٩٩.

□ **فياض، نبيل:**
- الطائفة الإسماعيلية جسر يربط الدين بالعقل، مجلة الموسم، العددان ٤٣ و٤٤، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

□ **لسترنج، كي:**
- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركين عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

□ **لويس، برنار:**
- أصول الإسماعيية والفاطمية والقرامطة، ترجمة: خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب، مكتبة المثنى، بغداد.
- الحشاشون، تعريب: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦.

□ **محمود، حسن أحمد وأحمد إبراهيم الشريف:**
- العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٥.

□ **نشرة الجزيرة العربية، العدد ٥، أيلول ١٩٧٣.**

□ **هشي، سليم:**
- في الإسماعيلية، بيروت، ١٩٧٥.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Brown, A: A Literary History of Persia. Cambridge university press 1951.
- Casanova, paul:
  - Le Doctrine Secrète des Fatimides d'Egypt.
- Comnina, Anna:
  - The Alexiad. Trans by Elizabeth Dowes. London 1928.
- Dozy, Reinhart:
  - Histoire des Musulaman d'Espagne, Leiden 1932.
- Grousset, René:
  - Histoire L'Armenic des Origines jusqua 1071. Paris 1947.
  - L'Empire de la steppes. Paris 1948.

- Ivanof, vladimir:
  - Ismaili Traditions Concerning the Rise of the Fatimids. London 1942.
- Mathew of paris:
  - Chronica Majora: Trans by johne Gayles-london 1852 - 1853.
- Nicholson, R.A:
  - The mystic of Islam. London 1914.
- Psellus, Michael:
  - The Chronographia: Trans by E.R.A. Baltimor 1966.
- De Sacy, Sylvester:
  - Religion des Druzes. Paris 1818.
- Vasiliev, A.A:
  - History of the byzantine Empire Madison 1928.

محتوى الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني عشر: الحشاشون في بلاد الشام

رقم: 601 - 14



هذا الكتاب استكمال لمجموعة الكتب في التاريخ العربي والإسلامي التي أصدرتها دار النفائس في بيروت من تأليف المؤرخ أ.د. محمد سهيل طقوش. وهو يتناول ثلاث حركات معارضة أقضّت مضجع الخلفاء العباسيين، وتركت بصماتها في تاريخ المسلمين.

الحركة الأولى: ثورة الزَّنج، ولم تكن لها دوافع دينية، بل كانت ثورة عبيد مضطهدين استغلَّ بؤسهم مغامر عربي يسعى إلى المال والسلطان، فحرَّضهم على مالكيهم من الإقطاعيين ووعدهم بالأراضي والأموال، فاستولوا على سواد الكوفة وعاثوا في المنطقة فساداً حتى قضى عليهم الخليفة العباسي، ولم يتركوا أثراً بعد زوالهم.

الحركة الثانية: حركة القرامطة التي انطلقت من سواد العراق، وكانت ذات دوافع دينية وجذور شيعية، تحوّلت إلى الإسماعيلية ثم اختلفت معها، ولم يقتصر وجودها على العراق والأحساء بل تمدَّدت إلى البحرين واليمن والشام. واعتمدت كسابقتها السلب والنهب، لدرجة أنها هاجمت مكة واقتلعت الحجر الأسود ونقلته إلى "هجر" شرقي الجزيرة واحتفظت به ٢٢ سنة حتى ضجَّ من تصرُّفاتها العالم الإسلامي، وقضى عليها، ولكنها تركت أتباعاً وجذوراً، وإن لم تشكل دولة.

الحركة الثالثة: حركة الحشّاشين. التي أسَّسها الحسن بن الصباح في قلعة آلموت في خراسان، وهي إحدى الحركات الباطنية التي اشتهر أتباعها بالاغتيالات، إذ اغتالوا عدداً من كبار رجال الدولة العباسيين، وامتدَّ نفوذهم إلى بلاد الشام، وأنشؤوا فيها القلاع كما فعلوا في خراسان، وتابعوا نشاطهم في الاغتيالات، واستمر وجودهم في قلاعهم حتى العهد العثماني، وبعد معركة مرج دابق اعتبرتهم السلطنة مواطنين كغيرهم من الأقلّيات.

ولا ريب أن البحث في هذه الحركات صعب، ولكن المؤلف وُفِّق إلى تقديمها بشكل علمي رصين يعطي القارئ فكرة حقيقية عن الحركات الثلاث.

الناشر



ISBN 978-9953-18-534-7
9 789953 185347